

الأرجوحة
رواية
مستوحاة من قصص حقيقية



ديوان العرب للنشر والتوزيع

اسم الكتاب: الأرجوحة

اسم المؤلف: سماء يوسف زعانين

التصنيف: رواية

الحجم: 14 - 20

عدد الصفحات: 322

سنة الإصدار: 2025

رقم الطبعة: الأولى



رقم الإيداع: 2025 / 21534

الترقيم الدولي: 4 - 244 - 971 - 977 - 978

تدقيق لغوي: محمد خليل شباط

تصميم غلاف: نعمة أنور كريم

تنسيق وإخراج: فريق ديوان العرب

للتواصل: dewanalarabegypt@gmail.com

واتساب: 01030502390

الأرجوحة

رواية

مستوحاة من قصص حقيقية

سماء يوسف زعانين



إهداء

الظلمة التي لا تمحوها الشمس، تصبح من أنفاسهم كأنّها الضحى
المصباح الذي يُشعل من شمعة فإنّ كلّ من يراه، يرى نور الشمعة.
إلى المصباح الأخير المضاء بوهج الصابرين الصامدين، مصدر النور لشموع
التائهين العائدين، إلى فلسطين وأهلها.

سماء يوسف زعانين

لا أعرف كيف نجوت، ولكني نجوت، كنتُ كما قال درويش: "لستُ سوى
رمية النرد بين مفترس وفريسة"

لم تكن هذه الحرب من الطائرات الحربية والمدافع والآليات العسكرية
فقط، بل كانت أيضًا من السارق والمستغل والتاجر والخائن، من المرض
والجوع والخيمة والتشرد، من البرد والفاقة والعجز والتهيه، كانت حربًا من
كلّ الشرور التي عرفتھا الكرة الأرضية عبر العصور.

ولكنّي نجوت!

ربّما نجوتُ لأنّ الله قدّر لي ذلك، جعلني أبدو أصغر من هدفٍ عسكريٍّ
وأحقر من قطعة نايلون تستحق السرقة لإشعال نار الطهو! فنجوت كي
أكتب وطني الذي يستحق أن يُقرأ.

الكاتبة

شكر وتقدير

إلى دموع أمي التي لم تنقطع منذ السابع من أكتوبر، دموعٌ كانت تسيل على صفحات قلبي وتشكل دافعاً لا ينضب للاستمرار، فكانت الكتابة في حضور حزنها صلاةً لا تنتهي.

شكراً لأخي، الذي ما إن وطئت قدماي أرض مصر، حتى جاءني حاملاً الحاسوب بيد، والأمل بالأخرى، وقال لي ببساطة تشبه المعجزات: "لتستمر في الكتابة، وتفوزي بالجوائز". كلماته وهديته كانت إعلاناًحنونا قيماً عن بداية لا تشبه أي بداية.

وشكراً ينساب من قلبي إلى زوجي وأبنائي، أولئك الذين غابت عنهم أمهم قليلاً، لأن الرواية كانت تأخذني منهم، لكنهم ظلّوا الوطن الذي أعود إليه دائماً، بكلّ حبّ، وبلا شروط.

وإلى زوجة أخي، رفيقة السوق والنزوح والصعوبات، التي مشيت معها في الطرقات الثقيلة، فمنحتني قوّتها دون أن تدري، بضحكتها البسيطة، وطيبتها التي كانت نسمة رحمة في زمنٍ قاسٍ خشن. ولصديقتي وحبيبتي إسلام، التي كانت، ولا تزال، معول بناء في روحي.

قالت لي يوماً:

"رغم غربتي، كنتِ معي في كل لحظاتي.. لم تفارقيني. كنتِ قوتي."
وما لم تقله، أنني أنا من استندتُ عليها حين مالت الدنيا، وأن حضورها
وإن كان بعيداً، كان أقرب إليّ من أنفاسي في لحظات الانكسار.
إسلام.. أنتِ غربّةٌ لم تُشعري يوماً بالوحدة، وذاكرةٌ تمشي معي بثوبٍ من
قوة وإصرار على متابعة الطريق.

إلى أحضان أم خالد، ودموعها الباكية وهي تقول: "اكتبي عنا"،
كأنّها تُحمّلي أمانة من وجع، من رجاء، من حكايات لم تُكتب بعد،
فصارت دموعها نبضاً يرافقي في كلّ سطر، وطلبها عهداً لا يُنسى.

وإلى أمّ عصام، رفيقة الخيام والوجع النبيل، هادئة، مثقفة، عميقة، وجميلة
كالصبر.

حين هممتُ بالرحيل، قالت بحنان موجع وعينين دامعتين: "خَلَصْ..
حتسبيني؟"،

ولم أُجبها، لأنّ القلب لا يفارق من سكنوه.

وإلى خالي، الذي ما زال يسأل عني رغم ضيق حاله، يحملني في قلبه كتكملة
لبناته الأربع، كأني غصن خامس في شجرة محبّته، لم يخذلني يوماً وكان
بيته ملجأً آمناً دافئاً، وكان حضوره دعاءً صامتاً لا يغيب.

وإلى والد زوجي، الذي لا ينفك عن إرسال كلّ ما يظنّ أنّه يفيدني في درب الكتابة، يسأل عن أحوالي كأنّه يرافقني في الرحلة من بعيد، كمن يزرع في طريقي وروداً من علم واهتمام.

إلى تلك السيدة الطيبة، التي آوتنا في بيتها حين كان الشارع مأواناً، لم تسأل من نكون، ولم تنتظر مقابلاً، كانت ملاذاً في لحظة انكسار، وبيتها في تلك الليلة، تحوّل إلى وطن.

إلى إمام المسجد الذي اعتدت الصلاة فيه خلال شهر رمضان في جمهورية مصر العربية، ذلك الإمام الذي لا أعرف اسمه، لكنني أعرف قلبه، ذاك القلب الذي لم ينقطع عن الدعاء لأهلي في غرة.

صوته الشجي أشعل الدموع في كلّ العيون من حولي.. إلا عيني، فقد استنفدتا البكاء.

لكن دعاءه النابع من مقامٍ لا يُرى، جعل قلبي ينزف على الورق، كأنّ الحروف وحدها ما تبقي لي من ظُهر البكاء.

إلى عامل المخبز، الغلبان (بالمسمى المصري)، ذاك الرجل البسيط الذي يحمل وجهاً مُغبرّاً بالشقاء، وقلباً نقيّاً لا تشوبه حسابات الحياة، أعاد ثمن الخبز في الكيس خلسة، وحين اكتشفت الأمر عدتُ إليه لأعيده، قال: "والله ما هي راجعة، خليني أحسّ إني قدمت حاجة".

فقدّم.

قدّم لي لحظة نادرة من الصفاء في عالم مثقل بالحسابات، وعلمني أن اليد التي تعطي من القلة، تعطي من الروح.
لم تكن مجرد أرغفة، بل كانت قلباً ممدوداً على هيئة عطية، وكرامة تُعطى ممّن لا يملك إلا إنسانيته.

لقد قال وفعل القليل.. لكنه عبّر عن الكثير.
إلى تلك السيدة الطيبة، التي التقطت من حوار العابر مع صديقتي ما لم ينتبه إليه سواها.. حين قلت ضاحكةً في محل الأدوات المنزلية:
"كان عندي طقم زي هاد، بس ساح مع الشقة المحروقة."

ضحكنا، كأَنَّ الضحك طريقة لنخفي الرماد داخلنا.
لكنّها لم تضحك، اقتربت منّي ودمعتها تسبقها، وفانوسٌ صغيرٌ أحمر اللون في يدها، وقالت بصوتٍ مختنق: "ممّن تقبلي منّي الهدية البسيطة دي؟
وممّن أحضنك؟"

فاحتضنت قلبي قبل أن تحتضن جسدي، وبكيتُ أنا، لأنّ فانوسها لم يكن مجرد فانوس.

كان تذكيراً بأنّ النور لا يُشترى، بل يُمنح.
وبأنّ بعض الهدايا ليست أشياء.. بل مواساة صافية من قلبٍ ربّما لم يمر مثلنا على النار، لكنه جاء وفي يده ضوء يحفزنا على الاستمرار.

إلى كل دمعة ذُرفت في الوداعات، والقهر، والموت والنزوح، حيث حملتها على
أكتافي أمانة لا تُنسى، لتكون كلمات روايتي مرآة لوجعها، وشهادة صادقة
على ألم لا يخبو.

شكر خاص

إلى من سكن بين حروف روايتي، وأيقظ في الكلمات نبضًا من نور، إلى الكاتب والمحرر: (محمد خليل شباط)

ذلك الزميل الصبور المهذب، الذي اكتملت بخيوط علمه وذائقته ملامح الحكاية بأمانة وإتقان،

كان متذوقًا للحرف، شاعرًا في صمت، ينساب مع اللغة كنسيم رقيق، ينصح بصدق، ويصقل الجمال بنقيدٍ راقٍ، كان ضمير الرواية وصدي أصداء روحها.

شكرًا لأنك حملت قلمي في عينيك، وجعلت من كل كلمة لحنا خالدًا ينبض في القلب.

عيناك حلمي الذي سيكون
كبيراً كما يحلم المتعبون
كبيراً كخير بلادي
يداك تلوح للعائدين
وتحمل خبزا إلى الجائعين
أحبّ يدك
وأكثر أكثر أحبّ بلادي
ستكون لي لو تعشق الأوطان مثلي
سأكون لك لو عاد للأوطان أهلي

فايا يونان
كلمات: مهدي منصور

2029/1/1

كانت الشمس على وشك المغيب حين وصل أرضه التي تقع في مدينة سالونيك في اليونان، ركن سيارته جانبا ونزل، مشى عدّة خطوات بجوار جدولٍ من الماء ألقت عليه الشمس ذيل ردائها، وصوت العصافير يشنّف الأذان بالأنغام قبيل المبيت بعد يوم طويل.

النسمات اللطيفة حركت خصلات شعره المتدلّية فوق عينيه العسليتين، نظر إلى الماء فكان صافيا جميلا لا يعكّره اللهب الدموي المشتعل في العالم. مسح قطرات الدم المناسبة فوق جبينه، غسل كفّيه وذراعيه والأوساخ العالقة على وجهه، تنحى جانبا ورمى نفسه على ظهره ناظرا إلى صفاء السماء بعدما ارتدت عباءة الأفول، وتوشّحت بحمرة المغيب الخافت.

أغمض عينيه وغفا لثوانٍ معدودة، تردّد صوت صرخات متألمة في أذنيه:

"يوسف .. لا ، لا تفعل أرجوك .. أنا ورد

هل نسيت من تكون ورد؟

يوسف .. لا اااا"

اعتدل فزعا لاهثا .. نظر باتجاه الأرجوحة المربوطة بأغصان شجرة الزيتون، كانت تتحرك بفعل نسيمات خفيفة، شاهد طيفا لطفلة صغيرة ترتدي فستانا أبيض اللون، وحذاءً أحمر، تتدلى ضفائرها الطويلة إلى وسط

فخذيها، تجلس على الأرجوحة، تضحك، تقهقه وهي تقول بصوت ذي رنينٍ بعيد: "أقوى يا يوسف، أريد أن أطير، أقوى"

تفرد ذراعيها جانبا كجناحي حمامة طليقة، تصدح بفرح رنان: "أقوى"
استند على كفيه ووقف، هرول باتجاه الأرجوحة واحتضنها بقوة، أخذ يردد بصوتٍ متقطع، في حين بلّلت دموعه الأرض من تحته: "أ..أنا لم أفعل .. ل..لم أفعل شي.. شيئا يا ورد"

بقي هكذا لمدة من الزمن، ثم مسح دموعه وأخرج قلمه من جيب قميصه وورقة بيضاء مطوية من جيب بنطاله الخلفي، نظر إلى الشامة التي تفتersh معصمه الأيمن على شكل اسطوانة صغيرة باللون البني الفاتح، تردد صوتٌ ناعمٌ ناعسٌ في أذنيه: "أعشق لمس معصمك يا يوسف، أهيم بالشعور الذي ينتابني حين أتغذى على نبضه المتسارع حبا، وأولع بإحساس الدفء الذي يغمرني حين تتسارع أنفاسك إثر لمسي لك"
ابتسم بحزن وحنين ثم بدأ يكتب:

"حبيبتي ورد.."

أكتب لك دوما وأفرغ ما في قلبي على الورق الأبيض، فالأبيض رمز النقاء حيث لا كذب ولا خداع، الأبيض يتحمل سيل المشاعر الجارفة، وبشاعة وجمال الكلمات في الوقت نفسه فهو يضم كل ألوان وأطياف الأحاسيس تحت ستره..

أنا لا أعلم أين أنتِ ولا كيف هو حالكِ الآن، وهذا ما يقتلني حقاً، ومع هذا أكتب لكِ ثم أدفن ما كتبت في التراب، فالتراب أمين وكلّ ما تزرعه فيه تحصده دون أن يخونك، وأنا أزرع أشواقي وحنيني لكِ لأحصد حبكِ وودّك يا ورد.

الأرض تشبه عشقكِ كثيراً، كلاهما أصل البقاء، هي أصل بقاء شعبها، وعشقكِ أصل بقائِي أنا..

الأرض وحدها القادرة على فهم مشاعرنا وأحاسيسنا، ألم نخلق منها وسنعود إليها؟

فحتما هي أكثر من يفهمنا، وأكثر من يملك القدرة على إيصال رسائلنا وكلماتنا؛ عبر ترابها الذي يحمل سمات إنسانية نقية، خالية من وحشية البشر.

أنا لم أفعل شيئاً يا ورد.. صدّقيني لستُ أنا الفاعل، فكيف لإنسان أن يسحق وردته الوحيدة في هذه الحياة؟!

كيف له أن يقطع حبله الوريدي ويترك نفسه بلا نبض، وبلا نفس؟ في كلّ ليلةٍ.. أطوف بحثاً عن مرقدكِ، أدور وأدور حتى الصباح، يصيبني الأرق والسُّهاد ولا أعود سوى بالعدم.

أظّل أردّد اسمكِ حتى الفجر، يسكر طائر الليل من وقعه عليه، وأنا كذلك الطائر، ذاهب عقلي إلا من صورتكِ التي نُقشت باحتراس في الفراغ الطويل من باطني.

ولأنيّ غبت عنك أدري فقط كيف أبكي!
يا ليتني أستطيع لقاءك، عناقك ومحادثتك، يا ليتني ألقاك يا ورد فقط
لأعرف ما الذي جرى في تلك اللحظة!
لأخبرك عن السرّ الذي عرفته منذ لحظات، والذي حتمًا سيطمر الفجوة
بيننا، لأكشف لك عن ما في قلبي من سوادٍ فتمحيه، لتقطبي جراحي بيديك
الحانيتين، ولأخذ أنا كلّ مآسيك وألقي بها بعيدا في بحر العدم.
في قلبي براكين، وفي جوفي تقوم القيامات.. أنا أموت كلّ يوم وحدي وفي
صمت،

محبك يوسف"

مسح يوسف دمعات ترقرت في عينيه، طوى الورقة وحفر حفرة تحت
الأرجوحة، دفن فيها رسالته، نظر باتجاه السماء وأطلق صرخة مدوية، ثم
جلس على الأرجوحة مسندا ظهره إلى شجرة الزيتون، وما هي إلا لحظاتٍ
قليلة حتى استسلم لتعبه وغفا.

-1-

2023/6/2

بدا البحر مزرقاً صافياً مثل صفاء السماء من فوقه، تتخلله موجات خفيفة هادئة، تظهر من بعيد كابتساماتٍ بيضاء لطيفة مرحبة بقدوم صباح يوم جديد.

كانت ورد تجلس على كرسي بلاستيكي بني اللون، تركز ذراعها اليسرى على الطاولة المستطيلة أمامها وتسند خدّها على كفها المتكورّة. تراقب البحر بعينها اللوزيتين وتتابع حركة سريعة لمركبٍ صغير يتحرك ذهاباً وإياباً ويرفرف علم فلسطين فوقه بشكلٍ مبهج. رسمت على شفاهها ابتسامة خفيفة تعبّر عن مدى راحتها في الجلسة، واستمتعتها بالمنظر الخلّاب، والهواء المنعش.

تحبّ ورد الجلوس في هذا الركن من مدينة غزة، مطعم ومقهى (فيولا) تحديداً، فهو مقهى يتخذ شكل السفينة في البحر، يمنحها شعوراً بأنّها قادرة على السفر على متن سفينة كبيرة، حرّة، أسطورية-كتيتانيك- مثلاً ولكن دون قدرها المأساوي، في هذه المدينة المسجونة داخل حدودها.

تكتب الشعر كهواية، تصمّم مبنىّ باستخدام عقلها الهندسي، وحسّها الإبداعي، وجهاز الحاسوب المحمول الذي لا يفارقها، ترتشف القهوة بشغف

المحب للحياة، وتستمتع لصوت فيروز الرخيم حين تشدو بنغم الحب والجمال.

أمّا اليوم فهي تجلس منتظرة يوسف الذي أصرّ أن يقابلها في المكان الذي تحبه.

"صباح الورد يا ورد" غرّد صوت تحية يوسف بمرح "أهلا يا يوسف .. صباح النور" قالتها ورد بصوتٍ ناعمٍ رقيق، وهي ترمقه بعينيهما الخضراوين.

جلس يوسف على الكرسي المقابل لورد، نظر إليها مبتسما وهو يخرج علبة صغيرة من جيبه:

"اليوم عيد ميلادك .. كلّ عام وحبّيتي بألف خير، تفضلي"
"ما هذا يا يوسف؟ أنتَ تعرفُ أنّي لا أحب الاحتفالات وخصوصا احتفالات أعياد الميلاد"

"هذا ليس احتفالا وإنّما هدية"
"يوسف .. أنتَ دائما ما تحرّجني بلطفك" قالت وهي تتناول منه العلبة على استحياء

فتحتها واتسعت عيناها دهشة وهي تنظر إلى مفتاح حديدي لامع وأنيق يتوسط العلبة

"مفتاح ماذا هذا؟" تساءلت بصوتٍ هادئٍ وملامح مندهشة

"مفتاح شقتنا.. ما رأيك أن يكون العرس بعد انقضاء هذا الصيف
الحار؟" أجاب يوسف بحماس
"حقًا؟" قالتها ورد باستغراب
"أجل."

"ولكن كيف؟ ألم تكن تخطط لإكمال دراسة الماجستير؟"
"نتزوج ثم نكمل المخططات معًا"
"وهل ستسافر وتتركني؟"

"كلّا.. لا تقولي هذه الكلمة أبدًا، وهل يُثمر الشجر بلا وردته؟"
"يوسف.. أنا أتكلم بمجدية"

"وأنا كذلك.. لا أقول كلاما رومانسيًا حالمًا بعيدا عن الواقع، إن وُجدت
ورد فيوسف موجود، وغير ذلك مستحيل.

اسمعي يا ورد لم أحصل على المنحة الدراسية بعد، وإن حصلتُ عليها لن
أُتصرف في شيءٍ وحدي، أنا وأنتِ صاحبا القرار."
نظر إليها بحنان فالتزمت الصمت

أردف بصوتٍ هاديٍّ: "ولا أظن أنك ستعارضين فرصتي في السفر لأول مرة
في حياتي.

تخيلي يا ورد أن نخرج خارج حدود هذا السجن الكبير، وتكون لنا حرية
التنقل كسائر العالم"

ردّت ورد بصوتٍ حالمٍ مَوْشَح بالترّدّد: "لا أعلم يا يوسف.. فأنا أتوق فعلاً لاكتشاف العالم الخارجي، أطلع مثلاً لمشاهدة قمم الجبال، وأتمنى أن أركض أنا وأنت بحريّة كالخيول البرية على سفح جبل ما، أو نتبادل الحب تحت ظلّ شجرةٍ معمرة تعتمر إحدى التلال في هذا الكون الفسيح، أتوق للعب واللهو تحت أضواء الشفق القطبي كغزالٍ لم يختبر شرور الأرض بعد، أو أن ألمس الثلج، أصنع منه كرة قُطنية، وأرميك بها كطفلةٍ مدلّلة، أركب سفينة تمخر عباب البحر بلا حدود، ولكيّ أحبّها يا يوسف"

"من هي؟"

"غزة .. أحبّها كثيراً اعتبرها جنّتي التي أسستها بيديّ وزرعتها شجرة شجرة، هي تفهمني وأنا بتّ خبيرة في فكّ شيفرة الحياة داخلها، بحرّها منفضة أوجاعي، وزيتونها بلسم آلامي"

"شعور متبادل يا ورد.. وأنا لم أطلب أن تتخلي عنها. اسمعي .. أئنسكين بأني يمكن أن أؤدي مشاعرك ولو بحرف؟ أو أجبرك على أمرٍ لا ترغبين بفعله؟"

"لا أشك أبداً، فأنا أعرف جيداً من هو يوسف" قالتها ورد بحنان

"حقاً ومن هو؟" سأل يوسف بنوعٍ من الغرور والتباهي

"هو ذلك الطفل الذي رمى بنفسه أمام الكلب المسعور في بيارة الزيتون لحمايتي"

قهقهت ورد ونظرت باستفزاز، حرّكت حاجبيها الكثيفين للأعلى والأسفل ساخرة: "أتذكر ماذا حصل وقتها؟"

احمّرت وجنتا يوسف بنجل وقال ببعض العصبية: "أجل .. لقد عصّني الكلب في مؤخرتي وصرتُ حديث العائلة والأصدقاء، مبسوفة؟"
ضحكتُ ورد مرّة أخرى وأردفت: "بل حديث قرية بيت حانون بأكملها"
"اسمعي فلنعد إلى حديثنا الجدي، أذكرين تلك الشقة التي أعجبتك على البحر؟"

"في منطقة المينا؟"

"أجل"

"لا يعقل .. هل اشتريتها يا يوسف؟ لقد كانت باهظة جدا" قالت ورد باستنكار

"وهل يغلو عليك شيء يا ورد؟ سوف تكون قَصْرنا الصغير الذي نملؤه حباً"

"ولكن .. كيف؟ ما زلتَ جديداً في الوظيفة"

"تدّبرت أموري المالية، جدّي منحني بعض المال لأدفع المبلغ الأول، وسوف أسدّد أقساطها، لا تقلقي"

"تقصد سوف نسدد أقساطها معا، فأنا رائعة في التصاميم المعمارية كما تعلم"

"وهل توجد مهندسة مبدعة أكثر من حبيبتي؟"

أمسك بيدها وحرّك خاتم الزواج في يدها اليمنى بحركة دائرية ناعمة: "إذن هل سأجتمع مع حبيبتي بعد انقضاء هذا الحر؟ مثلاً في شهر أكتوبر، مثلاً"

في السابع منه، وأكون وقتها قادرا على طلب إجازة من العمل، ما رأيك في هذا التاريخ؟"

قلّبت ورد يد يوسف وتحسّست الشامة التي تظهر باللون البني على معصمه الأيمن، شعرت بالأمان والراحة حين أحسّت نبضاته المتسارعة، "أتعلم؟" قالت بصوت ناعم عذب

"هذه النبضات المتسارعة التي أشعر بها في كلّ مرّة أقترّب منك أو ألمسك، تذيبني عشقا، أمان أنوثتي يحيا وينمو داخل بيت هذا النبض يا يوسف." صمتت لثوانٍ ثم أردفت: " طبعاً لا أمانع ولا أعترض على موعد الزواج، ولكن ينتابني بعض الخوف من أن أفقد هذا الأمان، أفقد دفء نبضك وسكينة حضنك"

"ولم الخوف الآن يا ورد؟"

قالت ورد بذهن شارد: "لا أعلم .. ربما من شدة الحبّ أخاف الفقد" "لا تقولي هذا يا ورد، فالروح مسكنك، لن أفقدك أبداً، لا تقلقي، يجب أن أذهب الآن؛ إنّها السابعة والنصف، وعليّ أن أكون في المكتب في تمام الثامنة"

"تمام يا هندسة .. رافقتك السلامة، هل أترك معصمك؟"

قال يوسف بنبرة فيها القليل من المزاح: "معصمي لا يريد التحرر من أسر يديك، ولكنّها الحياة!"

ضحكت ورد بخفّة: "حسنًا .. سأبقى هنا لساعتين حتى أنهي التصميم وأرسله، ثم سأذهب للجامعة لإعطاء المحاضرات، ينتهي دوامي في تمام الثالثة"

"عظيم ..أمرّ عليك ونعود معًا إذن"

نهض ولوّح بيده مبتسما مودعا، ردّت ورد الابتسامة مودعة وهي تتحسّس قلبها الذي كان ينبض بتوتر شديد، زفرت بضع أنفاسٍ حارة، ثم أخرجت ورقة وكتبت:

"ينتابني شعورٌ غريب ومزعج، كأنّ صخرة هائلة الثقل وُضعت فوقى،
قلبي يؤلني جدا، وصدري يضيق بشدّة، وأشعر بأننا لن نجتمع أبداً يا
يوسف"

-2-

2023/10/1

تسلّلت الشمس الدافئة من بين أكتاف الصباح لتنعش زهور الورد
الجوري التي تتوّسد مدخل بيت ورد، يقع المنزل في مدينة بيت حانون على
بعد مئتي متر من منزل يوسف.

كان المنزل أبيض اللون رائع البنيان، يتكون من طابقٍ واحدٍ، وحديقةٍ تحيط
به من كلّ الجوانب.

تحتوي حديقته الأمامية على أشجار الليمون، والبرتقال، والزيتون، وزهور
الزينة، ونبات الصبار.

تتنوع المزروعات على جانبيه بين النعناع، والزعر، والميرمية، وأشجار
الفواكه المختلفة كالجوافة والخوخ.

كانت ورد تجلس داخل المنزل برفقة أبيها وأمّها وأخيها الصغير المدلّل
(يامن)، يحتسون شاي الصباح مع القليل من الكعك الفلسطيني المحشو
بالتمر.

ارتشفت أمّ يامن بعض الشاي وسألت وهي تعدّل جلستها على الأريكة
الخضراء: "هل أنت ذاهبة اليوم لاختيار فستان العرس يا ورد؟"
"أجل، ستمرّ أختي عصرا ونذهب"

غمزها يامن قائلا بصوتٍ شقي: "وأميرك الوسيم؟"
ابتسمت ورد: "لا أعرف وسيماً غيرك يا يامن"
"أوه جواب ذكي حقاً، ليس بغريبٍ على مهندسة مثلك" ردّ يامن وهو
يتناول كعكة، ثم ترنّح بلا مبالاة نحو غرفته.
تتكون عائلة ورد من أختها الكبرى إيمان، التي تكبرها بحوالي عشر
سنوات، متزوجة وتعمل معلمة في وكالة غوث وتشغيل اللاجئين، ورثت
لون البشرة القمحي، والعيون البنية من والدها، ثم ورد التي تبلغ من العمر
ثلاثة وعشرين عاماً، متفوقة دراسياً، وتعمل معيدة في الجامعة، وبعدها
يجيء أخوها الصغير يامن، الذي يصغر ورد بخميس سنوات ونصف، ورث كلّ
من ورد ويامن لون البشرة البيضاء، والعيون الفاتحة من والدتهما، وثلاثتهم
جاؤوا بعد معاناة طويلة مع الإبر والعلاجات المعينة على الإنجاب.
أمّا الأم والأب فهما في خريزة السبعينات من العمر، متعبان من الشيخوخة
والمعافرة وسط حياة غزة الصعبة، تزوّج أبو يامن أمّ يامن التي تنحدر من
أصول مصرية، خلال فترة دراسته في جمهورية مصر العربية.

2023/10/6

مساء

ارتدت ورد فستان العرس الأبيض لتجربه في حضرة العائلة، لم يحضر العرض من أهل العريس سوى عمته فاطمة، فيوسف يتيم الأبوين، استشهد أبواه في حرب 2014 إثر قذيفة أصابت منزلهم.

يقطن يوسف مع جدّه برفقة أخويه محمد ومازن، تربط العائلتين علاقة صداقة قديمة وقوية بحكم الجيرة.

دُقّ جرس المنزل، فتح أبو يامن الباب:

"ما الذي جاء بك الآن يا يوسف؟" قالها أبو يامن بحزم

"جئت لكي .. تأتأ يوسف إحراجا

ضحك أبو يامن مشيراً إليه بالدخول قائلاً: "هلا بالغالي ابن الغالي"

دخل يوسف المنزل، وأسر داخل جدران الوضاعة والبهاء حين شاهد ورد بفستان العرس، ينسدل شعرها الذهبي حتى وسط ظهرها كعرجون بلح أصفر، في حين تلمع عيناها الخضراوان فرحا، ويتورد خدّاها من ابتسامة خجلة.

أطلقت العمة فاطمة زغرودة فلسطينية على أصولها عندما دخل يوسف غرفة الاستقبال رادّاً السلام

دارت ورد حول نفسها بقليلٍ من الدلع متسائلة: "ما رأيك يا يوسف؟"

تلعثم يوسف من شدّة الخجل والنسوة من حوله يضحكون
قال يوسف على استحياء: "ممكن كلمة بعد إذنك يا ورد؟"
"أجل تفضل" وأشارت بيدها نحو الصالة الخارجية
جلست ورد على أريكة بلون العنّاب، وجلس يوسف مقابلاً لها على كرسي
رمادي اللون ذي طراز ملكي، كانت تبدو كأميرة تنتظر فارسها، أميرة
طبيعية بلا مساحيق تجميل، ولا مُزَيَّنَة تمنحها جمالا مزيّفا
"أنتِ فاتنة الجمال يا ورد، لا أصدّق بأنّي سأجتمع معك غدا"
أماط خجل ورد الكلمات عن فمها، وأظهر حبتين من الكرز فوق وجنتيها.
تنهد يوسف بجنينٍ جميل وأردف: "لا زلتُ أتذكر حالتك تلك"
"أي حالة تقصد يا يوسف؟"
"الطفلة الصغيرة ذات العشر سنوات ترتدي فستانا أبيض وحذاءً أحمر،
بضفائرها الطويلة تتأرجح وحدها على أرجوحة تناسب رقتها، حينها وقعتُ
في حبك"
"حقاً؟" قالت ورد باندهاش ثمّ أردفت: "إنّها المرة الأولى التي تخبرني فيها
بهذا الأمر"
أكمل يوسف: "أتذكر يومها كيف تسارع نبضي وتدفق الدم إلى وجهي،
وكيف ثقلت أنفاسي وارتفع ضغطي

لا أنسى ذلك الشعور أبداً، لا أنسى نبضات القلب وثوران المشاعر الذي دفعني لأمرجحك بنفسي، وأقذف بك في الهواء عالياً كي أستمتع برنين ضحكائك العذب.

وقتها أيقنتُ أنّي يجب أن أترك مسافة بيني وبينك كي أحافظ عليكِ"
قالت ورد بفخر: "وقد نجحت في ذلك يا يوسف"

"كنتُ أكبرك بثلاث سنوات وهي كفيلة لأن أصبح رجلاً صغيراً في حضرتك، أصبح فارساً يحمي أميرته. وشهماً يغار على محبوبته حتى من الهواء العابر إذا لامس بشرتها.

أتعلمين؟ .. لقد أخبرت أمي قبل استشهادها بنياتي الزواج منك، يومها قهقهت حتى سالت الدموع من عينيها."
ابتسمت ورد بجنون وقالت: "رحمها الله"

"عشتُ أبد الدهر حبيبة ورفيقة لا ترحل يا ورد. آه .. كم أفقد أمي وأبي في هذه اللحظات من العمر"

"أشعر بك جيداً يا يوسف.. ولكي على يقين بأنهما منطلقان في رياض من الجمال والراحة الآن، فرحان فخوران بك"

"لماذا نحن يا ورد؟ لماذا علينا أن نذوق اليتيم والضعف قبل القوة والتمكين، والقهر قبل السعادة، والحصار والخوف والجوع قبل الهناء والراحة؟"
"لأننا ابتلينا بأنجس خلق الله"

"ولماذا نحن بالتحديد من ابتلينا بهم؟" نظر في عينيها باحثا عن جواب يريجه

تنهدت ورد وقالت: "لا أعلم .. ربما سَتُهدينا الحياة إجابة عن هذا السؤال حين ننساه"

"وما الفائدة من الحصول على الإجابة بعد النسيان؟"

صمتت ورد لثوانٍ معدودة ثم قالت: "استشعار العوض الجميل"

"استشعار العِوض الجميل، عبارة مريحة جدا، أحب فيكِ هذه النظرة السماوية، حتى وإن بدت غير مقنعة ولا ملموسة، فهي تمنحني القوة للاستمرار"

"حين نعجز عن الحصول على إجابات عن أسئلتنا يا يوسف، نلجأ إلى السماء، فهي المجيب الوحيد في ظلّ هذا الواقع"

نهض يوسف عن الكرسي الرمادي، خطا بهدوء نحو ورد وهو يرمقها بنظرات المحبة والشوق، عانقها بشدة وقال: "كنتُ أحتاج إلى هذا الحوار وهذا العناق كثيرا يا ورد، شكرا لوجودك، أنتِ الآن حبيبتي، وصديقتي، وأمي، وأختي."

أنتِ الحياة كلها، ويكفيني من الحياة أنكِ معي."

قبل جبينها ووجنتيها مودّعا، في حين تركزت ورد في مكانها وتحسّست بباطن كفّها نبضات قلبها المتسارعة قلقلًا.

2028/12/13

كان الجو باردا وجافا، والشمس تكتحل برماد الغيوم التي تزورها بين الفينة والأخرى.

اكتظ شارع عباس العقاد في مدينة نصر في القاهرة بالمارة والسيارات، كانت الدكتورة (رشا فتحي) تجلس أمام مكتبها في عمارة تتوسط الشارع، تنتظر دخول مريضتها الغرفة، تنقر بقلمها على مكتبها الأبيض بهدوء، وترمق بعض الأوراق بنظراتٍ ثابتة. تسَلَّت بعض الأشعة الهاربة من ضيافة الغيمات عبر نافذة كبيرة تقع على يسار المكتب، فظهرت عيناها البنيتان لامعتين بذكاءٍ متقد.

دخلت المريضة الغرفة بعد أن طرقت الباب طرقات خفيفة، قالت الطبيبة رشا مرحبة: "أهلا وسهلا يا ورد.. ارتاحي"

وضعت ورد عكازاتها التي تساعد على الحركة جانبا، تمددت على السرير الأبيض وسط الغرفة ممرضة نظرها باتجاه السقف، كانت ترتدي فستانا أسود، وحجابا بلون الفستق الحلبي، اختفت حبات التوت من فوق وجنتيها، وتلطخت شفتاها بالتشققات والقشور.

سألت الطبيبة باهتمام: "حسنا يا ورد، أخبرني أختك بأَنَّك بدأتِ تذكرين بعض الأمور، شاركيني يا ورد إن استطعتِ بمشاعرك، كيف تشعرين الآن؟"

قالت ورد بصوتٍ هادئٍ وكلماتٍ متقطعة، محملقة في سقف الغرفة: "داخلي .. يعوي"

أزاحت الطيبة خصلات من شعرها المموج عن عينيها، شبكت أصابع يديها، تنحنحت ثم سألت بعد أن فاجأها الجواب: "كيف يعوي داخلك يا ورد؟"

"أشعر بأنّ هناك ذئبًا هائل الضخامة، يعوي، إنه جائع، متعطش لفعلٍ قدر، ينهش داخلي ويأكلني كما أكل المدينة كلّها"
شعرت الدكتوراة رشا بمجرقة تسري في جسدها ثم سألت بهدوء: "وماذا أيضا يا ورد؟"

"لا يشبع، كمّا أكل أكثر جاع أكثر"
تنحنحت الطيبة من جديد، ابتلعت ريقها وقالت: "يا الله هذا أمر فظيع حقًا"، ثم حدّقت في ورد بنظرات متألّمة.

أكملت ورد بهدوء وألم: "هو يسبح في نهر من القذارة صنعه بنفسه، يتغذى به، هو حولني إلى جيفة تطفو فوق بحر من الظلمات، هو.."

قاطعتها الطيبة: "ورد .. بعيدا عن هذه المشاعر الصعبة، ماذا تذكرت، هل تذكرت شيئا لطيفا من الممكن أن نتحاور حوله"

حافظت ورد على الهدوء ذاته وأجابت: "أجل ..تذكرتُ شيئا لطيفا"
"حقًا" قالت الطيبة بحماسة وفرح ثم أخرجت زفرات من الراحة وقالت:
"أخبريني إذا"

"ساعدٌ صلد، معصمٌ تبرز من خلاله عروق جريئة، قوية ونابضة، تتوسطه شامة اسطوانية باللون البني الفاتح، كنتُ أعشق الشعور الذي ينتابني حين ألمسها."

"جميل، وما هو ذلك الشعور؟"

"حضنٌ دافئ حان، وبيتٌ رحبٌ آمن"

"وهل تتذكرين من هو صاحب هذا الساعد؟"

قالت ورد بتوتر: "حقير، قدر، خائن"

"أليست هذه إجابة مناقضة لما قبلها يا ورد؟"

"حين نكتشف الحقيقة، تتساقط الأقنعة، ويزول الوهم الجميل"

"إذن أنتِ تدعين أنّ مشاعرك السابقة كانت عبارة عن وهم باعه لك؟"

"أجل"

"ومن هو هذا الحقير (بائع الوهم) يا ورد؟"

"أنا خزّان ممتلئ بالأحزان، الخوف، الرعب، الألم والقهر، لن أستطيع الإجابة

عن أسئلتك يا دكتورة إلا إذا نجحت في إفراغي."

أجابت الطيبة بحنو: "إن شاء الله ننجح يا ورد معاً في إفراغ جميع آلامك"

"إن شاء الله"

"ورد.. أخبرني أختكِ بآنكِ تجيدين الكتابة، هل بإمكانكِ كتابة ما

تذكرت؟ ربما يكون أسهل بالنسبة لك"

"لستُ وحدي من يجيد الكتابة، بل (هو) أيضا يجيدها، وكان يقرأ كثيرا،
يمضي جلّ وقت فراغه في القراءة"
"وهل كان يكتب لك كثيرا؟"
"لم يتركني دون خبر منه مذ عرفني وحتى آخر يوم رأيته فيه"
"هل تتذكرين آخر يوم رأيته فيه؟"
"ذكرى ضبابية لا أستطيع وصفها"
"إذن هل يمكنكِ الكتابة؟"
"سأحاول"

"تعالى يا ورد واجلسي على مكتي، وستجدين الأوراق والأقلام بانتظاركِ
على المكتب، سأذهب لإحضار فنجان من القهوة ثم أعود إليك، أرجو أن
تكتبي بكلّ راحة"

بعد أن خرجت الطيبة من الغرفة، نهضت ورد من على السرير، استندت
على عكازيها، ومشّت بخطواتٍ مثقلة، جلست أمام طاولة المكتب، أخذت
ورقة وقلم وبدأت بالكتابة:

"لستُ بلا ذاكرة، فأنا أتذكر كلّ شيء، غير أنّ في عقلي تجويفا فارغا يمنعني
من الوصل بين الأزمنة، وكأني تحركت من الماضي إلى الحاضر خلال حلمٍ
منسي، لم أعرف عنه شيئا.

بالأمس، تفاجأت حين نظرتُ إلى المرأة ووجدتُ عينيَّ دائريةً شديدة
الانساع لا ترمش، شعرتُ بأنيَّ دخيلة على نفسي، لستُ أنا، فأنا أنظر إلى
شخصٍ غريبٍ عنيّ.

سألتُ أختي عن عينيَّ فقالت بأنَّهما كانتا لوزيتين واسعتين حالمتين،
تعكس خضرتهما ربيع البلاد.

حينها اصطدم بعقلي صوتٌ رجولي ودود كأنَّه جاء من بيدٍ بعيدٍ جداً
وزمنٍ جميلٍ جداً: "كم أعشق هاتين العينين يا ورد، يا ليتني كحل يرسم
براحهما كلَّ يوم، أو فراشة تداعبُ ورقَ الشجرِ داخلهما"

وبدأت ملامحه تظهر لي، كان وسيماً، مهيباً، عسلي العينين، كستنائي الشعر،
قوي الساعد، يحتضنني داخل نبضه المتسارع في كلِّ مرّة اقتربت منه.
أتعلمين يا دكتورة بأنيَّ أبتسم الآن وأنا أكتب لك وصفه، وأشعر بأنَّ القلم
يقطُر سكرًا فوق الورق.

وهذا ألطف ما حدث لي منذ أن تحولتُ إلى دخيلةٍ غريبةٍ على نفسي.
ولكن ..

لا يزال ذلك الذئب يعوي داخلي وينهش بشراسة، ولا أرى في قلبي غير
عصفور مذبح بواسطة ذلك الحقير الجبان (بائع الوهم).

لا أرى الآن، بعد أن تحطَّم قناعه الجميل، غير صورة شيطانية مخيفة
لوجهه، قلبي اليعقوبي دُبح بيد أحب النَّاس إليه، قلبي اليعقوبي مُزَّق بأنياب

ومخالب يوسفه، ومع كل نبضة له، يسكب دما فوق الحياة التي تعافر داخلي
بلا جدوى

أرادت ورد النهوض عن الكرسي، نظرت إلى عكازيها، ثم تناولت الورقة من
جديد وكتبت:

"نسيت أن أخبرك أمراً..

أخبرتني قديمي اليسرى بالأمس عن أختها الضائعة، وأنها فارقتها منذ فترة
ليست ببعيدة، هي تشتاق لأختها كثيراً كما أشتاق أنا للكثير من الأشياء
المفقودة في حياتي.

اكتشفتُ يا دكتورة بأنه كان لديّ قدامان جميلتان تتمتعان بالعافية.. وبأنّي
لم أُولد بقديم واحدة!"

-3-

2023/10/7

استيقظت ورد في تمام الخامسة صباحا، اليوم هو يومها وستتجهز باكرا، صلّت الفجر وتناولت الإفطار، وذهبت إلى غرفتها كي تشاهد فستان العرس المعلق على الخزانة بفرح.

كان من المفترض أن تأخذه اليوم من المعرض المخصص لفساتين الأفراح، ولكن يوسف أصرّ عليهم أن تأخذ الفستان قبل العرس بيوم؛ كي يتباهى بجمال عروسه، وفستانها أمام عمته فاطمة.

"أحيانا تكون ذا تفكيرٍ نسائي سيئ يا يوسف، لقد تأثرت سلبا بعادات المجتمع" هكذا كان ردّ فعل ورد على فعلته، جعلته يذوب وهو واقف مكانه من شدة الخجل.

شعرت ورد بغصة في قلبها لا تعلم سببها، فتوجهت إلى النافذة لاستنشاق بعض الهواء، رنّ هاتفها الذي وضعت على المنضدة بجوارها، إنه يوسف، تناولت الهاتف كي تجيب ولكن صوت انفجارات قوية ومتتالية ورشقات صاروخية كثيفة أوقفها.

"يا ساتر" تمتد ورد بصوت قلق

اندفع الفزع ليُخْرِج أفراد العائلة من غرفهم نحو غرفة الجلوس متسائلين عن ما يحدث،

قالت أمّ يامن لزوجها بصوت معجون بالخوف: "اتّصل بإيمان فهذا موعد خروج الأولاد إلى الدوام المدرسي"

كان يامن يقفز من شباك إلى آخر وهو يتساءل: " ماذا يحدث؟ هل حصلت عملية اغتيال؟"

اتّصل أبو يامن بابنته إيمان في حين كان يصرخ بغضب على ابنه يامن كي يبتعد عن نوافذ المنزل.

رنّ هاتف ورد من جديد، أجابت " أجل يا يوسف نحن بخير، كيف الوضع عندهم؟"

"لا أعلم شيئاً ولكننا بخير"

"الحمد لله .. سأعاود الاتصال بكّ حين تهدأ الأمور"

قال أبو يامن مطمئناً من حوله: "الحمد لله إيمان بخير وأولادها معها في المنزل، أساساً لم يَحْظَطُوا للذهاب اليوم إلى المدرسة، لقد نسينا أمر عرس ورد وسط هذه المصيبة"

نظرت ورد عبر النافذة، وبسبب كثافة الأشجار حول المنزل استطاعت بصعوبة ملاحظة الأطفال وكأثماً مسهم شبح الهلع، كانوا يسابقون الريح ركضاً، ويُمِطُّرون الدمع رعباً، في حين انتشر جمع غفير من الآباء والأمهات بحثاً عن أبنائهم.

بعد عدّة دقائق اجتمعت الأسرة حول الشاشة لالتقاط أي خبر يوضّح ما يحدث.

ظهرا.. كان أبو يامن يجلس شارد الذهن، تائه الفكر، قال بصوت حانٍ: "ورد.. من المفترض أن يكون اليوم فرحك الكبير، فهل تشعرين بالأسى؟" "أبدًا يا أبي، الله يجيب العواقب سليمة" "إن شاء الله يا ابنتي، هذا قدر ومكتوب، هل تكثرين بأمر إقامة حفلٍ للزفاف؟"

ردّت ورد: "أنت تعرف يا أبي أنّي لا أُلقي بالا لهذه المظاهر أبدًا، هل نسيت أنّي رفضتُ إقامة حفلٍ للحناء؟"

"أعرف يا ابنتي، ولكنّه يوم لا يتكرر في العمر، ويبدو أنّ الأمور ستطول كثيرا، كما أنّ كثافة النيران توضّح بأنّه لا يمكننا إقامة حفل الزفاف اليوم" "لا تقلق يا أبي، دعها تأتي كما كتبها الله"

رفع أبو يامن الهاتف واتصل بيوسف: "اسمعي يا بني، من جهة الشرع ورد زوجتك، ولا داعي لأن نقيم أي مراسم لحفل الزفاف، يبدو أنّ الأمور صعبة ومن الواضح أنّها ستزداد سوءًا، وبإمكانك أن تأخذها إلى منزلك في أي وقتٍ تشاء، ولكن دعنا نترث قليلا إلى أن تتضح الأمور، إنّما أقول لك هذا الكلام في حال حدث أي طارئ لي، فهذا تصريحٌ مِنّي بأنّه لا داعي لتعقيد ما هو مباح، وكما قالت ورد دعها تأتي كما كتبها الله لكما"

10/7 عصرًا

منزل يوسف

نهض يوسف من على سريريه بعدما تفحص هاتفه النقال متابعًا الأحداث، أطلق تنهيدة طويلة ونظر نحو الصورة المعلقة على الحائط بجوار السرير متمنًا: "آه يا أمي، آه، لم أذوق حلاوة للنوم من بعد رحيلك"

تذكر الساعات والأيام الأولى لاستشهاد والديه، وكيف صمّ صوت الانفجار المُميت أذنيه برفقة مركز القوة فيه، فتحول من صبيٍّ جسرٍ إلى رجلٍ مفرطٍ في الحساسية ضعيف القلب، ما دفعه إلى الالتزام بالذهاب للنادي الرياضي، كي يظهر بجسدٍ قويٍّ صلب أمام روحه المكسورة، التي تبكي داخله كطفلٍ مُعذَّب.

كان ينتحب كلّ ليلة بحرقة؛ يتحوّل إلى جثةٍ ينهشها وحش الخوف بأنياه ويدوسها بقدميه، حتى أحضر جدّه صورةً لأمّه وهي تضمّه بين ذراعيها، علّقها بجوار سريريه مباشرة قائلاً: "انظر أمّك معك، لن تتركك أبدا يا حبيبي"

عكف يوسف كلّ ليلة على محادثة صورة أمّه، كان يخبرها عن قصص المدرسة والأصدقاء، والعطف على قسط الشارع، ودائمًا ما كان يختتم أحاديثه (بورد).

كان ينام على وقع عبارة دائما ما قالتها له أمه حين تغازل أذنيه وتربت على روحه المرتجفة: "أنت تحمل معرّة اثنين في قلبي يا يوسف" فيغفو مبتسما هائئا.

"لقد أخذت منّي حرب 2014 أمّي وأبي فماذا سيأخذ منّي هذا الطوفان يا ترى؟" تساءل قبل أن يخرج من غرفته.

وصل إلى غرفة المعيشة حيث يجتمع جدّه مع أخيه مازن حول شاشة التلفاز، سأل يوسف عن أخيه محمّد، فأجاب مازن وهو يعث بهاتفه: "يغط في نوم عميق كعادته، مريح حاله"

"إذن هو طوفان الأقصى" قال الجدّ وهو جالس بكلّ تركيزه يتابع ما تعرضه الشاشة، ويتحسّس لحيته بأذنامله.

ردّ يوسف ببعض التهكم: "طوفان، أجل .. لكنّه لم يتضح طوفان ماذا هو بعد"

قال الجدّ غاضبا: "ماذا تقصد يا يوسف؟ ألم ترّ بأّم عينك، فعلوها الأبطال، سيكون هذا اليوم يوما حاسما يقلب موازين التاريخ والجغرافيا"

سأل يوسف باستنكار: "وهل سيقبلها لصالحنا؟"

أجاب الجدّ بحماسة: "بالطبع، جهّز نفسك يا بني لتقبّل تراب بلادك المسروق قريبا"

"لا تصدّق كل ما يذاع يا جدّي وتريث قليلا، فأنا أخاف أن يُسرق ما تبقى لنا من تراب!"

صرخ الجدّ من جديد: "يوسف .. اغرب عني هذه الساعة"
قال مازن بعد أن أشاح بوجهه عن هاتفه: "لا تُغضب جدنا يا يوسف، نحن
بحاجة للهدوء واللّحمة في هذه الظروف، الله يجيب العواقب سليمة"
ترك يوسف جدّه، تناول علبة من اللبن الرائب من المطبخ، ونزل درجات
السلم متجهاً إلى مدخل البيت
قال مبتسماً محادثاً القطط التي تجمّعت عند مدخل المنزل: "لقد نسيتك
اليوم أيتها القطط المسكينة، سامحيني فالأحداث صعبة جداً"
فتح اللبن ووضعه عند المدخل من الخارج، اجتمعت القطط حوله وبدأت
بتناوله

أخرج يوسف هاتفه من جيب بنطاله واتصل بورد:

"ماذا تفعل حبيبتي يا ترى؟ هل تشعر بالقلق؟"

"أكذب عليك إن قلت لا"

"أعلم هذا، وأنا أيضا كذلك، أريد منك أن تجهزي شنطة ملابسك وأوراقك
الشخصية، الأحداث خطيرة وأتوقع أن القادم أسوأ، ربّما نضطر لإخلاء
منازلنا في أي وقت."

.....

10/7 ليلا

السماء ابتلعت قمرها وجهزت دمها للنزيف، جثم الليل على الصدور، فغادر النوم الجفون المضطربة بعدما غلّف القلق المنازل في مدينة بيت حانون؛ حيث تلقت كلّ العائلات أوامر بإخلاء المدينة كاملة.

"ماذا سنفعل يا أبا يامن؟" سألت أم يامن بقلق
 "الصباح رباح .. نامي وربنا يكتب الخير" قال أبو يامن وهو متكئ بجوارها على السرير

"هو في نوم بعد هاالأخبار؟" ردّت أم يامن
 وأطلقت تنهيدة طويلة ثم قالت: "يا أبا يامن، أخاف على يامن وورد"
 ردّ أبو يامن متظاهرا ببعض اللامبالاة: "نامي والصباح رباح، ولا تنسي
 وضع طقم الصلاة بجوار السرير كعادة كلّ حرب"
 أدار ظهره لها وتظاهر بالاستسلام للنوم.

.....

10/8 صباحا

تسلّلت الخيوط البيضاء لتمحو ظلمة السماء على مهل، وقطعت الشمس بترسها الذهبي رأس الليل، أشعت الوجوه الشاحبة بإنذارات القلق والتأهب، بدأ الناس يتحضرون ليوم من الواضح أنّه سيكون صعباً للغاية.

كان أبو يامن يمشي داخل المنزل بخطواتٍ تائهة، شابكًا كفيه خلف ظهره، موجها نظره نحو الأرض، شارد الذهن، في حين تجلس أم يامن على الأريكة الخضراء تحتسي كوبًا من الشاي الدافئ.

قالت أم يامن ببعض العصبية: "لن ينفع توترك هذا في اتخاذ أي قرار" نظر إليها بعينين غاضبتين، ولكنه لم ينبس ببنت شفه، رنّ هاتفه المحمول فأجاب: "صباح الخير يا يوسف"

جاء صوت يوسف قلقا: "صباح الخير يا عمي، الليلة كانت صعبة والتهديدات جدية، ويبدو أنّ الاحتلال هذه المرة سيرتكب جرائم مروعة، الوضع ليس سهلا أبدا، مبدئيا أنا عندي اقتراح، ما رأيك يا عمي أن تجهز حاجياتك ونذهب جميعا إلى شقتي أنا وورد في منطقة المينا؟"

"وهل سأترك منزلي؟"

"يا عمي، نعود قريبا إن شاء الله، أنت تعلم أنّ العمليات العسكرية تكون في بيت حانون بالأكثر لأنّها منطقة حدودية، يعني.. يوما أو يومين أو أسبوعا من الزمان ونرجع بإذن الله"

"حسنا يا يوسف، توكل على الله يا بني، خذ أنت النساء واذهب، سأبقى أنا في بيتي"

ضحك يوسف بخفة ثم قال: "ومن قال لك أنّي رفيق النساء يا عمي؟"

أخرج أبو يامن ضحكة هادئة وقال: "لا أتهمك برفقة النساء، ولكن يجب أن يكون معهم رجل يرعاهم، وأنت خير من أأتمن عليه ورد وأُمّها، كما أنّي كبير في السن أنهكني العمر، سأكون حملاً ثقيلاً عليكم"

"ما هذا الذي تقوله يا عمي؟ أنت تاج رؤوسنا ولن نذهب من دونك"

ردّ أبو يامن بصوت صارم: "من الآخر يا يوسف، سأموت في بيتي، تعبْتُ من الترحال"

"إنّهما يومان ونعود!"

"إذن تعودون وتجدونني مكاني أنتظركم، انتهى الكلام"

"لن نقبل بهذا، نذهب معاً أو نمكث معاً"

"حسنًا يا يوسف، لا حيلة لي أمام إصرارك، توكل على الله يا بني" قال أبو يامن هذا وقد أضر في نفسه عدم التحرك من المنزل، ووَضَعهم تحت الأمر الواقع.

"هل نتحرك من هنا في تمام الثامنة يا عمي؟"

"فلتكن العاشرة أفضل"

"كما تريد يا عمي"

ومع تمام انبلاج الصباح، كانت ورد قد جهزت الأشياء الأساسية لأفراد المنزل على عجل وتوتر، قالت بإنهاك: "أبي الأوراق والملابس جاهزة، وسأذهب أنا ويامن لشراء بعض الحاجيات من البقالة"

أوما الأب برأسه موافقا، وما إن وصلا باب المنزل أوقفهما نداء أبيهما: "ورد .. لا تطيلا وعودا على عجل"

"لا تقلق يا أبي"

نادى عليهما من جديد بعد أن هما بالرحيل: "ورد، يامن"

"نعم يا أبي؟"

"أحبكما كثيرا"

.....

كانت البقالة التي تقع على بداية الشارع تُعاني من سوء التنفس بسبب الازدحام الشديد، رجال ونساء وأطفال احتشدوا لشراء بعض الحاجيات الأساسية لمواجهة الأزمة القادمة.

أثناء عملية الشراء، دوى صوت انفجارات عنيفة، فأخرج أحشاء المنطقة كلّها. اهتزّت الأرض، وراحت تلفظ ما في باطنها تحت وطأة الأصوات المدوية، وكأنّ عملاقاً ضخماً شرساً أمسك بالمدينة بين كفيه، وجعل يهزّها بغلظة، ويغرس أظفاره الحادة في جسدها، ليقطع رثتيها ويخنق ما تبقى من مظاهر الحياة. كان يعتصر كلّ ما هو حيّ، فتفتّت الأجساد الغضة وتهشّم، ويُقطع الحبل السري الذي يربط المدينة بأهلها، فتحوّلهم إلى جثث متكوّرة في رحمها، تبحث عن منفذٍ واحدٍ للحياة.

امتلاً الهواء بالغبار ورائحة البارود والموت، تساقطت الحجارة والأتربة وبعض الشظايا بجوار البقالة، وتعالَت صرخات النساء والأطفال، وأجمع الناس على أنَّ هذه الانفجارات ناتجة عن أحزمة نارية في المنطقة.

خرجت ورد برفقة يامن إلى الشارع يُحركها أدرينالين الفزع، شاهدت أرواحاً تمتطي أكتاف النور نحو السماء، في حين تناثرت الأجساد والأشلاء على الأرض وسط أفاعٍ طويلة من الدماء، أطلقت شهقة وأغمضت عينيها، التَمَّ جمعٌ من الناس حول طفلٍ صغيرٍ ملقى على الأرض، صارخين بعبارات لم تفهم منها سوى: "هذا ابن إيهاب، هل مات؟"

نظرت نحو منزلها، كانت ألسنة اللهب والدخان الكثيف تلتهم المكان، تنقُصُ كوحوش جائعة، وتحصد الأرواح بمناجل دامية، ينزّ منها الموت.

شدّت ورد ذراع يامن قائلة بصوتٍ متألّم: "يامن .. قل لي أنّ ما أراه كذب، أرجوك قل إنّ هذا خيال، سراب، كذب"

تسمّر يامن في مكانه وقد ابتلعت الصدمة، والتحفه الخوف والضياع.

ركضت ورد وهي تصرخ: "بسرعة يا يامن اتبعني" سابت قدمها ذرات الهواء من حولها، وتبعها يامن مغموراً بمشاعر التيه.

وقعت ونهضت عدّة مرات أثناء الركض، وصلت مكان بيتها لاهثة، وانتهى يامن إلى الوجهة ذاتها بعدها بثوانٍ قليلة.

فغرت فاهها، شحب وجهها، اتسعت عيناها وغطت نصف وجه يامن العلوي بباطن كفّها.

-4-

رأت ورد أشباحا سوداء من الدخان تتصاعد من منزلها المسوّى بالأرض،
تبتسم لها نصف ابتسامة ماكرة، تنظر إليها بعينين حمراوين ينبعث منهما
الشرر، وتنهش بأنيابها ومخالبها ذكرياتها، وحياتها، الحُبّ والوطن.
كانت تقف بلا حراك، تحدّق في رأس أبيها المتدحرجة تحت بقايا شجرة
الزيتون وسط حديقة المنزل الأمامية، ومن فوقه قطع ممزقة من فستان
عرسها تتنّ متمسكة بإحدى أغصان الشجرة التي نجت بأعجوبة.
حاول يامن الإفلات من بين يديها، لكنّها كانت تضغط عليه بشدّة مغطّية
نصف وجهه العلوي.

قالت بصوت ضعيف: "لا تنظر يا يامن، لا تشعر، ولا تصدق، هذا حلم،
كابوس، هذا..."

دفعها يامن بقوة صارخا: "اتركيني، أريد أن أشاهد هذا الكابوس، أريد أن
أعيشه وأشعر به حتى لا أبقى عالقا وسطه، حتى أستطيع الاستيقاظ منه
يوما ما.. أريد أن أستيقظ"

أطلقت ورد صرخات باكية وقد انهارت أرضا، وتسمر يامن في مكانه، مُحدّرا
بعدها رأى كُفّا تغفو بجوار قدمه وقد قُطع منها إصبع الخنصر، غشيت
الصدمة عقله ولم يعد يعي المشهد أمامه.

شعرت ورد بذراعين يحتويانها من الخلف، استدارت وإذ به يوسف، دفنت رأسها في أحضانه وانتحبت قائلة: " تفتت الأضلع داخل صدري يا يوسف، تفتت.. أضلعي"
 قال يوسف بألم محتقن: "ورد حبيبي تماسكي، يجب أن نذهب من هنا، الوضع خطير"

.....

10/8 بعد الظهر (منزل يوسف)

لا متسع لرفاهية الحزن، رغم كل المآسي التي حصلت هذا الصباح، فالوضع لا يحتمل الانهيار.
 حافظ الجميع على تماسكه، يجب أن يكونوا كالمردة في صلابتهم وجسارتهم.

فكر يوسف في نفسه: الوضع لا يحتمل تأخيرًا، الأرواح على المحك، ولا مجال للتردد. عليه أن يكون صلبًا كالصخر، لا يتزحزح أمام العاطفة، ولا ترف له مشاعر أمام واجب يتطلّب الحسم. القرار يجب أن يُتخذ الآن، بلا رجفة، بلا ندم. ورغم ثقل الجبال الذي يشعر به فوق كتفيه، عليه أن يتحرك، أن يتقدم، ولو جرّ روحه خلفه جرًّا.

وضعت ورد يدها على قلبها، مرددة الأذكار والأدعية، محاولة إطفاء النار المشتعلة داخله، تذكرت لحظة توديعها لرأس أبيها ويدٍ قيل إنها لأُمها، وكيف أنّها لم تحظّ باحتضان جسديهما كاملين سالمين.

التزم يامن الصمت بلا بكاء، كان يشعر بالواجب أن ينسى كونه الطفل المدلل، ويبدأ بالتصرف كرجل منذ هذه اللحظة، فلم يعبر عن حزنه وألمه وغضبه، كتم مشاعره وأخفاها داخل سراديب النفس المظلمة.

ظلّ مازن مشغولاً بهاتفه لفترة طويلة، ثم طلب من أخيه يوسف محادثته على انفراد: "أخي.. اعذرني ولكن وجب الوداع"

سأل يوسف باستغراب: "وداع ماذا الآن؟"

أجاب مازن بتوترٍ قنّعه بالصرامة: "لقد استدعوني"

سأل يوسف بصدمة: "م- ماذا؟ استدعاء ماذا؟"

صمت مازن ولم يرد، فأردف يوسف بعد أن استدرك الأمر: "هل أنت منهم؟!"

"أجل" أكّد مازن بكلّ ثبات

"منذ متى؟!"

"لا يهّم الآن، لقد استدعوني ويجب أن أذهب، لا وقت لأضيّعه"

تمتم يوسف وقد اكتسى وجهه بالقلق والوجوم: "ولكن.."

عانق مازن أخاه يوسف بشدّة، ولم يسمح له باستكمال حديثه قائلاً: "أعلم أنّ الأمر صادمٌ لك، لا سيّما في هذا الوضع، لو أخبرتك ما كنت لتوافق لا

أنت ولا جدّي، فإنّه لم يتبقّ سوى نحن الثلاثة من هذه العائلة، والدانا
استشهدا، ولا أعمام لنا، وجدّي حريصٌ جداً على حياتنا، ولكنّها الأرض
المقدّسة التي تحبنا ونحبها.

استودعتك الله الذي لا تضيع ودائعه، لا أستطيع توديع الجميع هنا، رجاءً
نيابة عني أوصول إليهم سلامي ومحبي، دعواتك لي وأتمنى لقياكم على خير"
ابتسم بنظراتٍ حانية، استدار وخرج بهدوءٍ تاركاً المنزل، في حين وقف
يوسف عدّة دقائق يحاول استيعاب الوضع المستجد.

مازالت وحوش الانفجارات تنقّص على المدينة، وأشباح البارود والدخان
تهاجم المنازل الآمنة، الأحزمة النارية لا تتوقف، والدفاع المدني يخرج آخر
أنفاسه في محاولاته للوصول إلى الكثير من المناطق.

لم تكن أهوال يوم القيامة كما وصفها الناس، فأهوال القيامة لا تُميّز بين
كافة البشر، أما هذه فقد اختارت وجهتها بكلّ دقة، مستهدفة كلّ ما هو
فلسطيني يقع على أرض غزة.

حمل يوسف شنطة الظهر وبعض الحاجيات بين يديه، وخرج برفقة جدّه،
وورد، ويامن، ومحمد مشياً على الأقدام بحثاً عن سيارةٍ تقلّهم.

في الطريق سأله الجدّ: "ألم تقل إنّ مازن سيلحق بنا، أين سيلقانا؟"

أبعد يوسف عينيه عن نظرات جدّه، وأجاب بتوتر: "سيلقانا في المنزل إن
شاء الله"

قال الجد بغضبٍ مثقلٍ بمشقة الطريق: "ولكن أين ذهب هذا الولد في ظلّ هذه الأوضاع؟ ألم يخبرك بشيء؟"

"كلّا يا جدي، مازن شاب جسور لا تخف عليه، كما أنّه لم يعد طفلاً صغيراً، ألم تكن تخطط لتزويجه قريباً؟"

أجاب الجد بعصبية المحب: "أفّ لكما"

وبعد حوالي ساعة من المشي، كان الجميع قد وصل إلى مفترق الشيخ زايد في شمال قطاع غزة، هناك عثروا على سيارة متهالكة تسعل العوادم والدخان، ركبوها وانطلقوا نحو ميناء غزة، حيث منزل ورد ويوسف.

كان الطريق ممتلئاً بالنازحين، السيارات تكاد تنفجر من حملها، والعربات منهكة عرجاء، أمّا الوجوه فقد غطاها الضيق والهّم، وبدت كدمى بلاستيكية شاحبة انتزع منها سائل الحياة.

بعد حوالي نصف ساعة، وصل الجميع إلى العمارة المقصودة في منطقة الميناء.

كانت العمارة حديثة البناء بمدخلٍ رخامي واسع وأنيق، تتكون من ستة طوابق، استقلّ الجميع المصعد وصولاً إلى الطابق الخامس.

فتح يوسف باب الشقة ودخل الجميع، يسبقهم الحزن والقهر والعجز. أدارت ورد نظرها في أنحاء المنزل، كان من المفترض أن تكون أميرة في منزلها، ولكنها جاءت مذبوحة القلب مكسورة الظهر، تجثو الأحزان فوق صدرها ولا تملك متسعاً للراحة والخلاص منها.

وقفت أمام غرفة الاستقبال، تأملت الأرائك المصفوفة في جمال باذخ، والتي غلب عليها لون ورقة الزيتون حين يغسلها المطر، فتبدو خضراء لامعة تبعث نورا تلو نور، تنفست بعمق لعلّها تشمّ رائحة أمها وأبيها فيها فترتاح قليلا، فقد كانت هذه الأرائك هدية زواجها من والديها.

رسمت الدموعُ أخاديد على وجنتيها، وصبت الملح صباً فوق شفاهها. عبرت من بين الجميع باكية، ودخلت إلى غرفتها تصارع ضعفها، وتكتم صرخات قلبها المكوم في قعر الروح.

أراد يوسف اللحاق بها، ولكنّ جدّه أوقفه قائلاً: "دعها تعيش القليل من حزنها يا يوسف، ربّما لن تجد متسعاً لذلك بعد الآن، اتركها تواجه ألمها وحدها كي تريح نفسها قليلاً"

جلستُ ورد على سريرها، وبكتُ لفترة طويلة، ثم نظرت في أرجاء الغرفة من وسط الغيوم التي غطت عينيها.

تذكرتُ كلمات يوسف حين ذهباً لشراء أثاث الغرفة: "أريدها بيضاء اللون نقية كنقاء قلبك يا ورد"

اتجهت نحو خزانة الملابس التي وضعت فيها كل حاجياتها قبل العرس بيومين، فتحتها فرأت بين الملابس المعلقة رداء التخرج.

تحركت أوراق ذاكرتها على وقع نسمةٍ هبت من بيدر الماضي، فداعتها برفق، قلبتها حتى حملتها إلى يوم تخرجها. كانت واقفة على المسرح، تلوح لوالديها بفرح، وعينا والدها تلمعان فخراً وهو يرفع لافتة كُتب عليها:

"كبرت وردتي، وأصبحت مهندسة". أما أمها، فجلست بجواره تطلق الزغاريد بين الفينة والأخرى، والدموع تبلل وجنتيها، فيما فمها مفعور بابتسامة لا تسعها الكلمات.

اتجهت نحو الكوميدينو بجوار السرير، أخرجت دفترَ مذكراتها الذي وضعته هو أيضا قبل العرس بيومين، جلست على السرير، وبدأت تكتب:
"أمي، أبي..

ربما تكون هذه كلماتي الأخيرة لكما، وربما لا، من يدري ما الذي يُحدثه الله بعد ذلك؟

بالرغم من أنني أشعر بأنّ شخصا سحب فأسا وهشمّ بها كتفي، فلم أعد أقوى على الوقوف أو الاتكاء على نفسي، إلا أنني سأحافظ على كوني ورد القوية الصلبة التي ربيتني عليها، وسأبقى طفلتكما المدلّلة مهما عشت في هذه الحياة، سأقف على قدميّ يومًا وأحمل أخطائي وهفواتي وحدي مسترشدة بلمسات نوركما وتربيتهما في قلبي.

أمي العزيزة..

لا أكذب عليك إن قلت بأنّي كبرت في هذا اليوم مئة عام، فأنا اليوم عروس الموت يا أمي.

وكم يقتلني هذا الشعور!

لطالما تمنيت رؤيتي بثوب العرس، ولكن شاءت الأقدار بأن أرى الموت يتلّعكما داخل عتمته، وأن أتحوّل أنا إلى عروس مرتدية ثوب الموت والهّم.

أبي الغالي..

دائماً ما كنت تنصحنى باستشعار الحكمة من الأحداث حولنا.

هل يمكن أن تجيبني أين هي الحكمة من الذي حصل لكما؟

أين أجد الحكمة في رأسك المقطوعة، الملقاة على الأرض كشيءٍ لا قيمة له؟!

أو في أجسادكما التي فُتتت وتناثرت كذراتٍ من العدم؟ أنا حتى لم أمتلك

حق احتضانكما وتوديعكما، وهذا أكثر ما يؤلمني.

بل .. أين أجد الحكمة في ذلك الطفل الذي كان نائماً وسط ثعابين ضخمة

من الدماء؟

هل هذا اختبار لي؟

أم لا اختبار أصلاً؟!

ربّما نُصَبِّرْ أنفسنا بشحذها بفكرة الابتلاء والاختبار، أو ربّما أنا ضعيفة

الإيمان ولم أصل لمرحلة الرضا والتقبّل بعد، ولا أستطيع أن أقرباًن قصتي

قد كُتبت وجفّ حبرها منذ زمن بعيد، أو ربّما.. "

تركتُ ورد القلم وزفرت أنفاساً متألّمة، ألقت بجسدها المنهك فوق السرير،

ضمتُ قدميها ويديها نحو صدرها كالجنين واستسلمت لنومٍ مستحق.

مشّت خلال نومها وسط مروج خضراء، وقفت حين رأت والدها يجلس

سانداً ظهره إلى شجرة ضخمة مزهرة، والفرشات تنتشر من حوله.

"أبي.."

مدّ يده لها، فوقفت فراشة كبيرة ناصعة البياض على كفه، وابتسم لها قائلاً:
"لا تقلقي يا ورد فأنا فرح سعيد"
"أبي أنت.."
قال مقاطعاً:

"اسمعيني جيداً يا ابنتي.. هذه الفراشة الجميلة وُلدت من ظلمة الشرقة.
الشرقة ليست بمكان هادئ ومريح، بل مرعب، خائف، وبشع، نحن ننداعى
كبرقة داخل شرقة مظلمة، نتفكك، ننصهر ونذوب كحساء طري فوق
قوة النار.

إنّها أكثر التجارب ظلمة التي تولد منها أكبر التغييرات.
في طور الموت نولد من جديد.. نتشرذم وسط الظلمة لنحلّق باتجاه الأفق
نحو النور.

هذا هو قدر الفراشات يا ورد"
فتحت ورد عينيها وعقلها يردّد صدى الحلم: "هذا هو قدر الفراشات يا
ورد"

فوجئت بيوسف يجلس بجوارها يداعب خصلات من شعرها المستلقي
بجانبيها، قالت بصوتٍ ناعسٍ ضعيف: "يوسف، ما الذي جاء بك الآن؟"
أجاب بحنو: "أشار عليّ جدّي بأن أتركك وحدك كي تُفرغي حزنك، ولكني
تذكرتُ عبارة قلتيها لي ذات يوم، فجئت كي أكون بجانبك."
وما هي تلك العبارة؟"

"قلت لي في يوم ما، حين كنا نراقب غروب الشمس من أمام شاطئ البحر، قلت بأن قيمة الشيء تتجلى في قدرته على خلق اللون وسط أكثر اللحظات صعوبة ورمادية، وأنا أردت أن أكون ذلك الشيء القيّم يا ورد، أن أخلق الألوان لأجلك من جديد، وأعيد لك روح الفراشة، لتتنقلي بين الزهرات ناشرة الرحيق"

همست ورد: "فراشة!"

نظرت إليه بامتنان ثم أجهشت بالبكاء، احتضنها يوسف بين ذراعيه فيما كانت تتمتم: "أنت قيّم أصلا يا يوسف، قيّم جدا بالنسبة لي يا.. بابا"

.....

غفّت الشمس يومها على استحياء من أنين الأطفال وصرخاتهم، اشتعلت ليلة مرعبة كما هو متوقع، وجثم الليل من جديد بجثته فوق الصدور المكومة.

أشارت الساعة بسبابتها نحو منتصف الليل، وما زال الجميع مستيقظا متوجسًا.

طرقاً متسارعة على باب المنزل ضجّت الأذان، نظرتُ الأعين بحيرة متسائلة عن هويّة الطارق، نهض يوسف مسرعاً وهرول نحو الباب، وتبعه من كان معه في البيت.

أشعل المصباح الخارجي، واستطلع الوضع من ثقب المراقبة، ثم قال بفزع:
"يا الله"

وتحرك بسرعة لفتح الباب.

.....

2028/12/14

بدا خليج سالونيك الهارب من بحر إيجه خلّاباً، جميلاً وصافياً. وقفت
سيدتان أمام تمثال الإسكندر المقدوني الأكبر لالتقاط صورة تذكارية.
رنا إلى المشهد أمامه بعينين مترعتين بالقهر، وقفت بجواره وشبكت أصابع
كفّيهما متسائلة: "ما بك يا يامن؟"

انتصب يامن بلا حراك، متأملاً البحر وانعكاسات خيوط الشمس عليه
لعدة ثوانٍ قبل أن يجيب:

"هذه المدينة فسيفساء فريدة من الحضارات والثقافات المختلفة، إنها تحفة
فنية نابضة بالحياة والحركة"

"وما المحزن في ذلك؟"

"المحزن هو إرثنا الثقافي والجغرافي والتاريخي، كلّه أعدم يا ملك.. العالم ما
زال يتبجح بالإنسانية في حين أنّه صنع منّا طيوراً مهیضة الأجنحة، أسيرة
داخل أقفاصها، تظن نفسها محظوظة لو نامت شعبة البطن مُرتوية الحلق
في ليلة واحدة فقط من ليالي الأسبوع"

أخرجت ملك زفيرا حارا وطويلا، خرج على إثره بخاراً أبيض اللون: "أتعلم يا يامن؟ جميعنا نقف على الرقعة ذاتها، أشعر بأنّ العالم عبارة عن رقعة كبيرة من الشطرنج، ونحن الأحجار، يحركوننا كما شاؤوا، وإن بتنا عقبة في طريق هدفهم، فلا أسهل عندهم من التخلص منّا"

"إذن هي أدوار!"

"أدوار يا يامن، المُحزن حقاً هو حال الإنسانية وحقيقة هذا الكائن البشري"

أزاح يامن جانبا من شفتيه وقال: "إنّها الرأسمالية العالمية التي تتحكم في رغيف الخبز، ومن أحكم قبضته على الرغيف أحكم قبضته على المصير" ابتسمت ملك وقالت: "والاشتراكية؟! هل أنت متصالح معها؟"

"هي حصيلة ثانوية للرأسمالية، جميع الأنظمة تصبّ في البحر ذاته من البذخ والترف الذي يتكدّس في أيدي فئة معينة، مقابل الجوع الذي يقصّ مضاجع غالبية الأمم."

"للأسف، إنّها صناعة واحدة يا يامن، عقل واحد هو الذي أنشأ كلّ هذه الأنظمة المختلفة تحت مسميات مختلفة (اقتصادية، سياسية، دينية، تحررية، حقوقية وغيرها) وحقيقتها قائمة على الظلم لا العدل، وعلى التدمير لا التعمير"

"ألا يوجد وسط كلّ هذا صاحب ضمير؟"

"قطعا يوجد، لكن إن وصل به الطريق إلى سياسة الدولة بالحق فإنه يُسحق"

التفت بوجهه نحوها، وهاج البحر الرمادي في عينيه، قائلا: "وأين هو الله من كلّ هذا؟"

بقيت ملك تحدّق في الأفق، وفي عينيها الداجيتين لمعان من أشعة الشمس التي كانت تمرح فوق قسّمات وجهها، أزاحت شعرها الأسود الناعم خلف كتفها، فاهتزّ الصليب المتدلّي من رقبتها، ثم حركت شفاهها الرقيقة قائلة بصوت هادئ: "لا يحدث أي شيء إلا برضاه"

ردّ يامن بحزم: "أتمنى أن لا يكون راضياً إذن"

استدارت مواجهة له، وأمسكت بذراعيه المختبئتين تحت معطفه الأسود وقالت: "الأساس هو الرحمة، وما دون ذلك زائد، لو سحب الربّ رحمته من هذا الكون لانفطر عقد الوجود، هل تريد هذا؟

لا تسخط يا يامن، كلّ شيء سيتحسن، تقبّل واقعك برضاً لعلّ رحمة الإله بنا تدوم"

قال يامن بشيء من الحدة: "لو عشت ما عشته يا ملك لما نصحتني، كُفّي عن توجيه حكمتك السخيفة بالبحث عن مذاق السكر وأنا ألتجّع العلقم، فأنت لم تجربي غير السكر"

ظهر النمش على وجنتيها أقل وضوحا بعد أن احمرتا حرجا، وقالت ببعض الغضب: "كلانا في البوتقة نفسها يا يامن، لا أتحدث عن شيء لم أعشه،

أستطيع أن أشاهد القهر يتغلغل في عيني والدي كما أشاهده في عينيك الآن، لي أحباب وأقارب يسكنون الخيام في سورية حتى يومنا هذا، لقد تركت بيتي، وألعايي، ومدرستي وكل شيء مثلك، الحرب لعنة تعيد تشكيل أجيال متتالية على مدار عقود، أرجو منك أن لا تقلل من ألم أحد يا يامن" قال يامن ببعض الود: "أعتذر يا ملك، ولكن يبدو أن لعنة الحرب قد أعادت تشكيلي أنا أيضا"

نظر في عينيها مباشرة وأردف: "الإنسانية قبل حلول اللعنة تختلف عن بعدها، أليس كذلك؟"

"لا عليك، أشعربك، وأستطيع تفهمك"

رن هاتف يامن المحمول رنة قصيرة هادئة تخطره بوصول رسالة، فتح الهاتف وقرأها ثم ابتسم.

ابتسمت ملك لا بتسامته وقالت: "الله، شو هالجمال، ترى لمن ندين لأجل هذه الابتسامة؟"

رد يامن من وسط ابتسامته أوسع قليلا من غير أن يشيح بنظره عن الهاتف المحمول: "إنها إيمان.."

ورد تتحسن

"أحقاً؟ ها قد حصلت على خبر مفرح بعد كل هذه السنوات"

قال يامن بصوت هادئ: "ملك"

"نعم يا يامن"

"أريد أن أذكرك بالطلب الذي طلبته منك في حال شارفت ورد على الشفاء الكامل"

دفنت كفيها الباردين في جيب معطفها الجلدي وقالت: "لا تقلق، ولست بحاجة لأن تذكرني، لن أخذك أبدا يا يامن"

-5-

فتح يوسف باب المنزل وهو فزعٌ متوتر، وأمامه شَخَصَتْ إيمان بثياب رثة، مغبرة وممتلئة ببقع سوداء، تتناثر فوق وجهها الأوساخ، حاملة بين ذراعيها ابنتها الصغيرة جوري ذات السنوات الأربع.

لم يعلم يوسف ماذا يفعل. جاءت ورد من خلفه مسرعة، واندفعت نحو أختها: "إيمان حبيبتي، هل بجوري شيء؟"

لم تحرك إيمان ساكنها، هزتها ورد هزات خفيفة وهي تقول: "إيمان.. أجيبي، ما بكم؟ ما الذي حصل؟ أين باقي الأولاد؟"

تسمّرت إيمان مكانها بلا حراك، نظرت ورد لجوري فوجدتها مغمضة العينين، اندفع يامن نحوها وهز الطفلة بين ذراعي أخته منادياً بصوت عالٍ قليلاً: "جوري جوري"

فتحت جوري عينيها وكادت تبكي لولا أنّها رأت وجه خالها أمامها، تنفس يامن الصعداء، أصرت ورد على أختها بالدخول فالوقت متأخر، والوضع لا يحتمل أي إثارة للضجة، لكن إيمان لزمّت مكانها ولم تتحرك.

جاء جدّ يوسف قائلاً: "إيمان ابنتي، لم تتجمدين هكذا؟ تعالي للداخل، سنزعج الجيران، هيا، هيا يا ابنتي تعالي"

دخلت إيمان بخطوات كهلة متعبة، تنن الأرض من تحتها مع أنينها المخبوء داخل قلبها، أخذتها ورد إلى دورة المياه في حين حمل يامن ابنة أخته جوري، وجعل يداعبها كي يخفف من روعها. بدأت ورد تغسل وجه أختها ويديها، قائلة: "يجب أن تغيري ثيابك قبل كل شيء"

ثم جففت وجهها وتأبطت ذراعها وتحركت بها نحو الغرفة. تسكن إيمان في منطقة الشجاعية، لم تستطع الوصول إلى بيت حانون حين وصلها خبر استشهاد والديها بسبب كثافة النيران، لديها ثلاثة من الأبناء أكبرهم حُسام وأصغرهم جوري.

حين استشهد والداها استطاعت الاتصال بأختها بعد صراع عنيف مع شبكة الاتصالات، أجابها يوسف قائلاً: "لا تأتي ولا تتحركي من منزلك، الوضع خطير والانفجارات تلتهم المدينة، تم دفن رأس والدك ويد أمك بجوار المنزل، ولم تعثر الطواقم التي تعمل بصعوبة على باقي الجثث بعد"

اختنقت إيمان حينها بشهقة خرساء انحبست في صدرها، وعلقت روحها في برزخ من ظلام لا مفرّ منه.

ثم أكمل: "إياك والمخاطرة يا إيمان، أساساً نحن سنتحرك بعد قليل باتجاه الميناء، جميع سكان بيت حانون على وشك مغادرتها"

....

جلست الأختان على السرير في الغرفة بعد أن منحت ورد أختها ملابس تناسبها،

قالت ورد بحنان: "ما الذي حصل؟ ألن تتكلمي؟"
حملت إيمان برعبٍ شديد وقالت بصوتٍ مرتجف: "شاهدتُ النيران تعلو جثثهم، تلتهمهم كقطعة أثاث منسية، لا أهمية لها"
سألت ورد بهدوء متجاهلة القيامة التي تندلع داخلها: "جثث من؟"
"ابناني وزوجي"

قالت ورد بصدمة محتنقة: "م- ماذا تقولين يا إيمان؟ حقا؟ ماتوا؟"
بكت إيمان بحرقة: "كلّا.. لا.. لم يموتوا .. هم فقط ذهبوا لزيارة سريعة للسماء، وقريبا، أجل قريبا.. حين يحلّ الشتاء سيُمطرون فوق، سيهطلون غدقا وأمتلئ بهم، يعرفون أنني لا أستطيع العيش دونهم. سيهطلون من السماء على صحراء قلبي، أجل س.."

احتضنت ورد أختها بين ذراعيها: "إيمان.. اهدئي أرجوك"
"لم يموتوا يا ورد ، قريبا سيهطلون على سطح منزلنا، سأجدهم جالسين على الأريكة الرمادية كقطع لطيفة من السكاكر، يتضحكون وينتظرون مني إشعال المدفأة في ليالي ديسمبر الباردة، أصنع لهم كعكة الشوكولاتة المفضلة لديهم، أشاركهم فيلما كرتونيا لطيفا يعبر عن رونق طفولتهم، ربّما يطلبون السحلب والفشار أيضا، ولن أذمر هذه المرّة يا ورد، سأفرح لكثرة

الطلبات، وأعدّها واحدة تلو الأخرى ولكن ليعودوا، فليعودوا وسأعدّ لهم ما يطلبون وأكثر"

"إيمان حبيبتي اهدئي، أنتِ.."

رفعت إيمان رأسها مجهشة بالبكاء، نظرت داخل عينيّ ورد وقالت: "سيحضرون معهم أمي وأبي أيضا، فلا أجمل عندهم من حكايات الجدّة وملاطفة الجدّ"

عانقت ورد أختها بشدّة: "إيمان يجب أن ترتاحي، أرجوكِ فلا قوة لي أنا أيضا، والله هذا كثير عليّ، كثير جدا يا الله"

حركت الحاجة للعطف والحنان ذكريات ورد، ورست بها على شاطئ الأم وأغنية فيروز التي كانت تغنيها لهم قبل النوم.

أنامت ورد أختها داخل حضنها كطفل صغير، قالت بجنان وهي تداعب شعرها: "أتذكرين صوت أمي الحاني؟"

"ها"

"أنا وأنتِ وحدنا بين هذه الجدران، لا شيء خارج حدود هذه الغرفة يستحق الإنصات، فقط أنا وأنتِ وصوت أمي الحلو يأخذنا حيث كنّا أطفالا، حيث لا يموت الحب: (يلا تنام ريما يلا يجيها النوم، يلا تحب الصلاة يلا تحب الصوم).

أغمضي عينيك وأصغي يا إيمان، فذاك الصوت أكثر ما تحتاجينه الآن، دعي صوتها ينساب فيكِ كالندى، يُربّت على جرحكِ النازف، ويُعيد إليك دفء

حُضِنِ لَا يُعَوِّضُ، وَيَعِيدُ لَكَ لَحْظَةً مِنْ مَاضٍ كَانَ لَنَا وَحْدَنَا، عَلَّهَا تَشْفِي
جُرْحًا غَائِرًا صَعِبَ الْعِلَاجُ

تمتت إيمان: "يا ليتها هنا يا ورد، يا ليتها هنا"
"إنَّها هنا، تَمَسِّحُ عَلَى رَأْسِكَ وَتَشْدُو لَكَ، تَخِيلُهَا وَاشْعُرِي بِرُوحِهَا تَتَغَلَّغُ
دَاخِلَكَ وَتَتَلَجُّ قَلْبَكَ، تَخِيلُهَا فَالْخِيَالَاتُ هِيَ بَسَاتِينُ اللَّهِ عَلَى الْأَرْضِ"
أَطْبَقْتُ إِيمَانَ جَفْنَيْهَا، وَكَذَلِكَ فَعَلْتُ وَرَدَ وَهِيَ تَرْدَّدُ صَوْتُ الْأَمِّ الشَّادِي فِي
أَرْجَاءِ الْغُرْفَةِ، مَتَسَلِّلًا نَحْوَ الْأَرْوَاحِ الْمُتَأَلِّمَةِ، وَمَحَاوِلًا نَزْعَ السِّيفِ الْمَغْرُوزِ فِي
قَعْرِ قَلْبِهَا.

.....

مَرَّتْ خَمْسَةُ أَيَّامٍ تَغْصُ بِالْحُزْنِ وَالْقَهْرِ، لَمْ تَسِرْ فِيهَا شَمْسٌ دَاخِلَ الْعُرُوقِ
الْمُجَمَّدَةِ، وَلَمْ يُسْحَبْ خِلَالُهَا الْقَمَرُ مِنْ يَدَيْهِ لِيُنِيرَ الدَّرَبَ الْمُعْتَمَ.
عَرَفَتْ خِلَالُهَا وَرَدَ مِنْ إِيمَانَ مَا حَدَثَ مَعَهَا بِالضَّبْطِ؛ فَقَبْلَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ
بَسَاعَتَيْنِ، اجْتَمَعَتِ الْعَائِلَةُ لِنَنَامَ فِي غُرْفَةٍ وَاحِدَةٍ، مُحَاوِلَةَ الْإِحْتِمَاءِ بِظِلِّ
أَمَانٍ مَثْقُوبٍ بِالْخَوْفِ، حَمَلَتْ إِيمَانَ ابْنَتَهَا جُورِيَّ مُتَجَهَّةَةً بِهَا إِلَى الْمَرَحَاضِ،
ثُمَّ دَوَّى انفِجَارَ مَرْوَعٍ، وَانْسَحَبَ الْعَالَمُ فَجْأَةً إِلَى صَمْتٍ غَرِيبٍ، لَمْ تَسْمَعْ
بَعْدَهُ إِيمَانَ سِوَى أَزْيِزٍ مُتَوَاصِلٍ.

انْبَثَقَتْ خِيُوطُ دَافِئَةٍ مِنَ الدَّمَاءِ مِنْ أُذُنَيْهَا فِي حِينَ رَاحَتْ تَتَنَفَّسُ كَأَنَّهَا
تَغْرُقُ، وَشَعَرَتْ بِأَنَّ رِئْتَيْهَا تَصْرُخَانِ طَلَبًا لِلْهَوَاءِ. ضَمَّتْ ابْنَتَهَا إِلَى صَدْرِهَا،

كأن جسدها جدارٌ أخيراً يحول دون الشظايا، ودون الذعر الذي تفجّر في المكان.

وبعد أن هدأت وتيرة الانفجار، حاولت العبور إلى الغرفة التي ينام فيها ولداها وزوجها، لكن منعتهما من ذلك ألسنة اللهب. تسوّرت مكانها ترمق الجُثث المحترقة بروحٍ تائهة وقلبٍ ذاهل، حتى جاءها أحد ما وسحبها إلى خارج المنزل.

جاءت سيارات الدفاع المدني محاولة إطفاء الحريق، ونجحت في ذلك بعد حوالي الساعة والنصف، ولكنها لم تجد أي أثر للجثث، لم يجدوا غير الرماد!

أوصلها بعد ذلك جارهم برفقة والدته إلى منزل ورد ويوسف، وعادا مسرعين لعظيم الخطر.

قالت إيمان لأختها وهي تخبرها القصة: "كانت ساعة ونصف الساعة من الموت العميق، ذبحت خلالها أصابع الوقت قلبي الهشّ بسكينٍ مكسورة الأسنان"

ثم وضعت يديها على رأسها وأردفت: "آه يا ورد، لا أستطيع أن أتصوّر كم من الألم انسكب على أجسادهم وهم يحترقون. كان موتاً لا يليق بالبشر، كان وجعاً لا يُحتمل حتى في الخيال، مات كلّ شيء داخلي ولن أستطيع العودة لذاقي من جديد، أشعر بأني ورقة مهملة تائهة على الأرض بين أرجل النازحين؛ لا تعرف غير طعم السحق وهي حيّة"

ردّت ورد: " لا تتخيلي يا إيمان، ولا تغرق في صور الوجع، فالموت ليس إلا عبورًا نحو السلام، ورجوعًا إلى الحنان الإلهي.

لعلهم الآن في فردوس من نور، مع أبي وأمي، يستمعون إلى حكايات الجدة، كما كانوا يفعلون في ليالي الشتاء، ثم.. ألم تُطفأ نار إبراهيم حين شمت أثر روحه؟ ألا تعرفين أن روح الله تحوّل العذاب إلى لطف، والجحيم إلى رحمة لمن اختارهم واصطفاهم؟"

تمتعت إيمان: "إن شاء الله.. أتمنى أن لا يكونوا شعروا بغير البرد والسلام" أضافت ورد:

"هي أقدار يا إيمان مكتوبة منذ الأزل، لا نستطيع محوها أو تغييرها، لكن هناك مستقبل ربّما نستطيع فيه أن..."

"ولماذا تكون الأقدار قاسية إلى هذا الحدّ؟ كنتُ أتمنى أن أحضنهم وأشمّهم ولو مرّة قبل الوداع، ولكّني لم أستطع، حتى هذه الأمنية البسيطة لم تُمنح لي"

"الله لا ينسى يا إيمان، أمنيّتك المؤجلة ستُمنح لك أضعافًا مضاعفة، في وقت لا وِجَع فيه."

لمست ورد وجنتي إيمان بحنان وقالت بصوتٍ عطوف هادئ: "إيمان حبيبتي.. تذكرني أنّنا ندفع ثمن ذنبٍ لم نقترفه، ولذلك سنُمنح عطاءً عظيمًا لخيرٍ لم نفعله إن شاء الله"

همست إيمان: "ربّما، ربّما"

"ضعي بين يدي الرحمن الرحيم روحك الممزقة، وقلبك المكسور، وكيانك المتشطي إلى أشلاء، واصرخي بأعلى صوتك (يا الله)، علّه يكون ناقوساً لولادة جديدة، لن يريحك غيره يا حبيبتى"

في اليوم السادس صباحاً وقبل استيقاظ أحد، تسَلَّت ورد بخفة خارج غرفتها؛ كي لا توقظ إيمان وجوري النائمتين جوارها على السرير، جلست في غرفة المعيشة، تناولت دفترها وقلمها وشرعت في الكتابة:

"بات الموت ينتشر الآن كَنَبْتة متسلّقة، يصعد ويتناول ليصنع سورا شاهقا يحيط بنا من كافّة الاتجاهات، نختنق به و..."

قاطع كتابتها صوت يوسف: "جميلتي، وما الحلّ برأيك؟"

نظرت ورد بدهشة إليه وقالت: "حلّ ماذا؟"

"لما كتبت"

"ها، كنتَ تقرأ إذن؟"

"أجل، ولمّ لا؟"

"أنتَ قل لي: ما الحلّ؟"

"ألستَ أنتِ من كتب العبارة؟ وجب عليكِ الإجابة لا عليّ"

"تسلّقه"

"ما هو؟"

"سور الموت الخائق.. فلنتسلّقه لتنفس، هذا هو الحلّ الوحيد"

"وهل يعلمو الإنسان بالموت يا ورد؟!"

"لم أقل نعلو به، بل قلت نتسلقه أي نعلو فوقه.

نحن نعيش يا عزيزي وسط صندوق مغلق بإحكام، سماءه ترسل الصواريخ والقنابل، وجدرانه وأرضه تبخّ علينا كلّ أنواع الموت التي يمكن أن يواجهها بشري. هل سنستسلم ونموت، أم نحاول تسلّقه والتمسك بالحياة؟"
 "التمسك بالحياة أمر مطلوب يا ورد، ولكن من جهتي، أنا لستُ خارقاً للعادة ولا أسطورة، أنا بشريّ، وبشريّ ضعيف، لا أملك من أمري شيئاً، حتى سلاح لا أملك، فسيغلبني الموت يقيناً، فلن أستطيع أن أخرج من باطني سلاحاً نووياً أو حتى مدفعية بدائية الصنع تحارب كلّ هذه الهمجية، لأنّي ببساطة لا أملكهما، ولا أجد سنداً داعماً لي يمنحني إياهما"

"لكنّك ستقاوم حتى آخر نفس لتحيا"

"سأقاوم، وسأفشل وحدي، هذا هو الواقع للأسف، جميل هو التحدّي في كلماتك، ولكن الواقع أقوى بكثير من كلّ هذا العزم والإصرار"
 ردّت ورد بصوتٍ جاف: "أنا لم أصل لمرحلة الاستسلام السريع مثلك يا يوسف"

"أنا.."

قطع صوت جدّ يوسف الحديث بينهما حين نادى عليه، استأذن يوسف من ورد واتجه نحو جدّه ملبّياً نداءه: "نعم يا جدّي؟"
 بدا الجد متوتراً: "مازن؟"
 "ما به؟"

"هذا اليوم السابع منذ أن تَرَكْنَا ولم يأتِ بعد، وفي كلِّ مرّة تقول لي لا تقلق إنّه بخير، أريد أن أعرف أين هو، أنت تُخفي عنيّ شيئاً يا يوسف"
أخذ يوسف نفساً عميقاً وأخرجه، ثم قال: "حسناً يا جدّي أنت محق، كما أنّه ليس بأمرٍ يجب إخفاؤه، ولكنّي لم أشأ أن أبثّ فيك القلق، لقد ذهب لأداء مهمته يا جدّي"

تساءل الجدّ بحيرة: "أي مهمة هذه؟"

صمت يوسف

قال الجدّ ببعض الغضب: "أجبني"

ثمّ تدارك نفسه وسأل بهدوء: "هل تقصد أنّه مع المقاومين الآن؟"
"أجل يا جدّي هو كذلك، تضرع للخالق بأن يُثبّته ويحفظه من كلّ سوء"
ربت يوسف على كتف جدّه وتركه يصارع القلق ويتمتم بالدعاء: "اللّهُ يحفظك يا مازن يا حبيبي"

هزّت طرقات عنيفة متسارعة باب المنزل، فأسرع يوسف لفتح الباب، وما هي إلا ثواني حتى قال بصوتٍ عالٍ: "إخلاء للعمارة، بسرعة تجهزوا"
حمل الجميع شنطهم التي أعدّوها مسبقاً لوضع كهذا، وركض يوسف مسرعاً نحو محمد لإيقاظه. هزّه بعنفٍ صارخاً: "محمد، محمد هيا استيقظ" ولكن محمداً لم يحرك ساكناً، بل زاد صوت شخيرته علواً.

قال يوسف بعصبية: "أفّ منك.. ليس هذا وقتك يا صاحب النوم الثقيل"

ركض باتجاه المطبخ بسرعة، وأحضر كوباً من الماء ثم سكبهُ فوق رأس محمد، فتح محمد عينيه ببلادة: "يوسف، ماذا تريد؟ الجو بارد نوعاً ما، ليس هذا الوقت لمقابلتك السخيفة"

وعاد يشخر من جديد، شدَّ يوسف أذنيَّ محمد بقوةٍ ساحباً رأسه للأعلى: "ليس إلى هذا الحدِّ، قُمْ أيها الغبي، وهل يوجد مزاجٌ للمزاح في الحرب؟ قُمْ بسرعة وإلا سنسبح في دماننا"

اعتدل محمد بشيءٍ من الفزع، وهو يرمش بعينه: "ماذا تقول أنت؟" قال يوسف بحزم: "هيا انهض، جاء أمرٌ بإخلاء العمارة حالاً، لمِمْ نفسك واحمل حقيبة الظهر خاصتك، وساعد جدِّي في نزول السلم" كانت إيمان وقتها قد دخلت دورة المياه، طرقت عليها ورد الباب بتوتر: "إيمان صباح الخير، أسرعي فقد جاء أمرٌ بإخلاء العمارة حالاً" "ماذا؟ حسناً"

أكملت ورد: "سأذهب لإيقاظ جوري وتجهيزها، لا تقلقي" وبعدما أيقظت ورد جوري، خرجت إيمان مسرعة ووضعة ملابس الصلاة عليها. تناولت ابنتها، وأعطت حقيبة جوري ليامن الذي قال: "هيا فلننزل" قالت ورد: "أذهب بسرعة، سألحق بكما"

أسرعت ورد إلى غرفتها، فتحت خزانها وتناولت ألوم الصور، الذكري الوحيدة التي بقيت لطفولتها وأمها وأبيها، وصلت باب المنزل، ووقفت أمام عتبته حائرة مترددة مشتتة.

جاء يوسف مسرعا من خلفها: "هل نزل الجميع يا ورد؟"
"أجل" ردّت بصوتٍ هادئٍ ضعيفٍ غارقٍ في التفكيرِ
"جيد، هيا لنتحركِ إذن"

ظلّت ورد واقفة مكانها: "هناك إحساس عميق يخبرني بأنني لن أعود"
"ماذا تقولين يا ورد؟ بالتأكيد ستعودين، حتى لو أصبح المنزل ركامًا سنعمّره
من جديد، أرجوكِ هيا"

"أنت لا تفهميني، لا أقصد المنزل فقط، أشعر بأنّي لن أعود إلى هنا أبداً، إلى
الحي ذاته، والشارع، إلى نسيم البحر، والرمال الذهبية، إلى رائحة الياسمين
في الجوّ، لن أعود لأرى حبّات البرتقال الندية على شجرتها، ولا حتى ..."
قاطعها يوسف: "ورد أرجوكِ استفيقي، لا وقت أمامنا، يجب أن نذهب"
"لن أغادر يا يوسف، سأبقى وأموت هنا"

"ورد ماذا تقولين؟! أرجوكِ، لا وقت لهذا الآن، ألسنتِ أنتِ من أخبرني
بوجوب تسلّق جدار الموت المحيط بنا؟ هيا تسلقيه الآن، واجحي عن منطقة
تخلو منه، هيا"

"وهل توجد مثل هذه المنطقة وسط مدينة تكرع من إنائه كل يوم؟"
"ورد أرجوكِ، إن أصعب القرارات هي التي تؤخذ في اللحظة الفاصلة بين
الحياة والموت، وأنا أحمل على أكتافي عبء هذه اللحظة، فلنكن معاً، نحن
جميعاً، وسط أحبائنا، وبعدها ليحدث ما يحدث، هيا يا ورد أين ذهب
عزمك وإصرارك على الحياة؟ أين ذهب إيمانك بحلول الخير ولو بعد حين؟"

أمسكت بيده بهدوءٍ وتردّد، خرجا فصمت جَلْبَة النَّاسِ آذانهما، أغلق الباب وانطلق بها مسرعا من وسط الأكتاف المتزاحمة والأرجل المسرعة، والعيون الوَجَلَة خارج حدود الموت.

"إلى أين سنذهب؟"

"لا أعلم، سنقابلهم عند المفترق ثم نقرر"

بعد دقائق.. اجتمعت العائلة بوجوهها المتعبّة الشاحبة عند المفترق، قال يوسف: "سنأخذ سيارة ونتجه إلى مدرسة البحرين في حي تل الهوا، ليست بعيدة من هنا، كما أنّها مجاورة لمستشفى القدس، وأظننا سنكون في أمان هناك، ما رأيكم؟"

وافق الجميع إلّا جدّ يوسف الذي قال: "أعيدوني إلى بيتي، وإلى بلدي، لا طاقة لي بهذا كلّ بعد هذا العمر"

قال يوسف وهو يسند جدّه: "أعلم أنّك تعبت يا جدّي وتعبت جدا، لكن تحمّل قليلا إن شاء الله ستهون"

كانت السيارات نادرة الوجود، فاضطرت العائلة إلى ركوب عربتين، واحدة يجرّها حمار، والأخرى يجرّها حصان.

ركبت ورد مع يامن وأختها وأمتعتهم على عربة الحصان، قالت وقتها ممازحة يوسف: "سأركب عربة الحصان فأنت تعلم كم أحب الخيل، ولا أحبّ ذلك الآخر كغيري"

ردّ يوسف مجاريا مزاحها: "لا بأس، وأنا أحب الحمير كثيرا، وكلّ يجب ما يليق به"، ثم ابتسم لها ابتسامة مصطنعة واسعة قائلا: "مبسوطة؟" أطلقت ورد شبه ضحكة ثم كتمتها حين أدركت أنّ الحزن لم يرحل عنها من أسبوع كامل، وبأنّ الانقلاب الأكبر دقّ بابها متجها بها نحو مصير مجهول.

في الطريق كانت الأشباح تُعشّش وسط غاباتٍ من الدمار، وظهرت طوابير من الكائنات المنهكة أمام كلّ شيء استمر على قيد التنفس، المخابز، البقالات، أماكن تعبئة المياه وغيرها، كما رُسمت لوحات فنية من القمامة والأوساخ على أرصفة الشوارع.

لاحظت ورد، وهي تجلس بجوار أختها وقد دلّتا قدميهما للأسفل، بأنّها ترتدي فردة خُفّ (شِبْشِب) باللون الزهري وأخرى باللون الأسود، نظرت إلى قديمي أختها وضحكت على استحياء، ثمّ نخزت أختها مشيرة إلى أقدامهما: "أنظري"

ابتسمت إيمان وقالت: "إنّها المرة الأولى التي أبتسم فيها منذ أسبوع، لا بأس حين نصل نُبدّل الفردات"

شاهدت ورد انتفاخا يظهر من ظهر إيمان من تحت ملابس الصلاة خاصتها، وضعت يدها مستكشفة: "ما هذا يا إيمان؟" ردّت إيمان باستغراب: "ماذا؟ لا أعلم"

قالت ورد من وسط ضحكة خفيفة: "إنّها منشفة، هل خرجتِ بها؟"

ابتسمت إيمان من جديد: "لا حول ولا قوة إلا بالله، تأثير الأدرينالين، يلا بتنفعنا"

مرّ بجوار العربة (توكتوك) يتداعى محاولاً الإسراع، تتمدد داخله امرأة ترتدي رداءً مُزركشاً، في حين يجلس بجوارها شاب حافي القدمين يضغط على صدرها بقوة ويصرخ: "بسررعة" ظلّ صدى صرخته يتردد في أرجاء المدينة المتآكلة، إلى أن أعادته لمسامعه على هيئة قصيدة رثاء منسية!

وصل الجميع باب المدرسة، وأنزلوا حقائبهم وأمتعتهم وقبل أن يهيموا بالدخول، همست إيمان لورد: "الشبابش، هيا لنبدلهم، فحتمًا سأجد هنا زملاء لي في العمل وربّما طلاب أدرسهم، وأساساً مظهري غير لائق أبداً، فما بالك مع هذه الشبابش أيضاً؟"

قالت ورد بينما كانتا تتبادلان ما في قدميهما: "لا تقلقي يا إيمان، أنت جميلة وأنيقة بكلّ أحوالك، صدقيني لو التقط أحدهم صورة لك، لانتشرت موضة هذا الشبشب في كلّ أنحاء العالم" ردّت إيمان بجفاف: "اه، تمسخري"

بدا الجميع حين دخل ساحة المدرسة هامداً ذاهلاً، تمتم محمد: "ما هذا؟" كانت المدرسة تتقيأ امتلاءً من كلّ شيء، الناس والأمتعة والقمامة، تقدّموا بخطواتٍ بطيئةٍ متأملين ما آلت إليه الأحوال.

كان الكثير من الناس يفتشون الأرض ويتوسدون العراء بلا فراش أو غطاء، بعضهم ينام على ورق من الكرتون، وآخر على كيس من النايلون في الساحة دون ساتر، الأطفال تتنوع أحوالهم بين اللعب والبكاء والشجار والعري والجوع.

والنساء كأوراق شجر ذابلة، ذهبت من وجوههن النظارة والبهاء، فتجدهن صاحبات مهمومات مقهورات، إلا واحدة مرت وهي تتمايل من جوارهم وكانت تضع أحمر شفاه باللون الفاقع! قال الجد: "يبدو أن لا متسع لنا في هذه المدرسة، دعنا نبحث عن مكان آخر يا يوسف"

تمتم يامن وقد بدأ يضيق ذرعا: "لعنة الله على هذه الحرب ومن كان سببا فيها إلى يوم الدين"

شدت إيمان ذراع يامن أن اهدأ، وقالت: "لا تقلق يا جدي سأحاول أن .." قاطع حديثهم صوت رجل جاء باتجاههم يرتدي بزة العمل في وكالة غوث وتشغيل اللاجئين قائلا: "أستاذة إيمان، كيف حالك، الحمد لله على سلامتكم، هل جئتم اليوم؟"

أجابت إيمان بشيء من الراحة بعدما تفحصت وجه القادم: "أهلا أستاذ أحمد، الحال واحد يا أستاذ، أجل جئنا اليوم، هل نجد متسعا هنا؟"

ضمّ الأستاذ أحمد شفثيه وحرّك رأسه يمينا ويسارا أن لا، ثمّ أردف: "لكنّي سأحاور المدير، فهناك غرفة فارغة نستخدمها كمخزن، فيها الكثير من

أدوات المدرسة القيّمة، هي صغيرة جداً، ولكنها تستركم، لا ندخل أي أسرة فيها مخافة السرقات والأعمال غير اللائقة، أما أنتم وقد جئتم ولي معرفة مسبقاً بكم وبحسن أخلاقكم فربّما نعطيها لكم، وأنا على يقين أنّكم ستحافظون على ممتلكات المدرسة"

جلس الجميع في الساحة منتظرين ما سيتمخض عنه حوار الأستاذ أحمد مع مدير مركز الإيواء، كانت ورد تجلس بجوار يوسف، وبجانبتها سيدة كبيرة في السن ترتدي عباءة سوداء وشالا أبيض اللون، ضئيلة الجسد رسمت التجاعيد خرائط واضحة على وجهها، وقد لمعت خرزتا عينيها السوداوين ببياض الحزن والهّم داخلهما.

قالت ورد: "يوسف، أتعرف بأيّ أشعر ببعض الأمان هنا رغم كلّ شيء سيء" نفخ يوسف هواءً مثقلاً بالقهر في حين رمى بعودٍ رفيع من الخشب كان يعبث به: "لن يطول شعورك يا ورد"

"لماذا هذا التشاؤم يا يوسف؟"

"ليس تشاؤماً، وإنّما قراءةً للوضع، هذه ليست حرب عادية، من الواضح أنّها إبادة لكلّ ما هو فلسطيني، ستمتد أكثر وربّما تطول لعدّة أشهر بعد، وستجدينهم يستهدفون المدارس ومراكز الإيواء في مراحل لاحقة"

قالت ورد ببعض الفرع المغلف بالرفض: "لا.. مستحيل كلامك، ألهذه الدرجة يبلغ الإجرام؟"

"أستغرب أنّك تقولين هذا وقد قرأتِ عن التلمود والتوراة وتعاليمهم الدموية، ونظرتهم الدونية لغيرهم من البشر، فمثلا ألم يرد في كتابهم المقدّس أن سيدنا نوح أمر سام باستعباد كنعان والذي يشير عندهم إلى أن اليهود وجب عليهم استعباد أهل فلسطين؟!"

"أجل ولكن.."

وقبل أن تُكمل ورد قاطعتها السيدة التي تجلس بجوارها: "كنّك أهبل يا ابني؟ وين العالم عنهم؟ والله شكلك هبيلة ما أنت فاهم حاجة، اليهود يخافوا، هم خويفة، وتقلقش العرب ببسمحوش إلهم، أقلك أمريكيا بترضاش بتخاف الدنيا تولّع عليها"

ابتلع يوسف وصفه (بالهبيلة) مع ابتلاع ريقه وقال هازًا رأسه: "طبعاً طبعاً يما أوافقك الرأي"

نحزت ورد يوسف بكوعها في حين رسمت ملامح مأكرة على وجهها وقالت بصوتٍ منخفض مقربة رأسها له: "لقد أعجبنى كلامها، هذه السيدة حكيمة جداً، وقد قالت ما لا أستطيع قوله في حقك"

ردّ يوسف: "أحب ملامحك المأكرة هذه، وأحبك بجميع حالاتك، قولي ما تشائين يا ورد، مسموح لك ما لا يُسمح لغيرك"

أزاحت ورد خُصلة كستنائية ناعمة من شعر يوسف عن عينيه، وقالت ببعض المشاكسة: "ما عاذ الله يا يوسف، ما هذا الذي تقوله؟ كنّك أهبل يا ابني؟"

ضحك يوسف ثم التفت للأستاذ أحمد الذي جاء يدعوهم للحاق به.
في الطريق نحو الغرفة شدّ يامن ذراع يوسف قائلاً: "يوسف انتظر"
"ماذا هناك يا يامن؟"

"أين محمد؟"

أدار يوسف رأسه في كافّة الاتجاهات باحثاً عن أخيه، فلم يلحظه، تمتم
بغضب: "أين ذهب هذا الولد الآن؟"

أمسك هاتفه واتصل بمحمد متمنياً أن تُسعفه شبكة الاتصالات، وما هي
لحظات حتى أجاب محمد، وبعد حوارٍ قصيرٍ دار بين الأخوين، صرخ يوسف
بصوتٍ مدوٍّ أثار ريبة القلوب من حوله:

"ماذا تقول أيها الغبي؟ عدّ إلى هنا فوراً، ستموت"

.....

2026/11/1

في منزل مطلي باللون الأبيض، ستائره بيضاء وأثاثه مدوزن بشكلٍ جميل،
تُحيط به حديقة صغيرة مزينة بنباتات الصبار والزهور المختلفة، جلس على
طاولة الطعام برفقة أصدقائه.

كان يرتدي صدرية رياضية سوداء اللون أبرزت عضلات ذراعيه وصدره
بشكلٍ واضح، نظر بغضبٍ وحنق بعينيه العسليتين إلى أصناف الطعام
الممتدة أمامه، أخرج زفيراً عنيفاً مصحوباً بأقّ طويلة.

سأله أحد الرفاق: "ما بك؟"

"ألم أقل لكم أنني لا أطيق رؤية اللحوم؟"

قهقهه آخر ساخرا: "يبدو أن لحوم الأطفال أثرت عليك، كل يا هذا ولا عليك، فما هم إلا حيوانات بشرية، لحمهم أقل أهمية مما تراه أمامك على المائدة"

نهض بغضبٍ وألقى بالكُرسي خلفه ثم ذهب إلى غرفته، شعر بأنه يخطو على أرض لزجة، نظر تحتته فشاهد خيالات لخليطٍ من الدماء والمُخاط والأشلاء ينتشر تحت قدميه، ضَرَبَ رأسه بكفيه وضغط على أسنانه كاتمًا صرخةً غاضبةً، استمر بضرب رأسه بكفيه بشكلٍ متكررٍ وسريعٍ مُحَدِّثًا نفسه: "اخرجي من رأسي، اخرجي أيتها الصور اللعينة"

أكمل مسيره باتجاه الغرفة، وقف أمام المرأة، نظر بحنقٍ شديدٍ إلى صورته التي تنعكس أمامه، بدا وسيماً بشعره الكستنائي الناعم وعينيهِ العسليتين اللتين تحملان شيئاً لطيفاً رغم قسوتهما، الصور تلاعبت في عقله من جديد، تراءى أمامه صور متداخلة لجسدٍ بلا رأس، وأجسام عارية مشوهة، ضرب مقدمة رأسه بكفه قائلاً: "يا إلهي كفى.. كفى"

سمع ذلك العواء الذي يتردد دوماً وسط غابات نومه، ثم رأى صورة لطفلٍ مكومٍ تحوّل إلى شرسٍ يتمنى تذوق عينيهِ.

تناول زجاجة عطر ورمى بها المرأة أمامه صارخا: "قلتُ لكِ كفى أيتها الصور اللعينة.. كفى"

تكسرت المرأة وسقطت خصلات من شعره الكستنائي على عينيه، نظر أمامه لاهثا، فرأى صورته مشوهة وسط المرأة المكسورة، أراد أن يستدير ولكنه توقف إثر صرخات متوجعة، وطيفٍ لأنثى معذبة.

شعر بأنه يدور وحده وسط مجرّة من الجمر، أخرج تنهيدة مرهقة، حادث نفسه بصوتٍ غليظٍ متعب: "من يدفع برأسي للمثول أمام محكمة الذنوب، من؟ أريد أن أرتاح"

نظر للوشم على ذراعه الأيسر، كان وشماً لشيطانٍ بأنياب حادة وأذنين طويلتين وقرنين معكوفين وارفين، قال بحزم: "أنا شيطان يجب أن لا أنسى هذا.. أنا شيطان"

رمى بجسده القناف على السرير وحملق في سقف الغرفة، زارته الأصوات من جديد، موسيقى هاربة من حفلة للشياطين، وصرخات أنثوية متألّة: "يوسف لا.. لا تفعل"

أغلق أذنيه بكفيه وتكوّر على نفسه، وأطبق أسنانه ثم أطلق صوتاً يشبه عويلٍ وحيثٍ جائع.

-6-

"إنّها معي هنا يا حمار، هل نسيت؟" صرخ يوسف مزلزلاً عبر الهاتف، ثمّ أردف: "تعال بسرعة، أحداثٌ تلو الأحداث، كلّه ورا بعض، تعبت، كفى"
"ماذا هناك يا يوسف؟ أين محمّد؟" سأل الجدّ بقلق
"لا شيء مهم، ها هو عائد إلى هنا"

قال الجدّ بغضب: "أنت تخفي عني الأشياء دائماً يا يوسف"
"لا أخفي شيئاً يا جدي، دقائق وسيكون هنا إن شاء الله" ثمّ أدار عينيه بين الواقفين من حوله قائلاً: "أعتذر منكم جميعاً، هيا.. لنذهب"
في الغرفة الصفية كانت تتكدس عشرات من أجهزة الحاسوب وآلات الطباعة وخزانات خشبية ممتلئة بالقرطاسية المدرسية، بالإضافة إلى عشرة كراسي بلا أيدي موزعة بين جوانب الغرفة، نظر الجميع في حيرة فيما بينهم في حين قال يامن: "إنّها صغيرة جداً، أين سنبيت الليلة؟"
ردّ الجدّ: "تدبر أمرنا يا بني"

وضع الجميع أمتعتهم على جنبٍ تحت إحدى الطاولات المتكدّسة بحاجيات المدرسة، ووجد كلّ منهم موطناً ضيقاً له، منهم من جلس على الأرض الباردة القاسية، ومنهم من جلس على كرسي من الكراسي المتهالكة المصابة بداء

تكسر العظام، طلب يوسف من يامن انتظار محمد أمام باب المدرسة ليرشده إلى موقعهم.

تمتم الجدّ من فوق كرسيه المتآكل الذي بدأ بالارتجاف والانحناء اللا إرادي: "لا حول ولا قوة إلا بالله، ما هذا الحال؟"

تناول يوسف حقيبة ظهره وبدأ يفتش عن شيء ما، سأله ورد وقد اقتربت منه: "هل تحتاج شيء؟"

"كلا شكرا" ثمّ أردف وهو يخرج ساعة أطفال زرقاء اللون ومزينة برسومات ميكي ماوس: "ها قد وجدتها"

قالت ورد بشيء من الخجل: "جيد أنّك وجدت مبتغاك، ولكنك لم تسألني إذا كنت بحاجة لشيء"

ردّ يوسف وهو يدسّ الساعة في جيب بنطاله: "لا تترددني يا ورد قولي دون أن أسألك، ماذا تحتاجين؟"

قالت بصوتٍ منخفض: "الحمام" ثمّ أردفت: "أختي تعطني بابنتها التي لا تنفك عن البكاء والصراخ بكلمة (قصفونا) ويامن كما تعلم.."

قاطعها يوسف: "توقفي عن التبرير لا أختك ولا يامن ولا أي أحد في هذا الكون كيوسف لورده، سنذهب لنلقي نظرة على حمامات المدرسة، تعالي."

أمام باب الغرفة من الخارج قابل يوسف وورد محمد ويامن، رمق يوسف أخاه بنظراتٍ معاتبة وقال: "سامحك الله، لم لم تُخبرني بما يحول في صدرك"

ثُمَّ أخرج الساعة من جيبه ووضعها في كَفِّ أخيه: "تفضل، أكنت ستعود للمنزل من أجل هذه؟! أكنت ستُلقي بنفسك داخل أفواه الموت لهذه؟!"
أجاب محمد: "يوسف لا تسخر أرجوك، أنت تعرف أنّها الذكرى الوحيدة الباقية لي من أبي"

ربت يوسف على كتف أخيه: "لا عليك، أنا لا أسخر ولكني أعاتبك خوفاً وحبا، ادخل الآن وطمئن جدي عليك فهو قلقٌ متوتر."

ذهب يوسف وورد باتجاه الحمامات النسائية وانتظرها عند مسافة مناسبة بعيدة عن حركة النسوة، عادت ورد بعد دقائق قليلة قائلة بتأفف: "الحمام قذر جدا يا يوسف، ولا توجد به مياه"

"ها.. تعالي سأخذك إلى حمام المشفى، ولكن عليك أن تتحملي فأمامنا خمس دقائق من المشي"

وصل ورد ويوسف إلى مستشفى القدس بعد اجتيازهم لشارع قصيرٍ مكتظ بالبشر، بدأت معالم المدينة تتغير من حولهم وترسم جغرافيا جديدة تناسب هذا الكمّ البشري الهائل في هذه البقعة الصغيرة من الأرض.

كانت المشفى تضم بين كنفاتها النازحين أيضا ولكنها لم تصل إلى درجة الاكتظاظ الذي وصلت له المدرسة.

عبرا إلى المشفى عبر سُلّمٍ عريضٍ ومرتفع ومرّا بأعمدةٍ من الرخام الأبيض إلى الطابق الأرضي الذي غلب عليه اللون البني بدرجاته المختلفة فأعطاه مظهراً مُعتماً نوعاً ما.

وعند عودتهما، صُدمَا أمام مدخل المشفى بسيارات إسعافٍ وجمع من النساء والرجال، منهم من يصرخ ومنهم من يبكي بصمت، ألقت ورد بنظرها ناحية المسعفين، فوجدتهم يحملون بين أيديهم طفلاً وقد خرجت بعض أحشائه.

أغضت عينيها وانسلّت بسرعة عائدة هي ويوسف إلى المدرسة دون أن تعرف كم ضحية أحضرت هذه السيارات معها.

مساءً، وضع يوسف ثلاثة من الكراسي بجوار بعضهم طالبا من جدّه أن يريح جسده عليها، طُرق باب غرفتهم، فتح محمد الباب بحذر مخافة سطو بعض لصوص الحرب على الحاجيات المخبأة داخل الغرفة، تفاجأ بامرأة بوجهٍ بشوشٍ وابتسامة لطيفة، سمراء البشرة، عريضة عظام الوجه، ردّت السلام ثمّ قالت: "تناول هذه الفرشة يا ابني" وأشارت إلى يمينها، نظر محمد فوجد فرشة من الأسفنج مغلّفة بقماش من النايلون المزين بزهور حمراء وخضراء. قال محمد: "ما هذا يا خالة؟"

"يا ابني، رأيتم داخلين بلا متاع، فشفت على كبيركم في السن، وأحضرتُ هذه للحج، تقيه قساوة وبرد الأرض من تحته، عندي ما يكفيني وأتدبر أمري"

"بارك الله فيك يا خالة، تفضلي"

"شكرا يا بُني، تصبحون على خير"

أزاح يوسف ويامن إحدى الخزانات الخشبية كي تكون ساترا لنوم النساء، نامت جوري وأمّها على كيس من النايلون على الأرض، وبجوارهما ورد. وعلى الناحية الأخرى من الخزانة الخشبية كان يوسف يطالع هاتفه من فوق كراسٍ متراصة صنع منها ما يشبه السرير وقد هرب منه النوم، لاحظ تكوّر جدّه بردا فوق فراشه، ففكر بأنّه سيخرج صباحا للبحث عن أغطية، نظر باتجاه محمّد الذي يغطّ في نوم عميق على الكراسي المقابلة وهو يعانق ساعته الزرقاء. فكّر في نفسه: "لقد تحوّل هذا الشاب العشريني إلى طفلٍ صغيرٍ فجأة".

بدا يامن غاضبا حتى خلال نومه، منذ استشهاد والديه وعلامات السخط والغضب لا تفارق قسماته، عيناه الرماديتان ينبعث منهما الشرر دون انقطاع، تخلّى عن ما تبقى له من ذيول الطفولة لأجل أخواته فتحوّل إلى رجلٍ غاضبٍ قاسٍ كي يُخفي الطفل المتألّم الباكي داخله.

تنهد يوسف وحادث نفسه: "آه يا يوسف آه، ماذا ستفعل بكلّ هذه المآسي التي انكبّت عليك كبّاً، كم رجل يجب أن تحمل داخلك لتستطيع إدارة الأمور؟"

في تمام الساعة الثانية صباحا رنّ هاتف يوسف وأيقظه من غفوةٍ ممنوعة، فتح يوسف عينيه المحقنتين من قلة النوم، أجاب بصوتٍ ضعيف: "الو" جاء صوتٌ غليظٌ يشبه خوار ثورٍ أهوج: "إلى سكان شمال وادي غزة، المنظمات الإرهابية قد بدأت حرب ضد دولة إسرائيل، مدينة غزة أصبحت

منطقة قتال خطيرة عليكم التوجه فوراً إلى جنوب وادي غزة، من أجل سلامتكم وسلامة عائلاتكم عليكم إخلاء بيوتكم والملاجئ العامة والتوجه فوراً إلى جنوب وادي غزة عبر شارع صلاح الدين.

وقد أعذر من أنذر، جيش الدفاع الإسرائيلي

ثم بدأ الجميع يتململ مستيقظاً إثر رنين الهواتف المتتالي، منهم من يجيب وينصت وآخر يجيب ويغلق الهاتف شامتا.

تحرّكت ورد من مكانها وسألت: "يوسف، ماذا سنفعل؟"

أكل الإرهاق والتعب الوجوه، وخارت قوى باقي أجزاء الجسد، انتظر يوسف مجيء إيمان نحوهم ثمّ

سأل: "هل نتحرك في تمام الثامنة صباحاً نحو الجنوب؟ ما رأيكم؟"

"وأين سنذهب بنسائنا وأطفالنا وشيوخنا؟ لعنة الله على الحرب ومسببها جميعاً" ردّ يامن بغضب

قطب يوسف جبينه وقال بهدوء وحزم: "ألا تلاحظ أنّ اللّعة لم تغادر لسانك منذ بداية الحرب؟ لا أريد أن أقول أنّك مازلت طفلاً، فأنا رأيتُ تحولك إلى رجلٍ شرسٍ منذ استشهاد والديك، والرجل مسؤول محاسب على قوله وفعله، عليك أن تضبط نفسك يا يامن"

قالت ورد بحزم: "لن أتحرّك هذه المرّة يا يوسف"

تنهد يوسف وقال بتعب: "لَمْ أَسْتَغْرِبْ هَذَا مِنْكَ أَنْتِ أَيْضاً، وَمِنْ غَيْرِهَا معترض؟"

ردّ الجّد: "جّدك معترض يا يوسف، وأنا لن أذهب إلى أي مكان، أعيّدوني إلى بلدي فقط حتى لو كانت مقبرة، لم يتبق لي في العمر متسع للمعافاة"
 جلس يوسف القرفصاء ووضع يديه على كتفيّ جدّه الذي كان يجلس على فراشه: "جّدّي أنا أعلم أنّ ما نمر به صعب بل أصعب من الصعب، ولكن تحمّل قليلاً أرجوك"

قال الجّد بصوتٍ اقترّب للبكاء: "وين أروح؟ عالشوارع؟ لم يعد في جعبي جلد، أموت في حضان بيت حانون فهناك الأرض والجدران تعرفني ولا أموت غريباً متشرّداً في شوارع وطني الذي لم يعد يعترف بوجودي"

اعتدل يوسف وأخرج زفيراً حاراً ثمّ قال: "والباقي؟ هل ستذهبون"

قال محمد بصوتٍ حالمٍ هاديٍّ: "أنا لن أذهب.. أبي يشتاقي وينتظرنّي"
 ردّ يوسف بعصبية: "وأين ينتظرك أبوك يا غبي؟ لا أعلم ما هذا الطفل الذي خرج منك فجأة وأنت في ريعان الشباب وفي ظلّ هذه الظروف القاهرة؟"

نظر محمد اتجاه يوسف نظراتٍ معاتبة، في حين شعر يوسف بأنّ هناك عالماً مجهولاً يتشكل داخل عينيّ أخيه المعاتبتين والحامتين في نفس الوقت.

خرج محمد من الغرفة قائلاً: "سأستنشق بعض الهواء المسموم برائحة البارود والدخان وإن قرّرت، أبلغوني بما توصلتم إليه"

قال يامن ساخراً وهو يلحق بمحمد: "دع القادة يبلغونك يا يوسف أين نذهب ريثما أستنشق مع حبيبي ونسيبي محمد الهواء المسموم"

ضرب يوسف بكفيه قائلاً: "لا حول ولا قوة إلا بالله" ثم أردف: "وأنت يا إيمان؟"

"الموت يأتيك حتى لو كنت في برج مُشَيّد، ولكي سأذهب ليس هروبا من الموت وإنما حفاظا على نفسية جوري من التشوّع رعبا، يكفي ما عانتها الصغيرة وشاهدته"

تنهد يوسف: "جيد، وأخيراً حصلتُ على إجابة منطقية عقلانية"
ساد الصمت على جميع من في الغرفة وظلّ كلّ منهم جالساً بهدوءٍ في مجلسه حتى بزوغ الشمس، تحرّك يوسف من مكانه باتجاه ورد قائلاً: "هل يمكن أن نتحدّث يا ورد في الخارج قليلاً؟"

"بالطبع"

نزع يوسف معطفه وأعطاه لورد: "ارتدي هذا فالجو بارد الآن في الخارج وأنت لم تحضري معكِ شيئاً يقيكِ برد الخريف صباحاً"
ظهرت ورد كفزاعة الحقل داخل معطفه الكبير، ممّا أثار فيه رغبة عارمة للضحك ولكنه كتمها وحافظ على ابتسامات خفيفة.

خرجت ورد برفقة يوسف وسارا نحو ساحة المدرسة، في الطريق قفزا من فوق كومة من القمامة، وعبرا بأكوام الغسيل التي تترأص فوق حديد المدرسة أمام الصفوف الدراسية، ثمّ مرّا من بين فتية حفاة يلعبون كرة القدم، ثمّ من أمام طاولة تجمع حولها أربعة شبان يتناقلون ورق اللعب فيما بينهم وتعلو أصواتهم بالضجيج، وظهرت أمامهم مستنقعات صغيرة

من المياه المتسخة بالقمامة والطين وسوائل أخرى تشبه القيء، كما تجاوزا
عدّة خيام من النايلون توزعت في ساحة المدرسة.

حين خرجا من باب المدرسة، قال يوسف لورد وهما يواصلان المسير: "أردتُ
التحدّث معك على انفراد، ولكن لا انفراد وسط هذا الاكتظاظ كما ترين"
"تكلّم يا يوسف، لا بأس، فأنا ودّعتُ مفهوم الخصوصية مذ تركتُ منزلي"
"لماذا لا تريدان المغادرة نحو الجنوب؟"

"لأنّي لستُ غبية، هذه بداية لمخطط تهجير، ولا أريد أن أكون مساهمة في
إنجازه"

"ومن قال أن المغادرة هجرة؟"

"الواقع يقول، وأنت تعرف ذلك أيضا فلا تدّعي عدم الفهم كي تُداري
خوفك، كيف يفرغون شمال الوادي كلّهُ من السكان؟! لن يعيدوهم يا
يوسف إنّها خطة تهجيرية قذرة"

"حسنّا أنا أقبل أنّي خائف، ولكنّي لا أخاف على نفسي بقدرِ خوفي على
أحبائي، لا أريد تكرار نفس المشهد الذي حدث مع والديّ، هناك انقباضٌ
متعبٌ مرعبٌ داخلي يصيبني كلّما خطر هذا الأمر على بالي، ألا تخافين أنتِ
أيضا؟"

"أخاف طبعاً، فأنا حديثة التجربة في الفقد، ولكنّي لا أستسلم لخوفي، لا
أهزم أمام شعب الخوف، الخوف لا يذهب إلا بمواجهته والتسليم لله"

"هذا كلام جميل يتسم بالشجاعة والتحدّي بلا شك، ولكن.. ماذا ستقدمين بهذه الشجاعة التي تخاطبينني بها؟ ماذا ستفعلين أنتِ ببقائك هنا؟ هل تملكين طائفة حربية مَحَبَّةً تحت وسادتك مثلاً؟ هل تستطيعين تغيير مجرى المعركة؟"

ضحكتُ ورد وقالت: "أنا في هذه المدرسة لا أملك وسادة حتى!"
ثمّ توقفت عن السير ونظرت باتجاهه، أردفت بصوتٍ هادئ: "ولكنّي أملك قلباً مؤمناً بأنّ الله سينصرنا"
توقف يوسف مكانه وبادلها نظرة حانية: "وهل ستقاتلين بهذا القلب يا ورد؟"

"أقاتل وأصمد به، هو مصدر قوتي"

صمت يوسف قليلاً منصتاً لصوت قصف بعيد، ثمّ قال ببعض العصبية:
"هذا هراء! الإيمان وحده لا يكفي، الإيمان يحتاج لقوة مادية داعمة له، وأنتِ قوتك المادية صفر، ربما يكون إيمانك عالياً وروحانياتك مرتفعة، لكن أريد أن أذكرك أنّنا نعيش في عالم مادي أرضي وليس عالم سماوي، عالم لا تكفي فيه قوة الإيمان للانتصار، هل تستطيعين قتل نملة قرصتك بإيمانك يا ورد؟"

لن يكفي هذا الإيمان، يجب أن تكون هناك مقومات وعدّة مادية ملموسة، ما مقوماتك أنتِ، في حين أنّك لا تملكين حفنة ماء لغسل وجهك؟! هذه هزيمة يا ورد، ربّما تكون انتصاراً أمام شبح الخوف لكنّها

هزيمة أمام شبح الموت، فكيف تواجهين السيف بلا درع، إذ لا حياء للسيف عند القطع؟"

"وهل يقطع السيف الماس؟ أو هل يموت بريق الماس حتى وإن تمّ تقطيعه إلى أجزاء؟ يكفيني جوهر الماس وأصله وبريقه الذي يدل على ثبات بقائه، وجودي هنا قوي كالмас، هذه ليست هزيمة بل صمود، صمود الضعيف انتصار له، وإيماني هو أساس هذا الصمود، وكما يُقال يا يوسف بين الناس: (الحي ما بتهينه شدة وما إله قاتل)

كما أنّي لا أحتاج مقومات، أستطيع تدبر أمري، والتحلي بالصبر والجّد هما مقومات البقاء عندي، أنا لا أملك من يحتاج لمقوماتٍ أيضاً، كإيمان مثلاً فهي لديها جوري وأنا مع قرار رحيلها للجنوب، وأنت لديك جدك وهو كبير في السن، ارحل أنت أيضاً"

غضب يوسف وقال: "ما هذا الكلام الذي تقولينه يا ورد؟ متى كنّا أنا وأنت شخصين مختلفين؟ ألسنا واحد؟"

"ولأنّنا واحد أقول لك هذا الكلام، نحن في حالة حرب وعلى كلّ شخص منا التواجد في مكانه الذي يساهم في عملية الثبات متناسياً أي شيء آخر، والبطولة لها ثمن يجب أن يُدفع يا يوسف"

"ورد هذه إبادة وليست حرب، تظنين الأمر ممكناً بتحدّي أكبر مجرم عرفه التاريخ ثمّ تنصدمين إذ بطولتك تتحوّل إلى عجز، فأنتِ كأنثى بريئة مدنية لا تملكين من أمرك شيئاً، لن تستطيعي تغيير اتجاه البوصلة نحو الفوز"

أزاحت ورد نفسها عن الطريق قليلا، كي تسمح بمرور سيدة وطفلها، ثم قالت بإصرار:

"لن أُهزم يا يوسف أمام خوفي ولا أمام كلماتك، لأنّي لوهُزمت سأحمل داخلي عذاباً في كلّ مرّة أنظر فيها إلى غزة من بعيد، لا أريد غربة قسرية"
 "لكننا الآن نعيش الغربة يا ورد وسط وطننا، نعيش حياة غريبة دخيلة علينا لا تُمثلنا، تشردنا في الشوارع والمدارس بحثاً عن مأوى ونحن في وطننا يا ورد"

"فليكن، شعور أنّي على أرض وطني يكفيني الدنيا وما فيها"
 "الوطن هو حيث تحافظي على حبّك وإيمانك وكرامتك وغير هذا لا يسمى وطن"

"وما يمنعك من المحافظة عليهم؟"

"الظروف اللا إنسانية تُحوّل بعض البشر إلى وحوش كاسرة، وتطحن البعض الآخر، فلا يبقى حبّ أو إيمان ولا حتى كرامة، هل أقول لك كيف تنتصرين يا ورد؟"

"كيف؟"

"بأن تتركي كلّ شيءٍ ملقى خلفك وتنهضي أنتِ، لو فعل كل شخص هذا سننتصر فلا نهضةً لوطنٍ بلا نهضة شعبه"

"لو كل فلسطين فعلت هذا أنا لن أفعل، لن أترك كل شيء يسقط وأنهض أنا، صحيح أنني لا أملك من أمري شيئاً ولكني جزء لا يتجزأ من هذه الأرض وهذا الوطن، وعليّ القيام بواجبي.

من يدري ربّما أحصل على الثمرة بعد أن تتوقف حاجتي لها، ولكني وقتها أكون قد استحققتها بجدارة، أريد أن تأتي عليّ لحظة حين أنظر فيها إلى الماضي أعرف أنّ النور داخلي تشكل بسبب السنين الأصعب، وبأنّ الأيام التي صنعتني هي الأيام التي كنتُ أبحث فيها عن الخلاص والنجاة والحياة، أريد أن أشعر شعور المنتصر الذي تجاوز كل شيء وهو واقفٌ بين حطام معاركه مرتاح الضمير، لا أريد مستقبلاً أنظر فيه إلى ماضي يحمل وِزر الجبن والهروب"

قال يوسف بغضب: "تبّ لهذا يا ورد تبّ، هل تتهميني بالجبن، أتسمين صراع النجاة هروباً؟ إن سقط الإنسان سقط الوطن، الأولى المحافظة على الأرواح" أنا..

قاطع كلامها رنين صوت أنثوي ناعم منادياً: "ورد"
التفتت ورد وفغرت فاهها مبتسمة: "آية، كيف حالك؟" ثم عانقتها مُردفة:
"عرفتُكِ من صوتكِ الطفولي الرقيق الذي يشبه أفلام الرسوم المتحركة"

أطلقت آية ضحكة تشبه ضحكة شرشibil ولكن بصوتٍ ناعمٍ حادّ
وقالت: "طبعًا.. لم أعِبْ عنك غير أسبوعين يا بنتي، أكيد ستعرفين صوتي،
أين تقيمين الآن؟"

"أقيم في المدرسة، وأنتِ؟"

"في مشفى القدس"

غادر يوسف حوارهما قائلًا: "ورد أنتظركِ في المدرسة"

حين دخل يوسف الغرفة الصفية، لم يجد غير إيمان جالسة برفقة ابنتها،
سألها: "أين جدّي؟"

"قال بأنه سيتمشى قليلا ليحرّك أقدامه، وأين ورد؟"

"ورد ما تزال في الخارج برفقة صديقتها، أمام باب المدرسة"

"صديقتها! من هي؟"

"سمعتها تناديها آية"

"ها .. آية صاحبة صوت سبيس تون" وخرجت منها ضحكة خفيفة ثمّ

سألت: "هل استطعت إقناع ورد بالمغادرة نحو الجنوب؟"

"لا"

"لَمْ أستغرب، أتعلم شيئاً؟"

"ماذا؟"

"لم تُعلِّم أيّ ورد تسلّق الأشجار، ولكنّها علّمتها أن لا تخاف"
نظر يوسف إلى إيمان متسائلاً عن قصدها
قالت موضّحة: "لن تخاف من خوض معركتها، حتى لو كانت لا تملك
أساسيات التعامل معها"
"واضح أساساً، أشعرتني بأنّها تملك سلاحاً نووياً سيقضي على دولة إسرائيل
بنبضة قلب!"
تبسّمت إيمان بخفّة قائلة: "يبدو أنّك غاضب"، ثمّ أردفت مغيرة للموضوع:
"صحيح، جاء محمّد إلى هنا برفقة يامن، وأعطاني هذه الساعة كي أسلمها
لك، قال بأنّه ذاهبٌ ليتوضّأ في المشفى، كما تعلم لا ماء هنا".
تناول يوسف الساعة من يد إيمان، وما إن وضعها في جيب بنطاله حتّى
أفزعته صوت انفجارٍ عنيف.
خرج يوسف يسابق الريح، خائفاً من أن تكون شبّاك الموت ابتلعت أحد
أحبّائه، وقف أمام باب المدرسة باحثاً عن مصدر الانفجار، سمع من المارّة
الذين تزاخوا بأنّه قادم من أمام المشفى.
هرول باتجاه المشفى، وسط ضجيج الناس وزحامهم، وهو يفكر بيامن
ومحمّد، حتى وصل لاهتاً، كان الاستهداف لسيارة تقف أمام المدخل، اقترب
أكثر، مُبعداً يديه الحشد البشريّ الذي تكوّن بجوار السيارة.
سيارة مدمرة، دماء، دخان ممزوج برائحة الموت، أشلاء متناثرة، ونصفُ
علويّ لشابٍ ملقى على الأرض، جاحظ العينين وقد تشكّل داخلهما عالم

جديد أدركه يوسف الآن، إنه عالمٌ خاصٌّ بالراحلين نحو الخلود، عالمٌ يتجرّد فيه جواد الروح من سِرجه لينطلق بعيداً عن أثقال الجسد، عالمُ الحالمين بالخلاص من جحيم هذه الدنيا.

جثا يوسف على ركبتيه، وأطلق صرخةً من صميم روحه أبرزت عروق رقبتَه: "مُحمّد!"

-7-

بعد أسبوعين..

جلست ورد على الفرشة المزينة بالزهور الملونة بالأخضر والأحمر، سائدة ظهرها إلى جدار أبيض اللون، وقد اصفر وجهها وشحب لونها، كانت معدتها تعارك بعضها بعضاً، فتُسبب لها ألماً وقرقرة تنم عن جوعها الشديد. جعلت من قدميها مسنداً، وضعت فوقهما دفتر مذكراتها وبدأت بالكتابة: "من الجيد أنني أحضرت دفتر مذكراتي معي، فأنا لا أقوى بلا كتابةٍ أُفرغ بها ما في نفسي.

مضى أسبوعان مريعان، استشهد خلالهما محمد، وفقد جدّ يوسف بعد أن ترك له رسالة مفادها أنّه عائِدٌ إلى بيته!

لم يعلم الجدّ باستشهاد حفيده محمد، فقد كتب الرسالة وأخبر إيمان بأنّه ذاهب ليمشي، ولم يره أحد من وقتها.

ورغم أنّنا نشرنا صورته على مواقع التواصل الاجتماعي؛ لم يردنا أي خبر يوضح مصيره بعد.

دفعنا محمداً سريعاً في اليوم نفسه، بل في الساعة التي استشهد فيها، فالقصف شديد وشباك الموت لا تتوقف عن صيد ضحاياها.

كان آخر حديثي مع يوسف وقت دفن محمد، حين شاهدته وهو يُلبس يد أخيه اليمنى الساعة الزرقاء المزينة برسومات ميكي ماوس، قلتُ له بحنان وقتها: "ماذا تفعل يا يوسف؟"

أجابني بثبات: "إنَّ شيئًا من أرواحنا يستقر داخل أشياءنا المفضلة، بالتأكيد ستسعد روحه بها"

سألته وقتها: "أليست هذه الدنيا في حدّ ذاتها سجن لأرواحنا؟" نظر إليّ معاتبا، كأنّه يقول ليس هذا ما أريده منك الآن يا ورد، ولم ينطق بشيء، أردتُ توضيح نفسي أكثر فقلت: "الروح تحملنا صوب السماء ونحن نسير بها إلى الأرض والطين، إلى هذا التسفل! مسخنا أنفسنا داخل صور الدنيا البالية التي تشكل سدّا أمام إدراكنا الحقيقي للمعنى، فهل تبالى الروح حقا بهذا الجسد الفاني وممتلكاته؟"

شعرتُ لأول مرة بأنّه ينظر نظرة مقت لحواري معه، هل أخطأتُ في كلامي معه؟ أردتُ أن أقوّيه، فهل أثبت فيه القوة بالبكاء والنحيب بدلا من هذه الكلمات التي لا يتقبلها في وضعه الراهن؟

أردتُ احتضانه بكلماتي، فأنا لا أستطيع فعل ذلك بجسدي وسط هذا الاكتظاظ الهائل، ولكن يبدو أنّي أخطأتُ في اختيار الكلمات، لا يحتاج البشر للقول الحكيم المُزَيّن في أوقات الضعف بقدر احتياجهم لمن يقول لهم: "أنا معك، أفهمك وأشعر بك"

لو كنتُ فعلتُ ذلكَ لربما شعر حينها بأنَّه أقوى شخص في العالم، ولكي لم أفعل!

بنى يوسف جدارا غير مرئي بيني وبينه، لم يعد يحادثني كالسابق، ولم أستطع حتّه على ذلك، يبدو أنَّه خاف من أثر كلماتي على جراحه الداخلية، أو أنا التي جعلتُ من ألمه موضوعا لحوارٍ غير واقعي من وجهة نظره.

وجبَ عليّ أن أضمد جرحه، أن أجعله يبكي في حضني كطفلٍ صغير ويفرغ ما في داخله، ولكي لم أفعل، لم أراع طبيعته البشرية، لماذا لم أفعل ما يجب؟

لأني ببساطة أعلم بأنَّه لا يجب أن أراه ضعيفا، مواقف كثيرة حصلت بيني وبينه أثبتت هذا، كل لحظة استشهاد والدية مثلاً؛ فحين رأني قادمة من بعيد برفقة أسرتي لأداء واجب العزاء، دخل مسرعا مستترا عني، ولم أشاهده بعدها إلى أن استعاد قوته.

أتذكر أيضا عندما عضّه الكلب ونحن نلعب في حقل الزيتون، هاجمنا الكلب، فدفّع يوسف بنفسه إلى الأمام كي يحميني، انقضّ الكلب عليه وعضّه عضّة غير بسيطة، ولكنّه لم يذرف دمعة واحدة أمامي، بل ظلّ يتصنّع التحمل!

بعدها بيوم ذهبنا لزيارته أنا وأمي، قالت يومها أمه شاكية منه: "فضحنا في المستشفى، وصل صراخه لكوكب الزهرة!"
هو يبتعد عني وقت ضعفه ولا يحب الظهور أمامي بصورة هشة، وهذا أمر ليس بجيد بالنسبة لعلاقة يجب أن تتعري فيها الأنفس أمام بعضها البعض تمامًا.

على أي حال.. كنتُ قد اتخذتُ قراري بتحاشي الاقتراب منه حتى يشفى. ولكن ما هو الشفاء؟ جربت الألم ولم أجد له شفاء إلا بالتقبل والرضا، لا يزول الألم ولكنه يقلّ مع الوقت ويشفى بالرضا، وتبقى نقطة سوداء في القلب من أثره، كلما تذكرناه نقحت علينا والتهبت ليمتدّ هذا الحريق القلبي إلى الجسد كافة.

أتمنى أن يجد يوسف ترياقه قريباً، لستُ غاضبة منه، فأنا أقرأ جيداً، وأفهم صمته كما أفهم كلماته، ما عاشه ليس سهلاً أبداً أعلم هذا، لقد بقي وحيداً إلا مني.

صحيح أنه ينتابني الشك، وأتساءل أحياناً: "إذا كنتُ أنا عالمه المتبقي له فلماذا يدفع بي بعيداً عنه؟ لماذا يحاول لفظي من محيطه مع أنني مصدر راحته؟ أكلّ هذا كي لا يُظهر ضعفه؟ أم أنني بتّ عالّة عليه أسبب له الألم والقهر؟

لا أعلم، لقد بدأتُ أهذي وأناقض نفسي، كلُّ ما أستطيع معرفته عن يوسف الآن أنّ روحه ماتت، ومن تموت روحه يعيش في ظلمة مرهقة حتى ولادته الجديدة؛ فهل سيولد بنسخة أفضل؟

أنا أثق به وبأصل قلبه النقي الحاني؛ فالعطوف لا يتحول إلى قاسٍ، والشجرة الصلبة القوية تثبت بجذورها حتى لو تزعزعت أوراقها وثمارها، وتكسرت أغصانها.

أراه كلَّ يوم يطعم القطط رغم شحّ الطعام نتيجة الحصار المفروض علينا؛ فهل يُعقل من شخص كهذا أن يُسيطر عليه الغضب والسخط والضعف، ويتعرّى من مكارمه وفضائله؟ لا أعتقد.

على أي حال.. الخطوة الأولى في طريق تشافيه وولادته الجديدة هي إفراغ ما في نفسه، وعليّ أن أعمل على ذلك.

كانت الأبراج بجوار المدرسة تتساقط يومياً، والأصوات لا تُحتمل، والخطر يحتم فوق رؤوسنا، لذلك انتقلنا إلى المشفى بعد أيام قليلة من تلقي اتصالات الإخلاء، باعتباره مكاناً أكثر أمناً، أو أكثر إنسانية إن صحّ التعبير. انتقلنا إلى مشفى القدس أنا ويوسف فقط، وتوجّه كلٌّ من إيمان وجوري ويامن إلى الجنوب بعد إقناعٍ شديدٍ مِنّي ومن يوسف للحفاظ على بقايا الحياة الخاصة بجوري، أمّا أنا فقد كنتُ أرفض فكرة النزوح، ويوسف أصبح يرفضها من بعد رحيل جدّه، كان يعيش على أمل أن يجده يوماً ما، أو على أمل أن يعود الجدّ من تلقاء نفسه.

مكثنا في الحُجيرة التي تقيم فيها صديقتي آية مع زوجها عمر وابنها كريم، سألتني آية قبل أن تستقبلني بضع أسئلة هي أصلاً تعلم إجابتها، ولكنها أرادت وضعي أمام ضميري كي تأخذ ضمان الأمان من في، سألت يومها:

"في أي جامعة تعملين يا ورد؟"

"في الإسلامية، أنتِ تعلمين أساساً"

"صحيح، ولكنني سمعتُ باستهداف عدد كبير من أساتذة الإسلامية"

"صحيح كلامك، رحمهم الله، أتحافين من تواجدي بينكم؟"

"ليس تماماً، فأنا أعلم أنك لا تنتمين إلى جهة سياسية، ولكن ربّما تأثرت بهم خلال عملك، أتعرفين كم عدد النازحين هنا، وكم عدد الأرواح التي من الممكن أن تتأذى لو كنتِ تنتمين إليهم؟"

"آية، أنا تفوّقتُ في الدراسة وأعمل كمعيدة، هذا كلّ ما في الأمر، لستُ منهم، لأنّي أؤمن أنّ عدم انتمائي السياسي هو أسلم لوطني قبل نفسي، لن ينهض الوطن من تحتِ أحزابٍ مُقسمة"

"أها.. أعلم هذا يا ورد، ولكن تعلمين الوضع الآن، لا تنزعجي مني، فالأخ بات يطرد أخاه حفاظاً على الأرواح و..."

"لا داعي للتبرير"

"وزوجك؟"

"يوسف مهندس حاسوب في CRS "

"مؤسسة دولية لا خوف منها"

ضحكتُ يومها، لا أعلم لم ضحكت، هل من تفكير آية الاستخباراتي، وروح توغو موري التي ظهرت منها فجأة؟ أم بسبب تراكم الألم في قلبي، فكان ضحكي هستيريا لا ينقطع يحبّي تحته وجعًا عميقًا.

بات أبناء الشعب الواحد يخافون من تواجد أحبائهم بجوارهم، إلى أي مدى أوصلنا هذا الاحتلال بجرائمه؟ فمن أجل شخصٍ واحدٍ يُمكن أن يبيد مدينة كاملة دون أن يحرك العالم ساكنًا! ومتى حرّك العالم ساكنًا أصلًا؟ لم يتفق يوسف مع عمر زوج آية، لا أعلم لماذا ولكن هذا أمر لم يُسعدني، كونه لا يجد من ينسجم معه ويخفّف من وقع الألم عليه.

وضعنا ساترا من القماش الأزرق بين العائلتين، ننام أنا وزوجي في الجزء الغربي من الغرفة،

زوجي الذي لم أستطع أن أعيش معه حياتي الزوجية ولو لدقيقة واحدة، لا بأس، المهم أنّ أنفاسنا تجتمع على الفراش ذاته وتحت السقف نفسه كلّ يوم، ننام متجاورين على الفرشة التي تبرعت بها تلك السيدة الكريمة لجّد يوسف، والتي عرفتُ لاحقًا أنّها تُدعى أم خليل.

قبل مغادرتنا للمدرسة، ذهبْتُ لها كي أعيد أمانتها التي منحتها للجّد المفقود، رأيتهَا وقد برزت عظام وجهها العريض بشكلٍ لافت، وغارت عيناها كحفرتين صغيرتين داخل وجهها، قالت يومها : "اتركيها لكم يا

ابنتي، معاذ الله أخذها فهي صدقة بسيطة ممّا أستطيع أن أجود به، صدقة
 وشكر لله تعالى الذي جعل الملائكة تحمي ابنتي من الموت"
 "بارك الله فيكِ يا أمّ خليل، ولكن انتابني الفضول حول ابنتك"
 "قُصِفَ المنزل، طرْتُ أنا، وهي أيضا طارت، صغيرة لم تبلغ السنتين بعد،
 وباقي العائلة الله يرحمهم"

"الله يرحمهم ويصبرك، لكن.. طرّت وطارت؟!"

"هذا ما حصل، إليّ إلو عمر يبعش"

"كيف يعني طرّت وطارت؟"

"لا أعلم، طرّت خارج المنزل وسقطت على الأرض، أُصِبْتُ ببعض الرضوض
 والكسور، ظَنَنْتُ بأنّي أنا من مِتَّ والجميع بخير، ثمّ تفاجأت بأنّ الجميع
 مات وأنا التي نجوت"

"وابنتك؟"

"يافا، اسمها يافا، على اسم مدينتنا الأصلية التي هاجرنا منها"

"عاشت الأسامي"

"وجدناها فوق الدفيئات الزراعية على بعد عدّة أمتار من المنزل، ولمّ تُصب
 بخدش، الحمد لله، سمع الناس بكاءها وأحضروها لي"

"أي أنّ يافا طارت من المنزل عدّة أمتار لتسقط فوق الدفيئات الزراعية؟"

"أجل، كأنّ الملائكة حملتها ووضعتها هناك، ليقرّ الله عيني بها"

"سبحان الله، هذه كرامة من الله"

"الكرامات تحصل، لكن نحن من فقدنا الإحساس بها"
أجل كما قالت السيدة الطيبة (أم خليل)، لقد فقدنا الإحساس بها،
وبوجود الله من حولنا في كل شيء، فعين الرأس بمثابة السد أمام عين
القلب، وما دمنا منغمسين في صور الدنيا، فمتى نرى صور الروح المنطلقة
من سرّ الله؟!

كلّ يوم نضع أنا ويوسف الفرشة المهداة من أم خليل -التي انتقلت إلى
المشفى أيضا- بشكلٍ عرضي، وننام فتلامس أرجلنا البلاط البارد من
تحتنا، نتغطى بغطاءٍ خفيفٍ منحّتنا إيّاه آية يقينا ثلث البرد، أمّا الثلثان
الآخران فيتسللان من الغطاء كأفّاعٍ متوحشة، تلدغ وتعصّ ليستقرّ ألمها
داخل العظام.

اكتظ المشفى بالنازحين، والتّاس باتت تنام في الطرقات والمداخل،
والتهديدات بإخلاء المشفى لا تنقطع، جيش الإحتلال الشيطاني أصبح
قريباً جداً، الحصار اشتدّ علينا، قلّ الطعام، وشحّ الماء، والاتّصالات غالباً ما
تكون مقطوعة.

نكتفي أنا ويوسف بشرب الماء مرتين في اليوم، مرّة صباحاً وأخرى مساءً كي
نحافظ على مياهٍ صالحةٍ للشرب لأكثر وقتٍ ممكن، ينام الناس في المشفى
جوّع، العديد من حالات الدوخة والإغماء أصابت التّاس هنا بسبب قلّة
الطعام.

والكثير من الموت يتهافت علينا، هل نعتاد الموت؟
لا يمكن للإنسان أن يعتاد الموت، فقد جُبل البشر على حب الحياة
والتمسك بها، ووضع الله داخلنا غريزي الخوف والبقاء، كي نتمسك
بالحياة، ونحن في النهاية بشرٌ مثلنا مثل أي إنسان في هذا العالم، نحَب أن
يطلّ الفجر علينا بوجهٍ ضاحكٍ، وتخفق في سمائنا أجنحة النور، كنُسورٍ
انطلقت من صدر النجم الذهبي، لتبدد عتمتنا وتمحو هذا الجحيم كله.

فمثلاً، لن تجد أمّاً في العالم ترغب في أن ينام طفلها جائعاً، ولو أدى شخص
ما فتاة بشوكة، لوجدت أباهما يقتلع عينيه. فما بالك بكل هذه الشرور
التي تحدث؟ هل يتحملها بشريّ؟

لم أتهم يوسف بالجبن والهروب كما اعتقد في ذلك اليوم، هو لم يفهمني؛
وأنا أفهم تماماً ما يريده من حديثه الذي لم يجانب الصواب، ولا اعتراض لي
عليه.

ولكن كيف يمكن للإنسان أن يتعامل مع أيديولوجيا جُبلت على
الزيف؟

كيف يتعامل مع فكرٍ وُلد من رحم الاستعمار، وارتدى عباءة الدين ليخفي
وجهه العنصري القبيح؟

كيف يواجه الصهيونية، التي تتدثر بنصوص ملفقة كمفهوم "الجويم"،
لترى في غير اليهودي مجرد كائن أدنى، حيوان بشري خُلق لخدمة السيد؟
أي دين هذا الذي يشبه المرأة الحامل، إن لم تكن يهودية، بأنثى الحيوان؟

وأي إله يُقبل عنده أن يُسفك دم طفل بريء قرباناً، لأنه لا ينتمي إلى
"الشعب المختار"؟

وأي كتاب هذا الذي يتجرأ على قداسة النبوة، فيدّعي أن نوحاً أمر بقتل أهل
فلسطين واستعبادهم، وأن لوطاً (حاشاه) ضائع ابنتيه لينجب منهما نسلًا
ملعونًا يبرر استعبادهم؟

أي انحراف هذا الذي يجعل من التحريف شريعة، ومن العنصرية دينًا؟
هذا ليس فكرًا سماويًا، بل نتاج أرض تعفن فيها الضمير، وتغوّلت فيها
شهوة الاستعلاء.

فهل يُعقل أن نستسلم لعقيدة تُحرف التاريخ، وتسوّغ الإبادة، وتستبيح أهل
الشام ومصر وسائر البشر؟

يكفي أن يُطالع المرء نصوص التلمود المُسخّرة لخدمة المشروع الصهيوني،
ليُدرك حجم الكارثة الأخلاقية، إذ تقرأ فيه:

"المرأة الحامل غير اليهودية لا فرق بينها وبين أنثى الحيوان الحامل"،
"كلّ أطفال الأميين حيوانات"،

"عندما تقتل غير يهودي فأنت تقدم قرباناً للإله".

أي عار أعظم من هذا؟

هل يُعقل أن نغض الطرف عن تلك العقيدة المنحرفة، ونقبل أن تُنسف
إنسانيتنا تحت دعوى دينية زائفة؟

أعرف أننا بلا حيلة ولا قوة، وأنّ ما بأيدينا لا يكاد يلامس أكثر من ظلّ
أمل هشّ، لكن هل يعني هذا أن نصمت؟ أن نستسلم لهم؟
أما علّمنا السماء أن الهشاشة لا تعني الهزيمة، وأنّ قضبان الطغاة تُكسر
حين تنهض الروح؟

ألم تُهزم علوم جالينوس أمام نفخة عيسى؟
ألم تُحطم عصا موسى جحافل فرعون؟
أما انشقّ البحر لطين أقدام العبيد، وتهاوت أسوار الجيروت حين نهض
صوت النبي؟

لو قلتُ هذا الكلام ليوسف لقال لي: هم أنبياء، أمّا نحن فأشقياء، أشقياء
بمعاصينا ومظالمنا.

هو محقّ في هذا، فلسنا شعباً ملائكياً، فينا السارق والزاني والخائن والكاذب
والفاسق والمتسلّق وعديم الشرف وتاجر الحرب، ولكن لو أنّ كلّ شخص
سلك منطق يوسف فلن يتغير شيء، لأنّ التّفنّس ستجد مسوّغاً للضعف
والهروب، واتخاذ طرق غير سوية.

أقول إنّ الماء المالح والماء العذب يسير بعضهما جوار بعض فلا يختلطان، ولو
تتبّعنا مجراهما فربّما وجدناهما ينبعان من أرض واحدة، فاختر مع أي ماء
ستدقق، ستعلم وقتها على أي أرض ستصب.

إنّ صورة الرّفعة تكون للسماء أما معنى الرّفعة فتستحوذ عليه الأرواح
الطاهرة، فهل تختار الصورة أم المعنى؟!

المهم الآن بالنسبة لي هو يوسف، لقد طال صمته، وهزل قلبه، ووجب عليّ محادثته، ونفض أوجاعه."

ارتبكت ورد وتركت القلم إثر ضحكةٍ صاخبةٍ خرجت من فم آية، أطلّت من خلف الستارة الزرقاء بعينيها الخضراوين الواسعتين وقالت: "ما بك يا آية؟ ما هذا الضحك المجنون؟"

"لا شيء.. فقط أضحكني كريم" وواصلت الضحك
نظرت ورد باتجاه كريم الذي بدا كدُمّية يابانية، بشعره الكثيف الناعم، وبشرته الصفراء، وعينييه الصغيرتين الغائرتين داخل وجهه، وقالت: "كريم، قل لأمّك أن تخفض صوتها، نحن في حرب والجميع متألّم هنا، لا يجوز هذا"
قالت آية وهي تخفض صوت ضحكتها: "أفّ منك يا ورد، حاضر"

"صحيح.. منذ وقت أردت سؤالك، من يشبه كريم؟"
"يشبه جدّه الله يرحمه، كانوا يلقبونه في الحارة بالصيني"
ابتسمت ورد بخفة وقالت: "حقاً؟.. الله يرحمه"
أسكتت آية ضحكتها وقالت بصوت يشوبه الخجل: "ورد.."

"نعم يا آية.. قولي لا تترددي"
"هل أجد معك ما يؤكل؟ نفد كلّ ما نملك"
"هل كريم جائع؟"

أجابت بشيء من التردد: "يعني"
"حبيبي.. معي بسكويت في حقيبتي من قبل الحرب، سأنظر لتاريخه"

أخرجت ورد البسكويت من حقيبتها ونظرت إلى تاريخه: "لم ينتهِ تاريخ صلاحه بعد، خذيه"

"لكن.. وأنت؟"

"شو أنا يعني؟ أنا أتحمل، أصوم، ساحك الله أتقارنيني بالطفل الصغير؟"

قالت آية ببعض المزاح: "يعني.. عروسة ولازم تتغذي"

احمّرت وجنتا ورد، فأطلقت آية ضحكة شرشيل الشهيرة وقالت: "شوف

البنت خجلت، أنا أمازحك يا ورد، كي أحسن من مزاجك، لا نعرف ما

ينتظرنا بعد، الوضع مخيف جدا"

"الله يكتب الي فيه الخير يا آية"، وناولت كريم قطعة البسكويت وهي

تقول: "كريم حبيبي، تفضل أيها الياباني الصغير"

ردّ كريم ولكنه تناسب عمره البالغ أربع سنوات: "مث ياباني، فلثطيني"

"يسعدك الفلثطيني هو، سأخرج للتمشي قليلا يا آية، حافظي على ضحكك"

منخفضة" وابتسمت لها بودّ

"ولا يهكم يا مديرة، الله معك"

عبرت ورد ممرات المشفى التي أصبحت ضيّقة بسبب تكدّس كلّ شيء،

مرّت بمحّامات الطابق الأول فوجدت ملكة الحمّامات (كما تُسميها آية)

على حالها، مُقّطبة الحاجبين متغضّنة الوجه، تمسك بالقشاة والمسحة،

تربط رداءها على خصرها لتجعله أقصر قليلاً فلا يتبلل أو يتلوّث، تنظم

دور النظافة، تصرخ على الفتيات والنساء، وتونجنهن بلسانها اللاذع.

ابتسمت ورد وهي تتأملها، وتساءلت بينها وبين نفسها من الذي عيّنها لهذه المهمة الصعبة؟ أو ربّما هي التي تحب هذا النوع من التنظيم؟! كانت تبحث بعينيها عن يوسف، يوسف الذي أتعبها وجعه أكثر من الحرب، وجدت طفلاً صغيراً يقف بجوار المدخل الرئيسي، يبدو في الخامسة من عمره، يرتدي بنطالا قصيراً وكنزة حمراء اللون، أكرت الشعر، أنبوي الأنف، يسيل من أنفه المخاط فيشفطه كدّب النمل حين يشفط وجبته اليومية، يتنقل الذباب بين تضاريسه بمنتهى الراحة والأمان، نادت عليه ورد وأخبرته بأن يدخل فالوضع خطير، ومحيط المشفى يتعرض للقصف اليومي، ركض الطفل ولكن باتجاه الخارج، جرت ورد لاحقة به: "هيه.. أنت.. تعال"

أمسكته من ياقته من الخلف ثم من ذراعه وسحبته للداخل، جلست القرفصاء سائلة: "وين ماما؟"

فجاء صوت طفولي ناعم من الخلف: "سعيد.. أتعبتني وأنا أبحث عنك" التفتت ورد فوجدت طفلة يناهز عمرها الثالثة عشرة، سمراء البشرة، هزيلة الجسد، أنبوية الأنف أيضاً، سألت ورد: "أنتِ أخته؟" "نعم"

"ديروا بالكم عليه، الوضع خطير"

"منذ استشهاد أبي وهو هكذا، ذهبت للتسوق ولم تعد، كل يوم يحاول الخروج باحثا عنها، حاولنا إفهامه ولكن بلا جدوى"
أخذت الطفلة أخاها وذهبت، تمتت ورد: "آه.. ما أصعب هذا العبء الذي ستكبر معه يا سعيد أنت وإخوتك"
ثم استدارت، وعادت إلى غرفتها بلا أمل في إيجاد يوسف وسط هذا الزحام.

.....

مساءً..

جاء يوسف ودخل الغرفة بصمت، جلس على الفرشة بجوار ورد، وأخرج تنهيدة طويلة متعبة.
قالت ورد بصوتٍ هاديٍ خفيض: "قلقتُ عليك"
ردّ دون أن ينظر إلى وجهها: "كنتُ أبحث عن شيءٍ يؤكل، كل ما حولنا دمار وموت، لا شيء آخر"
وضع يده في جيبه، وأخرج بسكويت بالتمر: "اشتريته من صاحب بقالة عثرتُ عليه مصادفة هنا، آخر حبة كانت معه، تفضلي"
اقتربت ورد من يوسف أكثر، وهمست في أذنه كي لا يسمعها شركاء الغرفة: "إلى متى ستُبقي عينيك الجميلتين بعيداً عني؟"
فتح يوسف كفّ ورد دون أن ينظر ناحيتها أيضاً، وضع داخله البسكويت ثم نهض قائلاً: "هيا نغيّر وضعية الفرشة كي ننام"

نهضت ورد، وحرّك يوسف الفرشة بجوار الحائط، ووضعها بالعرض ثمّ توقف حائراً، سرحانا لثوانٍ قليلة قبل أن يرفع الفرشة من مكانها، ويضعها بجوار الساتر القماشي مغيرا موضعها.

سألت ورد: "لماذا فعلت هذا؟ سندخل على التّاس ونحن نائمون" "عليك مراقبة نومك إذن، القصف يشتد والتهديدات جدّية، الأفضل أن نبتعد عن أي شيء من الممكن أن ينهال فوقنا"

همست ورد: "صحيح"

زَمَّ يوسف شفته السفلى إلى الأسفل بحركةٍ تدل على التعجب وقال: "غريب"

سألت ورد بدهشة: "وما الغريب؟"

"هذه أوّل مرّة تتقبلين وجهة نظري دون جدال ونقاش"

"سامحك الله .. أنتَ تظلمني"

رمى نفسه على الفرشة، وأعطاهما ظهره كي ينام، تمدّدت ورد بجواره، رفعت رأسها قليلا، ومدّته باتجاه أذنيه، وهمست في أذنه: "لا تدِرَ ظهركِ لي، كفاكِ عزلة يا روح الروح"

لكنّه لم يجب، كانت ورد عازمة على محادثته وكشف ما في نفسه، ولكن كيف السبيل إلى ذلك دون أن يسمعهما أحد؟ تناولت هاتفها المحمول، تذكرت بأنّها بلا إنترنت، ولا رصيد معها لإرسال رسالة.

فكّرت ورد للحظة، ثمّ فعلت البلوتوث في هاتفها، وأمّلت أن يكون البلوتوث مُفعلاً عند يوسف، تنفست الصعداء حين وجدته كذلك، ونجح الاتصال.

فتحت صورة من صور التصميم الفارغة التي كانت تستخدمها دائماً، بدأت تكتب: "أحبّك، وأحبّ قوتك الطاغية رغم هذه الظروف، ولكن الإنسان يحتاج لأن يفرغ أثقال قلبه، وليس عيباً أن يفعل هذا أمام نفسه، وأنا نفسك التي إن ضعُفت أمامها ستبقى بطلها الخارق، كما أنّ القلب إن هزل يحتاج للغذاء، فامدد القلب بالغذاء من شريك في القلب".

أرسلت ورد الصورة عبر البلوتوث، فأصدر هاتف يوسف أزيزاً، جلس وتناول هاتفه ليطلع ما وصله، قرأها، تأملها لعدّة دقائق في حين كانت ورد تتفحص حركاته بنظرات الرجاء، أدار جسمه مواجهها لها، نظر مباشرة باتجاه عينيها، وأظهر ضعف عينيها لها لأول مرّة دون خوف، ثمّ كتب: "تعرفين أن لا عنوان لي غيرك، ولكّني متعبٌ جداً"

"أيّها المبتعد عن الحبيب، أنت كمريضٍ يبتعد عن الطبيب"

ابتسم يوسف وكتب: "كنتُ أنتظر الإشارة من وردة ربيعي، فأنا أضعف من أن أعترف بمرضي، أو أستجدي علاجاً له"

كتبت وهي تبادلها الابتسام: "ما أجمل هذه الابتسامة التي تُظهر من فمك قلباً كالماش في جيب الروح!"

لو لم يجد التراب إشارة من الربيع لما باح له بالأسرار الساكنة فيه، وها قد وجدتَ إشارتك فَبُحَ ولا تتردد"

اتسعت ابتسامة يوسف ومدّ، جسده قليلا هامسًا: "شاعرتي الجميلة أنتِ"
ثم كتب: "أنا متعب، منهك، وضعيف، تعبت من كوني كتفا يحمل جبالا،
تعبت من كوني مواطنا بلا وطن، تعبْتُ من كوني رجلا عاجزا أمام
احتياجاتك الأساسية، وتعبْتُ من كثرة الوداع بلا أمل في لقاء، وأخاف
عليك من كل هذا"

"أنا أنت، وأنت أنا، هذا يعني أنّي أفهمك، أشعر بك، وأقدّر وجعك وألمك
وتعبك، أفهم عجزك وخوفك، فلا تبتعد عني، ضع ثقلك داخل أحضاني
ولا تبال"

ترك يوسف الهاتف من يديه، اقترب من ورد أكثر حتى لمست ركبته
ركبتها، وضع جبينه على جبينها ولا لمس أنفه أنفها، أغمض عينيه، أمسك
صدغيها بيديه، أحسّ بدفء أنفاسها، بقي هكذا لعدة دقائق ثم دفن رأسه
بين أحضانها وبكى بحرقةٍ كطفلٍ صغير، انتحب صامتًا كاتمًا صوته عن
الأذان المحيطة بهم، سالت الدموع من عيني ورد، وبلّلت شعره الذي كانت
تداعبه بيديها الحانيتين، رفع رأسه، والدموع تخطّ وديانًا على وجهه، قبل
يديها قائلاً: "أنتِ جوهرة"

ضمت رأسه إلى صدرها، غرزت أناملها الحانية بين خصلات شعره،
 وهمست له: "يصبح الحجر جوهرة حين يتحد بصاحب قلب جميل"
 امتزجت الأنفاس والنظرات وغفا الحبيبان يومها وجها لوجه.

.....

بعد يومين..

نرح عدد كبير من النازحين إلى الجنوب في اليومين السابقين، كان الوضع
 خطيرا، نوافذ المشفى كلها تكسرت تقريبا، والكثير من الجدران انهارت،
 استشهد العشرات من أثر الشظايا وقطع الزجاج والحجارة، وطالت
 المدفعية بعض الغرف، فقضت على كل من فيها.

كان على النازحين المتجهين نحو الجنوب المشي لمسافة طويلة، تعادل 10
 كيلومترات تقريبا، يمشون عبر شارع صلاح الدين الأيوبي وصولا إلى
 حاجز نتساريم المؤدي إلى وسط القطاع، التوقف في الطريق ممنوع، وكذلك
 الاستراحة خلاله، إذا توقف أحدهم من التعب فإنه يُقتل، وإذا وقع من
 أحدهم شيء على الأرض فإن الرصاصة ستفجر رأسه لو حاول التقاطه.
 المحظوظ من يعبر الحاجز دون قتل أو اعتقال أو سرقة للأشياء الثمينة، أو
 تعرية من الملابس.

لم يغادر يوسف وورد المشفى؛ فعندما سأل يوسف ورد إذا كانت تريد الخروج وخوض غمار المخاطرة، قالت: "وماذا عن جدّك؟"
قال يوسف: "لا أعلم يا ورد .. لا أعلم، لا أستطيع اتخاذ قرار، باتت الأفكار في رأسي كأسلاك متشابكة"
"أعرفين بماذا أشعر يا ورد؟"
"بماذا؟"

"أشعر بأني علامة استفهام أتنقل بين الأسئلة، ولا أجد إجابة"
"لا بأس يا يوسف.. لا تُتعب نفسك بالتفكير، دعها تأتي كما كتبها الله، لا حيلة لنا أمام كلّ هذا"

أمّا اليوم .. فلا مجال للتحرّك، فالدبابات والآليات العسكرية تحيط المشفى من كلّ الجوانب، والسماء ممتلئة بطائرات الاستطلاع والكواد كابتر التي تراقب محيط المشفى دون انقطاع.

كان النازحون يكتظون صباحا أمام المدخل الرئيسي، قلقين، ومتوترين، وخائفين، الضجيج يصمّ الأذان، الأحاديث الجانبية لا تنقطع، الأصوات عالية، والنقاشات حادة، وصراخ الأطفال لا ينتهي.

وقف يوسف وورد في ترقب، يراقبان الوضع والتاس وكلّ شيء من حولهما، وعلى غفلة من الجميع خرج طفل صغير مسرعا خارج حدود المبنى، رmqته ورد، إنّه يرتدي بنظالا قصيرا وكنزة حمراء اللون، إنّه نفس الطفل الذي

أدخلته قبل يومين: "يا إلهي! هذا سعيد" أرادت أن تلحق به، فأوقفها صوت عيار ناري، وسقط الطفل أرضاً وهو ينزف.

علت أصوات الضجيج والصراخ، اندفعت إحدى الطبيبات من بين جموع الناس، تدفع الأجسام المتلاصقة، وسألت بفرع: "ماذا حدث؟"

كانت الطبيبة قصيرة القامة ممتلئة الجسم قليلاً، جدية الملامح، وقفت أمام المدخل، وطالعت الطفل المصاب من بعيد، قالت: "إنه ينزف، يجب أن نحضره فوراً!"

وما إن تحركت خطوة حتى سُمع أزيز رصاص من جديد، تعالت الأصوات من حولها: "ارجعي، ارجعي"

حنت الطبيبة ظهرها وركضت مسرعة إلى الخارج وسط المناشدات من حولها بالتراجع، وصلت إلى الطفل، ثم دوت الرصاصات من جديد، لكنّها أصابت الفراغ.

كان سعيد مصاباً في بطنه، ضغطت الطبيبة بقوة على موضع النزيف في بطنه بإحدى يديها وحملته باليد الأخرى، أنزلت ظهرها، وثنت ركبتيهما، وأخذت تركض كقُبلة انتزعت نفسها من فم الموت لتُبعث من جديد في صدر النجاة.

عندما اقتربت من المدخل تعثرت قدمها، ووقعت أرضاً وهي تضم الصغير إلى صدرها، اندفع أحد الرجال مسرعاً لتناول الطفل من بين يديها، قالت بصوت عالٍ متأهّب: "اضغط على بطنه".

حملة مسرعا به إلى الداخل، رفعت صدرها لتنهض، فباغتتها رصاصة استقرت في قلبها، أسقطتها أرضاً مرةً ثانية.

وضعت ورد كفها على فمها قائلة: "يا الله!"، تداخلت الأصوات والصيحات من جمع النازحين، وتحرك يوسف من مكانه باتجاه الخارج.

شدته ورد من ذراعه صارخة: "يوسف، إلى أين؟"

نظر نحوها: "ألم تقولي بأنّ البطولة ثمنًا يجب أن يُدفع؟ هذه الطيبة هي البطولة الحقيقية يا ورد، وهذا ثمنها."

ثم ركض مسرعا للخارج وتبعه شاب آخر، حملا الطيبة بحذر، وسحباهما إلى الداخل دون سماع أي طلقات نارية.

فكرت ورد في نفسها: "أليست الروح الفارغة من المعنى في هذا الجسد كالسيف الصديء المتآكل في الغمد؟ طالما هو في غمده فله قيمة، لكنّها غير حقيقية، مزيفة؛ فتورد صاحبه موارد الهلاك حين يخرج من الغمد! هنيئا لك بهذه الروح يا يوسف التي وُلدت من جديد من الظلمة بنور البطولة، حاملةً معنى يوردها موارد الرفعة والنجاة إن شاء الله."

في اللحظة التي تنفّست فيها الحياة، عاد فم الموت ليبتلع من أنقذها. استشهدت الطيبة، وعاش سعيد.

.....

ظُهرًا..

ساد بعض الهدوء على حركة الآليات العسكرية في محيط المشفى، رجع خلاله جزءٌ من النازحين إلى غرفهم. جلست ورد برفقة آية وكريم، كانت آية تهز قدميها بشدة من التوتر، وقد ضمت صغيرها إلى حضنها، واختفت ضحكاتهما وسكت لسانها.

سمعت ورد صوتا ضعيفا ينادي باسمها، مع طرقاتٍ خفيفةٍ على باب الغرفة، فتحت الباب وابتسمت قائلة: "تفضلي يا أمّ خليل"

لكن أمّ خليل بدت شاحبة جدا باهتة الملامح، مشتتة الأفكار: "ورد.. أريد منك طلباً وأرجو أن لا تردّيني خائبة"

"تفضلي يا أمّ خليل"

"ابنتي يافا"

"ما بها؟"

"سأتركها في أمانتك"

"ماذا تقصدين؟"

"زوجي كان مطلوباً، ولهذا قُصف منزلنا، استشهد هو والجميع، عائلتي وعائلته، لم يتبق لي وليفا أي أحد، وقد منّ عليّ الله بإبقائها على قيد الحياة، أنا على ثقة أنّها ستكون صاحبة مستقبل مزهر إن شاء الله. إذا دخل الجيش المستشفى فسأكون إمّا شهيدة أو أسيرة بكل تأكيد، لن يتركوني في

حالي وأنا زوجة مطلوب لديهم حتى لو اغتالوه، لا أريد ليافا أن تبقى برفقتي، لن يلتفتوا لطفولتيها ويرحموها، يجب أن أنقذها"
"ولكن.."

"ورد، رأيتكِ في حلمي ليلة أمس وقد كنتِ تسبحين برفقة يافا تحت الماء، وتلعبان مع الأسماك الملونة"

"يافا تسبح برفقتي أنا؟ والأسماك؟ ولكن هذا.."

"ورد أرجوك، حافظي على حياة يافا، خذيها عندك وإن لم يحصل لي شيء ألتقي بك وأخذها، منذ أول يوم رأيتكِ فيه توسمت فيكِ الخير"

فكرت ورد قليلاً ثم قالت: "ولكن أنا أعمل في الجامعة الإسلامية التي هي تابعة لحماس، بالتأكيد سيأخذونني للتحقيق، صحيح أنني لا أعرف شيئاً ولا علاقة لي بأي جهةٍ سياسيةٍ كانت، ولكن بالتأكيد سيسألونني عن بعض الأشخاص من الجامعة، أنا معرضة للاعتقال أيضاً"

ثم أمسكت ورد بكفي أم خليل: "اسمعي، أنا أقدر خوفك ولكن توكلي على الله، لا أحد منا آمن"

قالت أم خليل برجاء أكثر وقد حمل صوتها نبرة البكاء: "أنا شاهدتُكِ في حلمي يا ورد، أنتِ ستحافظين على ابنتي"

"يمكن هواجس يا أم خليل"

"لا.. ليست كذلك، ورد أرجوكِ اسمعيني..."

نهضت آية واتجهت نحوهما قائلة: "أنا أخذها يا أم خليل"

"لا.. أريدها مع ورد"

"على مهلك يا أم خليل لم تدعيني أكمل، سأخذها وأسلمها لإيمان أخت ورد حين أصل الجنوب، إن نجوت أنت تأخذينها، وإن نجت ورد تهتم بها، تمام؟"

اختنق صوت أم خليل قائلة: "ما رأيك يا ورد؟ أتقبلين بحمل هذه الأمانة؟" نظرت ورد داخل عيني أم خليل المتوترتين الخائفتين والراجيتين، ثم تأملت يافا، تلك الطفلة التي لا تتجاوز العامين، بشعرها البني الناعم، ووجهها العريض الأسمر كوجه أمها، لا تعي ما الذي يحصل حولها، وكيف تنتقل كحجرٍ نردٍ بين أيدي اللاعبين، ولا تعلم إلى أين ستأخذها نهاية اللعبة!

"حسنا ولكن هذا يضرّ الطفلة، ليست الأمومة بالقُدرة على حمل إنسان في بطنك تسعة أشهر، ولكنّها بالقُدرة على حمله على ظهره طوال العمر" "لن يضرها شيء، أنا لا أتخلّى عن ابنتي يا ورد، ولكنّي أنقذها من مصير مُميت، أضعها على ظهري طول العمر ولا أشتكي، ولكنّ ظهري مكسور لا محالة، تفهمي موقعي، رجاءً"

صمتت ورد قليلا وهي تفكر ثم قالت: "انتظري هنا، سأستشير يوسف وأجيبك"

ذهبت ورد للحديث مع يوسف، وحين شرحت له الحالة، سألها: "وإن هلكنا جميعا، أنا وأنت وأُمّها؟"

"تعتني بها إيمان، نكون أمّاتها عندها"

"وإن رفضت إيمان؟"

"إيمان رقيقة القلب لن ترفض، كما أنّها مقتدرة مالياً إن بقيت وظيفتها على حالها"

"ورد أنا لن أرفض حمل أمانة امرأة أرشدها الله لطرق بابي في أكثر لحظاتها ضعفاً، ولكّني لا أضمن عمري"

"يعني؟"

أطرق يوسف قليلاً ثم قال: "يعني في هذه الحالة الفعل فعل الله، توكل على الله، وافعلي ما يجب فعله كي لا نحمل ذنب امرأة طرقت بابنا فردّذناها، إنّما أراد الله لها ولنا ذلك ولعله الخبير، هذا رأيي فانظري ماذا ترين"

عادت ورد إلى الغرفة، وقالت لأُمّ خليل: "حسنًا يا أمّ خليل كما اتفقنا، نرسلها لإيمان، وليفعل الله بعدها ما يشاء، ولكن يجب أن تفهمي أنّها ستكون في أمانة إيمان، فجميعنا هنا في بوتقة المجهول"

هزت أم خليل رأسها وهي تبكي: "حسنًا"

قالت ورد: "قولي لإيمان، يا آية، هذه أمانة ورد وقد وضعتها عندك، حافظي عليها كجوري وأكثر، وربّما نلتقي هناك قريباً"

قالت أمّ خليل: "سأسجل فيديو على هاتفك يا آية"

تساءلت آية في حيرة: "فيديو ماذا؟"

"للوصاية، وسأكتب لك ورقة بخط اليد، وأعطيك جميع الأوراق التي تخص يافا" ثم أضافت بصوت متحشرج: "وسأعطيك أيضا صورة شخصية لي، كي لا تنسى يافا وجهي"

احتضنت أم خليل ابنتها يافا، شمّتها وأغرقتها بالقُبل من رأسها حتى قدميها،

وضعتها بجوار كريم قائلة: "العبي معاه حبييتي يا ماما، شوية وراجعة" انسحبت من الغرفة وانهمرت الدموع من عينيها انهماك الوابل من السماء.

.....

قبيل المساء..

أصاب السماء حول المشفى السُهاد، وتمزّق لحاف الأمان الذي يغطيها بفعل محالب طائرات الكواد كابتّر، والاستطلاع، والطائرات الحربية.

أصوات الانفجارات والطلقات النارية صمّت الآذان، السحب الدخانية ملأت المشفى، اقتحم جنود الاحتلال بصحبة كلاهم الشرسة المستشفى، انتشروا كفيضانٍ من القذى الأخضر اللّزج الذي يبتلع كلّ ما حوله.

صُبّ الرصاص فوق رؤوس النازحين مع أوامر جنود الاحتلال لهم، باللغة العربية، بالانبطاح أرضاً. انتشر الجنود في كلّ مكان كالجراد النهم، دخلوا غرف المرضى والعناية المركزة، سُمعت أصوات طلقات نارية بين الوقت

والآخر من الغرف المقتحمة، والتي كان سعيد يتمدد في إحداها ملفوف البطن، نائماً وموصولاً بالمحاليل العلاجية.

أفاق سعيد على صوتٍ غليظٍ يقول: "رَيْحُو رَيْحُو" أحسّ بالعطش، ولم يكن يعلم بأنّ قحط الماء أنجا له من قحط الرحمة، فقال بصوتٍ ضعيفٍ: "مَيّة"

انتفض إثر الماء المنسكب فوق رأسه مع ضحكات هستيرية ساخرة اخترقت أذنيه، حاول النظر فرأى رجلين بزي عسكري أخضر، كأنّهما تمساحان قبيحان، قال أحدهما للآخر بذبرة صارمة: "تهروج أوتو (اقتله)"

صدر صوت طليقة نارية صمّت الأذان، لم يسمع سعيد شيئاً، لكنّه شاهد شمساً بازغة في قلب الظلّ، عرف أنّه انتقل من العدم إلى الوجود، أخذ يعدو كمُهْرٍ بين المروج، و..ابتسم.

كانت ورد تقف برفقة يوسف تشبك أصابعها بأصابعه وتضغط على يده بقوة، تصارع القلق والخوف حين أمر الجيش بأخذ جميع الرجال من المشفى، همس لها وهو يفلت يده منها بلطف: "أحبّك، انتبهي لنفسك، لن يفرقني عن خضراويك سوى الموت، تذكرني هذا"

نظر إليها مجزّناً، وحنينٍ وشوق، ودارت هالة من التساؤلات اللاسعة حوله دون العثور على إجابة.

بأدلته ورد النظرة نفسها مودّعة، تعانق الصمت المفروض عليها، وتراقب مشاعر التيه والضياع التي سكنت بيتها الآمن دون استئذان.

افترقا، وما زال الحبّ بينهما طازجا شهيا، والشوق حلوا ملتها لا ينطفئ.

.....

كأنّهم القلم يُقلّب بين أصابع الرحمن، والذي لا يرى القبضة رؤية العين
يظنّ الفعل من حركة القلم، هكذا كان مازن ورفيقاه.

تسلّل مازن من الخلف غير هائب، بجرأة شديدة وبكلّ خفة ثبتّ العبوة
المتفجرة على ظهر الدبابة، انسحب مسرعا، حادّا، مندفعا غابس الوجه، في
حين تناثرت الشظايا من خلفه نتيجة الانفجار الحادث.

وصل إلى رفيقيه، الذين كانا ينتظرانه خلف الأحرّاش التي تبعد عدّة مترات
عن موضع العملية العسكرية.

بعد حوالي نصف ساعة وصلوا جميعا إلى بيتٍ خالٍ على أطراف مدينة بيت
لاهيا شمال قطاع غزة، قرروا دخوله للاحتماء به، والبحث عن بعض
الطعام.

تفاجؤوا عند دخوله بالأثاث المكسّر، والملابس المنثورة على الأرض،
وبالأوساخ وبقايا معلبات، وزجاجات ممتلئة بالبول ملقاة بين الأثاث.

كانت الجدران في الصالة الرئيسية مخردشة برسومات قدرة، تحمل إحياءات
جنسية وقد كُتب عليها باللغة العبرية أسماء يهودية، وجملا تحتوي شتائم
ضد الفلسطينيين وكلمات خادشة للحياة.

لفت نظر مازن دمية أطفال مقطوعة الرأس، مشبوحة فوق الباب بطريقة وحشية، وقد علّق رأسها على يد الباب في حركة تدلّ على حقد أسود، مظلم وشيطاني.

قال مازن: "لعنهم الله لقد كانوا هنا، أنجاس!" في حين تفحص باقي حجرات المنزل هو ورفيقاه بحذر شديد.

عاد مازن إلى الصالة قائلاً: "سأستخدم التواليت" وفور خروجه، وحين كان يقف أمام باب التواليت المطلّ على الصالة الرئيسية، شاهد طائرة كواد كابتّر تتسلّل إلى المنزل عبر النافذة. إنّها الجاسوس القاتل، تقف خلف رفيقيه الذين كانا يديران ظهرهما لها، وقبل أن يصدر أي حركة ويتناول سلاحه في محاولة لإطلاق النار عليها، قدّفت نيرانها صوبهما وأردتهما أرضاً.

جعل مازن ظهره ملاصقاً للحائط وتسحب عائداً إلى التواليت، انتظر عدّة دقائق قبل انصراف الطائرة التي كانت تطلق النار نحو كلّ أرجاء المنزل. خرج مازن مسرعاً بعدما تأكد من خلو المكان، تحسّس نبض رفيقيه، كان أحدهما بلا نبض أمّا الآخر فوجد نبضه ضعيفاً.

تذكر العهد الذي قطعوه معاً بأن يكون عملهم الجهادي خالصاً نقياً وصادقاً: "نحن نجاهد لأجل الدين والوطن، نفعل ما يرضي الله، وقد ندّرنا أنفسنا لهذا بهدف ردع العدو، بعيداً عن أي ذبابٍ سياسي منتشر بيننا

الآن، نحن أولاد أمهاتنا فقط، وأبناء وطننا، ولسنا حصادا لمزروعات المصلحة السياسية".

كانوا كالرمل الذي يفور منه الماء حين اتصل بالحق وانفصل عن نفسه، وما أقل الرمال التي ينبع منها الماء، وما أشد تأثير الحق حين يجري كالماء بين الأمم.

انطلق مازن كالأسد الهصور مسرعا غير آبه لشيء سوى انقاذ رفيقيه، خرج راكضا في الشارع باحثا عن أي مساعدة، لا يمكنه تشغيل هاتفه المحمول، إذ سيتم التقاط إشارته فورا وقصفه. الشوارع خالية، والمباني مدمرة تماما، كان يركض فوق الحطام والرمل، متمتما: "يا الله مدينة أشباح هذه، ماذا أفعل؟"

وجد منزلا ما زال قائما لم يتحطم، ركض نحوه ملتمسا أي كائن بشري على قيد الحياة، وما إن وصل مدخل المنزل شم رائحة جيئة، كان الباب مفتوحا، دخل ثم تراجع خطوات إلى الوراء، وهو ينظر مذهولا لثلاث جثث تأكلها الكلاب، تدارك نفسه واستخدم سلاحه لطردهم.

فكر في نفسه: "لا بد من دفنهم، ولكن ماذا عن أصدقائه؟ هل سيقدر على اللحاق بهم قبل فوات الأوان وإنقاذهم؟" أدار ظهره للخروج مقررا الحصول على مساعدة كأول خطوة، فوجئ بالجنود الصهاينة على بعد أمتار قليلة منه، أطلق رصاصاته فانتعبت الأعيرة من أسلحتهم لتسقطه أرضا وسط مستنقع من الدماء.

سمع صوتًا يتكلم بالعبرية التي يفهمها: "ما زال على قيد الحياة، حافظوا عليه، نريده حيا"

.....

2028/12/26

فَرَدَتْ ورد يديها جانبًا، وقفت على قدمها أمام الشاطئ، أغمضت عينيها واستمعت لهدير الأمواج.

شعرت بأنّ صوت الموج يخفق بما تعزفه ذاكرتها من حنين، يتغلغل داخل قلبها كنغمةٍ تُنعش فيها لحظات جميلة.

داعبت النسمات الباردة وجنتيها فأحسّت بالانتعاش، استنشقت نفسًا عميقًا واستسلمت لأنامل الشمس وهي تحطّ الدفء على جسمها، وخضعت لعذوبة الماء البارد وهو يسحب تعب روحها الملهته من قدمها الحافية.

غمرتها السعادة لأول مرة منذ خمس سنوات، فابتسمت، كان قلبها يُغرّد كطيور الصباح المنطلقة، أخرجت أفكارها من أسر العقل، لتعود بها إلى ماضٍ دافئٍ ساحرٍ، ملامحه البحر والغروب والحبّ.

كانت إيمان تجلس على مقعد أمام الشاطئ، تتأمل أختها فرحة بالتحسن الطفيف الذي طرأ عليها، أحضرتها إلى مدينة الإسكندرية تنفيذًا لوصية الدكتورة رشا حين قالت لها: "إيمان، هناك تحسن واضح على حالة أختك، فقد بدأت تعطي ردّات فعل وتستجيب، كما أنّها تفرغ ما يخالجها عن

طريق الكتابة، أريدك أن تضعيها في ظروفٍ تحبّها، بمعنى أن تتذكري ما أكثر الأشياء التي تحبّها ورد وتجعلها تعيشها، ثم دعيها تكتب، أريد أن أقرأ كتابتها، طبعاً كلّ هذا مع الالتزام بالدواء"

خصّصت إيمان بعضاً من الوقت لتحصي أشياء أختها المحبّة، كتبت على الورقة أهم الأمور التي تحبّها ورد والتي ستنفذها لها تباعاً: (الاستيقاظ فجرًا - البحر - التأمل في الغروب - الأشجار والزهور والاعتناء بها - الكتب - الموسيقى الهادئة - ورق العنب - منتجات العناية بالبشرة - الفساتين..)

أفاقت إيمان من تأملها على صوت يافا تناديها: "ماما، سنذهب للعب أنا وجوري على الأرجوحة"
"أي أرجوحة؟"

أشارت يافا ببنائها جهة اليسار، فرأت إيمان أرجوحة بسيطة لطيفة من الخشب

"حسناً، عند الأرجوحة، لا تبتعدا"

هتفت الطفلتان: "حاضر"، وركضتا بمرح نظرت إيمان إلى أختها فرأتها تتناول عكازيها من الأرض، وتتحرك نحو المقعد، وجلست بجوار إيمان
سألتها إيمان: "ألن ترتدي حذاءك؟"
"كلاً، ملامسة رمل البحر تريخني"

"أتريدين الكتابة؟"

"أجل"

ناولتها إيمان دفترًا وقلما قائلة: "سأذهب للاهتمام بالفتيات يا ورد، انظري تلك الأرجوحة هناك".

أطالت ورد النظر إلى الأرجوحة، ثم هزّت رأسها بالموافقة، فأردفت إيمان: "اكتبي أنت، وحين تنتهين ناديني، سندهب إلى الشاليه، فقد جهزتُ لك العديد من المفاجآت التي ستحبينها"

ابتسمت ورد، وبدأت بالكتابة بعد أن غادرتها إيمان:

"العمر كهذا الموج، يصل تباعا ويبيدي استمراره على شاطئ الجسد، وما زال عمري يتتابع في وصوله إلى جسدي، ولم أمت كما تمنيت!
تمنيت الموت كثيرا حتى أتحلّص من هذا العذاب الذي يغمرني، ولولا دينٌ ما زلتُ عليه، لقتلتُ نفسي!

لكّني اليوم شعرت بشعور غريب لذيذ ينتابني منذ مأساتي الكبرى، وكأنّ في كلّ نفسٍ لي تتجدّد الحياة داخلي، وأنا غافلة عن هذا التجدد.

أنا ممتنة حقًا لك يا دكتورة رشا لجعلي أزور أكثر مكان أحبه.. البحر.
البحر يمنحني شعورًا بالاتساع، بالنقاء والراحة، وفي نفس الوقت بالعمق المظلم الغامض.

نحن لا نرى الظلمات في أعماقه، وما يعكسه البحر لنا على السطح هو آية في الجمال، وهذا يعني، لتصلح نفسك، أصلح عمقها المختفي عن أعين

البشر، والواضح الظاهر أمام عينك أنت، لا تُخرج ظلمات نفسك أو تتفاعل معها، بل اتركها حتى تضمحل وتتلاشى بنور الطهر.
لطالما حاولتُ أن أكون مثل هذا البحر، ألا يكون العاشق كمعشوقه؟
أرمني ظلماتي في قعر الروح والذاكرة، ولا أبقى إلا على النور، فيغلب النور
الظلام المظمور في العمق، ليظهر مني الجمال والجمال فقط.
هذا البحر كذلك الذي كنتُ أعشق في مدينتي، وهذه المدينة شقيقة غزني
الجميلة، ولكنها شقيقتها الكبرى التي تكبرها بأعوام من المساحة
والتنوع والسحر.

أحببتُ الإسكندرية، وأعادني إلى مكان جميل وُلدت فيه أحلامي، ثم ماتت
قبل أن تكبر. ركبْتُ معها ظهر الحنين نحو طفولتي، وصباي، وشبابي، نحو
جميع مراحل العمرية بذكرياتها المختلفة، والتي تزينت جميعها بطيف
يوسف!

ماذا كان يعني لي طيفه في تلك الفترة؟
طيفه كان النشوة التي أنطق بها، والسرّ الذي يُحيل قلبي إلى بساتين حُبلى
بالبراعم والمرح، وربيعاً مزهراً لطيفاً يتزين بالنجوم، أتنقل بين مراتعه
كفراشةٍ تنهل الرحيق فلا تشبع إلا حين تحطّ على قلبه.
وقد فتح عليّ البحر بعضاً من ذاكرة طيفه الجميلة التي أود إخبارك بها يا
دكتورة ..

ذات مساء، كنّا نجلس على الرمال أمام الشاطئ، نستمع لموسيقى الرحباني الهادئة، ونأكل الذرة المشوية، وقد حلّ الغروب وتلوّنت السماء بأشعة الشمس المودّعة، همس لي: "أراك في الغروب"

"هل تراني مودّعة؟"

"بل أراك في كلّ شيء جميل، في صدايح طائر يستثير روجي نحو التحليق، في نسمة رقيقة تداعب النور داخلي، في صفحة ماء تعكس صورتي المشرقة، أراك داخل كلّ زهرة تفوح بالأريج، أرى جمال العالم كلّه يرتسم فوق ملامح وجهك يا ورد"

ثمّ نظر داخل عينيّ وأردف: "العشق نبعٌ فانغمر، كلّ قطرة تنفصل، عمرٌ مستجد"

"الله.. هل هذا كلامك؟"

"طبعاً لا.. كلام جلال الدين الرومي"

عدّلت له كوفيته التي ابتعد طرفها عن كتفه من أثر الريح، شعرتُ وقتها بمدى حظّ هذه الكوفية التي تركز على أكتافه، فأحببتُ حظي معه، وأمسكتُ بمعصمه القوي الذي أحبّ، وضعتّه على ركبتيّ المثنيتين للأعلى وجعلتُ أداعب شامته، شعرتُ بنبضات قلبه المتسارعة وغرقتُ في عمقه الآمن، غير آبهة لوجود قارب ينجيني.

كان يوسف قريباً منّي جداً كنبض الوريد، ثمّ أصبح غريباً مؤلماً ككومة ملح انطلقت من طرف الجبل لتستقر فوق قلبي المجروح.

أنا أعرف يا دكتورة أنكِ تودين الوصول إلى قلبي المجرّوح، ومعرفة سبب هذا الشرخ الهائل في الروح، وكيف تحوّل هذا الرجل من بلسم شافٍ إلى سمّ قاتل.

ولكنّي لا أستطيع إخبارك، لأنّ ما حدث كان فاصلا مربعا مميتا بين الذكرى الجميلة والحاضر، وكأنيّ كنت في عالم مزهر جميل، ثمّ غرقت فجأة وسط طوفان مربع، لأتحوّل إلى ناجية على متن السفينة التي استوت على الجوديّ!

كيف تحولت من غريقة معذبة إلى ناجية؟ لا أعلم هل أنا ناجية حقا أم ضحية مسكينة مثيرة للشفقة؟ هل أنا مذنبه مظلمة أم طاهرة بريئة؟ فنشأت ورد جديدة تماما، مختلفة عني شكلا وروحا، ومتى استطعت إخبارك، ومتى تذكرت ذلك الكابوس المنسي فاعلمي أنّي قد تماثلت للشفاء، وأنكِ قد نجحت في علاجي.

رفعت ورد رأسها عن الدفتر، وتأمّلت الطفلتين، جوري ويافا، وهما تلعبان على الأرجوحة بصحبة إيمان، وترنّ ضحكاتهما في الفراغ الساكن، ثمّ عادت الكتابة:

"الأرجوحة هي نقطة البداية في قصتي، وأشعر أنّها ستكون محطة النهاية، أتعلمين لماذا؟ لأنّ الأرجوحة مهما علت وسقطت واهتزّت وابتعدت، فإنّها تعود إلى نفس المكان الذي رُبطت فيه، وإذا قطعت حبالها التي تربطها

بموطنها تنتهي قصتها، وأنا حبالى لم تُقطع بعد، فهل أعود إلى مكان ربطتني به حبال الودّ والمحبة؟! سنرى"
 شعرت ورد بأنّ الأرض تدور بها، وأحسّت بأصوات صاخبة مزعجة تخرق أذنيها، وضعت يديها على رأسها إثر صدايح شديد انتابها، أغمضت عينيها وأخذت نفسا عميقا، ثمّ كتبت بيد راجفة، وخط مخربش غير متزن: "
 تظهر لي الآن أطيايف صورٍ لحفرة كبيرة كنتُ فيها، ونيران مشتعلة، وأشعر بأنّ وحوشا كاسرة تجثم فوق جسدي، وقد عاد ذلك الذئب داخلي يعوي من جديد!"

.....

في الطرف المقابل لبحر الإسكندرية، وعلى مسافة قريبة من 3300 كم، سكبت الشمس دموعها وهي مودّعة على مياه بحر إيج، مؤازرة لدموع شابٍ عاشق تائه، يحاول أن يعلم سرّ ذبول وردته التي أحب، وكيف تحوّل هو إلى وحشٍ كاسرٍ فسحقها. كان يقف على كورنيش سالونيك، في حين تجثو روحه وهي تتنّ صارخة على أمواج البحر. يُفكر، وقد شقّ الدموع على شرفات الأعين: "أنا المأسور في شعرك المنسدل، وثغرك المبتسم، لم أُهزم أمام أعنى الحروب يا ورد، ولكنّي هزمتُ أمام عينيك، أمامكِ أنتِ فقط يا طفلة الروح التي لم تكبر أبدا داخلي.. هُزمت.
 قريبا.. سأكتشف السرّ وأعيدكِ إليّ يا ورد"

-8-

"ربي المخ هو اللحية"

مرّت إيمان برفقة يامن وجوري وبافا بجوار هذه العبارة المكتوبة بالخط الأسود على حائط في شارعٍ فرعي يؤدي إلى منطقة الكراج الشرقي في رفح. بعد صراع شديد مع وسائل النقل والزحام، وصلوا جميعاً إلى أقرب نقطة قريبة من دوار النجمة بهدف التسوق، جاؤوا من المواصي إلى رفح على متن مركبة نقل تُستخدم لنقل المواشي، تكدّسوا جميعاً برفقة أعداد كبيرة من الركاب في الصندوق الخلفي للمركبة، كان الهواء البارد يصفعهم بين الفينة والأخرى في هذا الصندوق المفتوح من كآفة جوانبه، فيترك آثار كدماته بلون أحمر لاسع، قال يامن ساخراً وممازحاً جوري: "خالو.. كيف شعورك وأنت في سيارة العجول؟ صرنا عجول يا خالو، بس ضحوا بينا بدري، قبل العيد"

قالت إيمان: "لا إله إلا الله.. اصمت يا يامن" تعطلت السيارة في نصف الطريق، ونزل السائق شاتماً الحرب والبلد والحكومة وحماس وإسرائيل، وزجاجة زيت الطهو التي خلطها ببعض السولار ليستطيع تحريك سيارته.

نزلوا من السيارة وقد وضعت إيمان الجزء المتدلي من غطاء رأسها على أنفها وفمها، محاولة حماية رثتيها من خليط الروائح المنتشر، رائحة زيت الطهو المحترق من السيارات، ممزوجة برائحة الصرف الصحي، ودخان النيران المستخدمة لطهو الطعام، ورائحة القصف والبارود والغبار.

بعد انتظار نصف ساعة استطاع أربعتهم الحصول على عربة يجريها حماراً بأئس عجوزاً، كان سائق العربة يضربه بين الحين والآخر كي يمشي، وحين وصلوا صالة الهيلتون للأفراح في رفح، قال سائق العربة: "سأنزلكم هنا بعيداً عن الزحام، أول شارع عاليين يوصلكم إلى الكراج الشرقي، ومنه إلى دوار النجمة"

اختلف يامن مع السائق على السعر، فقد طلب مبلغاً باهظاً بالنسبة للمسافة المقطوعة على حمارٍ ضعيف، قال يامن: "صار للشرشوحة مرجوحة ولأبو بريص قبقاب"

ردّ السائق بغضب: "تقصدي؟! إيش مالك إنت؟"

قال يامن باستهزاء: "لا .. بل أقصد حمارك العجوز التعيس"

ردّ سائق العربة بتهكم: "الله يسامحك.. هذا فرس أصيل!"

"الله يسامح حمارك على استغلاله للناس"

ردّ بذات التهكم: "يحقّ له"

شدّت إيمان يامنا من ذراعه قائلة له بصوتٍ خفيضٍ، وهي تضغط على أسنانها: "كفى"

وذهبوا، عبروا أول شارع فرعي من جهة اليمين إلى منطقة الكراج الشرقي، وتوجهوا نحو سوق النجمة.

قال يامن لأخته وهو يمسك بيد يافا، وبعد أن قرأ العبارة: "ربي المخ مو اللحية، صدق كاتبها"

فردّت إيمان عليه وهي تطبق على يد جوري وسط الزحام: "دعنا في همّ السوق الآن، الأسعار مرتفعة والبضاعة شحيحة، ودير بالك لتضيع منك يافا"

"أليس هذا كلّ تأثير المخ الذي لم يُربّ نفسه؟"

"أفّ منك يا يامن"

جاءت إيمان برفقة يامن والطفلتين إلى السوق على مضض، فهي وإن كانت تسير بهدف التسوق وشراء الملابس الشتوية، إن وُجدت، فإنّها تحمل أختها على كتفها وفي جُلّ عقلها، تفكر بها وبجأها، قلقه خائفة على من تمثّل عائلتها المتبقية لها.

مضى أسبوعان على اقتحام مستشفى القدس، ولم يصل أي خبر بعد عنها أو عن يوسف، اتصلت بها آية وجاءتها بأمانةٍ ثقيلةٍ يصعب حملها، وضعتها أمام خيمتها المهترئة، التي أقامتها على أرض مواصي رفع قائلة: "هذه يافا، أمانة ورد لك!" شرحت لها الوضع وتمنّت أن تصل ورد قريباً، وأخبرتها أنّها تعرضت للتفتيش ثمّ أطلقوا سراحها نحو الجنوب، قالت بأنّها لم تر ورد

وسط ذلك الوضع المخيف، ولا تعرف شيئاً عن حالها، ولكنها شاهدت أم يافا تُعَدِّم رَمِيّاً بالرصاص.

قضت يافا أول أيامها تبكي وتبحث عن أمها، ثم ما لبثت أن تأقلمت مع الوضع، وبدأت تعتاد على عائلتها الجديدة، استطاع يامن كسب قلب الطفلة بلعبه المستمر معها وإضحاكها وممازحتها، فأظهر جانبا حنوناً حسناً من شخصيته التي توارت خلف غضبه الدائم.

طلبت آية من إيمان المساعدة في توفير خيمة لها ولعائلاتها. قالت إيمان يومها لآية: "اشتريت النايلون والخشب، وقام يامن برفقة بعض الشباب ببنائها."

"ولكن تعرفين يا إيمان أنّ أسعار النايلون والخشب باهظة جداً الآن، وزوجي فقد عمله ولم يتبقَّ معنا ولا نكلة، ألا توجد مؤسسة تعرفينها تقدّم المساعدة؟"

كانت إيمان تعرف أنّها لو لم تساعد آية فستبقى هي وزوجها وابنها في الشارع، فساهمت برفقة صديقة لها تعمل معها في مدارس الأونروا بشراء حاجيات الخيمة اللازمة، وقام يامن بمساعدة عمر زوج آية بدقّ الخشب وتثبيت النايلون عليه.

توقفت إيمان عند أحد محلات بيع الملابس سائلة عن ملابس تقي الطفلتين برد الشتاء، قال لها البائع: "شطبنا، لم يتبقَّ عندي شيء، اسمعي يختي، اذهبي إلى سوق الملابس المستخدمة في الشارع الخلفي ستجدين

هناك مبتغاك، إن لحقت قبل نفاد الكمية، ولكن ديري بالك الأسعار مرتفعة أيضا"

ولم تجد إيمان طلبها، عادت أدراجها هي ويامن والطفلتان، كان الناس يتجولون في السوق بصدورٍ حزينة متفحّلة، وذاكرةٍ مخنوقة، وقلوب متصدعة ومعنويات مهشّمة، يدورون في دوائر الهوان جرّاء وعشاء الحرب من الصواريخ القاتلة والجوع والتشرد والفقر.

الشوارع مختنقة بدخان نيران المطاعم المستخدم في الطهو، يطهون ما توفر من مواد غذائية، فلافل يتكون من الحمص فقط بلا إضافاتٍ أخرى فالخضار غير موجود، وشطائر اللحوم تحوّلت إلى شطائر من المرتديلا والمعلبات، أمّا القدرة الفلسطينية فكانت تُباع كأرزٍ مطهو بالماء والماجي، وكانت بضائع المساعدات تترّص على الأرصفة وفي الطرقات للبيع، الأسعار مرتفعة جدا، والقليل فقط من يستطيع الشراء.

أرادت إيمان شراء لتر من الحليب من بائع وضع عربته على قارعة الطريق، "كم سعره؟" سألته

"عشرة شواقل" أجاب

"كثير عشرة، سأعطيك ثمانية"

فتدخل أحد الرجال الواقفين قائلا: "سأخذ أنا أيضا بثمانية، ما رأيك؟"

ابتسم البائع ابتسامة واسعة مناسبة لحجم فمه الكبير، أظهرت أسنانا بيضاء كبيرة جدا، وبدت عيناه كخطين صغيرين مرسومين على جانبي وجهه، قائلا: "نوبريم"

فقال له الرجل بتعجب: "تقصد **No problem** أي لا مانع!"
 اتسعت ابتسامة البائع وقرب وجهه الأسمر الضئيل من الرجل أكثر، هازًا رأسه ورافعًا حاجبيه بطريقة مضحكة، وقال: "نوبريم يعني مستحيل"
 ابتسم الرجل بخفة وقال: "لا عاد، **No problem** يعني لا مانع، مشيها خلص"

"حاضر" قال البائع وهو يهزّ رأسه بحركة تهريجية، فتحرك شعره الناعم الخفيف المتناثر على وجهه ليبدو كشمرة ذرة راقصة، ممّا أثار الضحك في من حوله حتى قال الرجل له: "روح الله يسعدك، أوّل مرة أضحك من شهرين"

تناولت إيمان منه الحليب وهي تنظر إلى يامن وبيتسمان، رنّ هاتفها، اتسعت عيناها من الدهشة والسعادة معًا: "إنّهُ يوسف"
 ردّت على الهاتف وانطلقت هي ويامن باحثة عن أقرب وسيلة نقل تقلّهم نحو مواصي رفح.

.....

"اعتقلوا جميع الرجال وتركوا النساء وحدهنّ في المشفى، لا أعلم شيئاً عن ورد" قال يوسف لإيمان ويامن الجالسين حوله، وقد اخضلت عيناه بالغمام واختمر الحزن داخل قلبه.

حافظت إيمان على صمتها ونظرت نحوه بوجهٍ باكٍ، أمّا يامن فقد قال: "أخبرنا من البداية كي نفهم"

أخذ يوسف نفساً طويلاً وعميقاً وأخرج زفرات حارة ثم قال: "آخر لقائي بورد كان حين دخل الجيش المشفى، ثم فصلوا الرجال عن النساء. بدايةً.. تمّ إخراج الرجال إلى الخارج، وضعونا في حفرةٍ كبيرة كانوا قد جهزوها مسبقاً، وأجبرونا على نزع ملابسنا بالقوة"

"في العراء؟" سأل يامن

قال يوسف بشيءٍ من العصبية: "في العراء، طبعاً لم يخصّصوا غرفاً لخلع الملابس يا يامن!"، ثمّ أكمل

"كانوا يفحصوننا بكاميرات تقرأ بصمة العين وعلى أساس الفحص يقررون "يقررون ماذا؟" سأل يامن من جديد

"إعدام، اعتقال أو إفراج"

"ثمّ؟"

اختنق صوت يوسف وقال: "ثمّ .. أعدموا العشرات، واعتقلوا المئات، وأطلقوا سراح القليل"

سأل يامن: "ومن يطلقون سراحه أين يذهب؟"

ردّت إيمان: "نحو الجنوب، يضطر للمشي عارٍ بلا ملابس كلّ هذه المسافة، ويعبُر الحواجز تحت وطأة الرصاص حتى يصل الجنوب، هكذا قالت لي آية"
"وأنت؟ أقصد أنت والمعتقلون؟" سأل يامن
"ألبسونا رداءً خفيفاً أبيض اللون يشبه رداء العمليات، قيّدوا أيدينا نحو الخلف، وأغمضوا أعيننا، وأركبونا سيارات لتنقلنا"
"بعدها؟"

"وجدت نفسي داخل قفصٍ مع ستة أشخاص، في منطقة على الحدود
مخصّصة للمعتقلين"

"قفص!" قال يامن بتعجّب وقد ارتفع صوته قليلاً
ردّ يوسف بصوت هادئ: "أجل كأقفاص الحيوانات الكبيرة، كنّا في مكانٍ
واسعٍ ممتلئٍ بالبراكسات العسكرية والأضواء"
"والطعام؟"

"مقرف رديءٍ وقليلٍ شحيح"
"والحمّام والنظافة؟"
"من يريد الحمّام يذهب برفقة الجنود لقضاء حاجته في الخلاء، والنظافة
معدومة. كانوا يقيمون كلّ ليلة حفلات راقصة، يرقصون ويغنون،
ويسخرون منّا ويشتموننا بأبشع الألفاظ، أنجاس أخساء، الله يحرقهم"
"هل تعرضت للضرب؟"

"ضرب وتعذيب يومي للجميع، وشتائم وألفاظ خارجة، ثم أطلقوا سراجي، لا أعلم كيف أطلقوا سراجي مع أن أخي من المجاهدين، لكنهم أطلقوني، أعادوا لنا ملابسنا وهواتفنا ونصف ما كنا نحمل من مال، وهناك آخرون لم يعيدوا لهم شيئاً من مقتنياتهم"

قالت إيمان بفرع: "إنّ ما قلته يا يوسف مخيف، أخشى على ورد"
 "هذا أكثر ما يقهرني يا إيمان، ورد لا ترضخ لتعليماتهم وهذا ما يخيفني بالأكثر، فهم مجرمون همج، سيحاولون كسر التحدي الطافح من عينيها، وأنا ممتلئ بالعجز، ولا أستطيع فعل أي شيء، العجز يقتلني، يفتتني"
 ردّت إيمان بصوتٍ مرتجف: "لا تقلها يا يوسف، أرجوك، ستخرج ورد قريباً
 إن شاء الله"
 "إن شاء الله"

سكت قليلاً وحدّق في الفراغ بعينين واجمتين ثم قال: "كان هناك حفرة أخرى بجوار التي وضعونا فيها، أعتقد أنّها كانت للنساء، حاولت أن أسمع شيئاً أو أرى، فلم أستطع، أصوات الطائرات والآليات العسكرية والأعيرة النارية غطّت على أي صوت آخر، كما أنّ الظلام كان حاجزاً يصعب على العين اختراقه في هذه الأوضاع"

غمر الخوف وجه إيمان ثم قالت: "إن شاء الله خير، الله خير حافظ"
 "هل وصلت أم يافا؟" سأل يوسف
 "كلا.. قالت آية أنّها أعدمت"

"لا حول ولا قوة إلا بالله، الله يرحمها"

"وآية وزوجها، ما أخبارهم؟"

"الخيمة المجاورة لنا خيمة آية"

"جيد، ألم تخبرك شيئاً عن ورد؟"

تنهدت إيمان وقالت: "قالت إنها لم ترها ولا تعلم عنها شيئاً"

"هل وردتكم أخبار عن جدّي؟"

"للأسف.. لا"

تنهد يوسف وقال: "اتصلتُ بعمتي فاطمة كي أبلغها أنني خرجتُ وبخير فلم

تُحِب، هل تعرفين أخبارها يا إيمان؟"

"أجل، هي بخير، كَلَمْتَنِي قبل يومين سائلة عن أخبارك أنتَ وورد، هي تقيم

في مدرسة في دير البلح"

"جيد، سوف أكلّمها غداً إن شاء الله، ربّما يكون الاتصال أفضل"

وقف يوسف وهو يزفر زفرات طويلة حارة ثم قال: "سأذهب الآن"

"إلى أين؟"

"صديقي أحمد يملك خيمة هنا، ينام فيها وحده؛ إنّه المتبقي الوحيد من

العائلة"

قالت إيمان بحالة من الدهول: "فقط هو من العائلة كلّها؟"

"أجل.. لم يتبق من عائلتهم غيره، لا أم ولا أب ولا أخوة ولا أعمام أو
أخوال، لا أحد"
"لا حول ولا قوة إلا بالله"

.....

ليلا..

تمدد يوسف على قطعة من النايلون في الخيمة، بعدما ارتشف رشفة من
كوب الشاي الذي أعدّه له صديقه أحمد على التار من دون سكر، سأل: "ألا
يوجد سكر؟"

"مقطوع، وإنّ وُجد فإن الكيلو بستين شيقلا، أتعرف كم دولارا تساوي
الستون شيقلا؟"

ردّ يوسف دون اهتمام: "حوالي سبعة عشر دولارا"

ثمّ أردف بعد ثوانٍ من الصمت: "هل لديك يا أحمد سماعات أذن؟"

"أجل، ولكن لماذا؟ تريد الاستماع إلى الأخبار، لا تستمع، الأمور كما هي،
موت وهمّ وغمّ، وقر البطارية فمكان الشحن بعيد من هنا"

"وأيّن تشحن هاتفك؟"

"يوجد شخص يشحن الهواتف عن طريق الطاقة الشمسية، ب 2 شيقل،

ولكن يحتاج حوالي ربع ساعة من المشي"

"أذهب مشيا؟"

"أجل، لا أُشغل سيارتي، أوفر السولار لأمرٍ طارئ، فلا وجود له الآن"
"لا بأس، ناولني سماعتك إن أمكن"

"مُصر يعني؟"

"أريد أن أنام، هيا"

"لا أعلم ما دخل النوم بسماعة الأذن، ولكن لن أجادلك، تفضل" وأعطاه
سماعة أذن سوداء اللون

وضع يوسف سماعات الأذن، وشغل تسجيلًا صوتيًا لورد كانت قد أرسلته له
عبر تطبيق الواتس آب، كلما انتهى أعاد تشغيله، وكأنَّ صوتها عبارة عن
نغمة منبسطة امتدت في الميدان الروحي الفسيح لتعزف له تهويده النوم،
أناخ جسده ناحية اليمين، وشعر بأنَّه جيفة تستعيد الحياة، وغفا.

في الجانب الآخر من المخيم، ظلَّ يامن جالسًا لا يستطيع النوم، اختلطت
الأصوات من حوله لتشكّل له أوركسترا الأرق المزعج، أزيز طائرات
الاستطلاع، وضجيج الطائرات الحربية، صوت مدفعية الزوارق، شخير
النائمين في خيامهم، إراحة المِعدات المتعبة لنفسها، سعال المرضى وأنيهم،
بكاء الأطفال وحديث آبائهم وأمهاتهم لتهدئتهم وهددهتهم، جدالات
المتزوجين، حوارات ونقاشات وأصوات أخرى تنتج عن حالة كلّ خيمة.

استيقظت إيمان من نومها إثر سعالٍ شديدٍ انتابها، ناولها يامن زجاجة
صغيرة من الماء، قائلاً: "يبدو أن دخنة النيران تؤثر على صدرك، قلتُ لك لا
تشعلي نارا، نتدبر أمرنا"

قالت بصوتٍ متحشرج: "وهل يوجد ما نتدبر به أمرنا، أزمة طحين، أزمة سكر، أزمة ملح، أشعل النار لضرورة البقاء، لإعداد بعض من المكرونة الساخنة لتمنح الطفلتين شيئاً من القوة"

تناول يامن زجاجة الماء من يدها، هذه آخر واحدة متبقية، سأذهب غدا صباحاً لتعبئة الماء الصالح للشرب، إن وجدت، أنا خائف حقاً فالكبد الوبائي منتشر"

"الله الحافظ، غداً إذا وجدت بعض الملح، اشترى لنا"

"مقطوع، ألم نبحث في السوق اليوم؟"

"ابحث غدا أيضاً، منذ أسبوع وأنا أطلب الملح من الجارات في المخيم، أوصلونا لمرحلة نتسوّل فيها الملح، حسبنا الله ونعم الوكيل، أريد الخروج إلى الحمّام، هل توصلني؟"

"بالطبع، والطفلتان؟!"

"ابقَ عند الطفلتين إذن، سأذهب لوحدي"

"ألا تستطيعين الانتظار حتى الصباح؟"

"لا عليك، سأذهب لوحدي"

خرجت إيمان تراحم الظلمة بحثاً عن نور، كانت ليلة بلا قمر ولا نجوم، صوت القصف والطائرات مرعب، ولسعات البرد تخترق ملابسها الخفيفة كأنّها صعقات كهربائية تُرجِف جسدها، لكنّها حمدت الله على وجود حمّام

يسترهم، اجتمعت هي وخمس عائلات نازحة أخرى على إنشائه بأبسط
المعدات، فتحت قفل الباب المصنوع من الصفيح، ودخلت.
حين عودتها سمعت صوت ضرب وصراخ مكتوم خارج من خيمة آية
المجاورة لخيمتهم، توقفت هنيئة ثم أكملت مسيرها ودخلت خيمتها.
رأت يامن يهزّ قدمه متوترا يندفع الشرر من عينيه، قالت: "ما بك؟"
"ألا تسمعين؟ كلّ ليلة يضربها، رجل من قلة الرجال، أساسا سيماهم في
وجوههم"

"وما أدراك أنه يضربها كلّ ليلة؟"

"أسمعه، فأنا غالبا لا أستطيع النوم"

ردّت إيمان بحزم: "لا دخل لنا بهما يا يامن"

"جبانة"

"من؟"

قال يامن بغضب: "أنت، امرأة جبانة"

أجابت إيمان بهدوء: "اعتبرني جبانة، ونم"

"لو أنّ ورد هنا لقاتل لك إنّ: (أسد الباطن لا يُسخر لأرنب)"

أخرجت إيمان أفّ طويلة وقالت: "لا إله إلا الله، ماذا تريد من الآخر؟"

"داخلي أسد لا يخاف أمثاله، يجب أن أوقفه عند حدّه"

قالت إيمان بحزم: "الأسد الحقيقي هو من يهزم نفسه يا يامن.. لا تتدخل"

"لا أصدق كيف ترين امرأة مثلك تتعرض للإهانة ولا تُحرّكين ساكنا"

"يامن، أنت عصبي وتسري داخلك حمية الشباب ولا تعرف كيف تحلّ الأمور، أنا سأحادثها غدا وأرى، الوقت متأخر والناس يلتمون على أقلّ ضجة، ستحدث هنا فضيحة لا تتمناها آية"

دخل يامن إلى فراشه وهو يشتعل غضبا، حاول النوم ولو قليلا فلم يتبقّ إلى بزوغ الفجر سوى سويّات قليلة، توجهت إيمان نحو الطفلتين تتفحصهما من حشراتٍ عابرةٍ فوق أجسادهما الغضة، وتعيد أيديهما وأرجلهما الهاربة من الفراش إلى موضعها لتخبئها تحت أغطية تقيهما بعض البرد، نفخت داخل يديها الثلجيتين ثمّ التحفت أغطيتها واستسلمت للنوم وهي تردّد: "اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلامُ وَمَنْكَ السَّلامُ تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ"

كان المكان مكتظّا بالخيم التي أقيمت فوق رمالٍ تسكنها الحشرات والأمراض، وتغزوها الفئران ليلاً، ينخر البرد قماشها المهترئ، وتخرق الأمطار بنيانها الهش.

لا أمان فيها، وإنّما ادعاءات كاذبة بوجوده، فالخيمة التي لا تستطيع الوقاية من قطرة ماء، أو من حشرة تلوّث فُتات الطعام، كيف ستقي خطر صاروخٍ زال، أو قنبلة انفجرت على مقربةٍ منها، أو حتى حجارة ساقطة من مكانٍ مجهول، أو ربّما صاروخٌ موجهٌ نحوها يحوّل كلّ من فيها إلى بخارٍ لا يُرى.

صباح اليوم التالي استيقظت إيمان على صراخ يافا، كانت هناك خنفساء كبيرة سوداء اللون تقف على يدها، فخافت الصغيرة وبكت، قالت إيمان

مهذّئة: "لا شيء، مجرد خنفساء، لا تخافي، قريبا ستصبحان صديقتين مقربتين كما حصل مع جوري حين صادقت الجعران!"

تذكرت إيمان منزلها الدافئ، وكيف كانت تجبر أولادها على التزام غرفهم إلى أن تنتهي من تلميع بلاط المنزل وتحفيفه، وكيف كانت تتأزم من ذرات الغبار حين تسهو عن نفضها، وحين كانوا يعودون من رحلة ترفيهيّة على شاطئ البحر لا تعرف النوم قبل أن تنظف الصغار وتعطّروهم وتطعمهم. الآن تنام فوق الرمال والأوساخ، الحشرات تستبيح جسدها هي والطفلتين الصغيرتين، والغبار يُغلق مجرى التنفس في أنفها.

هم الآن في رحلة طويلة، لكنّها رحلة تعذيبية لا ترفيهية، لا مياه متوفرة للاستحمام ولا مكان خاص له، دخان النار يهلك الرئتين، والجوع يفتك بالأجساد المنهكة، الوجوه شحبت واصفرت وتشققت، والخوف والبرد وحشان مفترسان يصعب الفتك بهما، شعرت إيمان بأنّها تحدّق في بحر المطلق المتألم، تنهار، تنجرف مع سيل المصائب والأحزان لا تعلم أين المستقر.

تحمل همّ ابنتها جوري ويافا وأخيها يامن المراهق الشرس، وتتجرّع مرّ الألم على أختها التي لا تعرف مصيرها، ويختنق قلبها بجمال من الشوق والحنين لأحبابها الراحلين عنها.

تتذكر بين الحين والآخر مشهد النيران المشتعلة وهي تلتهم أجساد أغلى الناس عليها، فتشعر بذات السكين مكسورة الأسنان تنزع قلبها من

مكانه، لكنّها لا تستطيع الانهيار، تخلّت عن حقها في السقوط وعيش الألم لأجل القلوب التي تتركز على قوتها المتبقية.

تحاول تقوية نفسها بالذكرى الجميلة، فتشم رائحة الخبز المحمص الذي اعتاد والداها إعداده على الكانون في ليالي الشتاء الباردة، تسمع صوت يكرها حسام يتردد داخل عقلها، وتشعر بأنامل ابنتها الوسطى حين كانت تداعب وجهها عندما تحاول النوم، وتتذوق طعم الحساء الساخن الذي كان يحضره لها زوجها ويطعمها إياه بيديه عند مرضها.

تمت إيمان: "يا الله كم أتمنى وجودك بجانبى في هذه الأوقات يا أبا حسام، رحمكم الله جميعاً"

ذهبت إيمان إلى آية، بعد أن صقفت شعر الطفلتين وأطعمتهما لقيمات من بقايا خبز وزعتر رديء الصنع، وجدت كريم يلعب بالرمال أمام مدخل الخيمة، دخلت خيمتها فوجدتها في فراشها وقد بدا عليها الإعياء، قالت لها بعدما جلست بجوارها ونظرت داخل عينيها: "إذن، ضحكاتك الهستيرية هي إخفاءٌ لآلامٍ تعانينها"

ردّت آية بصوتٍ ضعيفٍ: "من المؤكد أنّك سمعت صوت الضرب ليلة البارحة، لا سرّ يختبئ داخل هذه الخيام"

نظرت في وجه إيمان والتزمت كلتاها الصمت لدقيقة، ثمّ قالت آية: "سابقاً، أقصد قبل الحرب، كنت أضرب على سوء خُلّقه، لم يكن الضرب يتكرر كثيراً، وكان ينشغل بعمله فيقضي أغلب وقته خارج المنزل، أمّا الآن

فقد ساءت الأمور كثيراً، ضغط نفسي شديد، لا عمل، لا نقود والأهم بالنسبة له لا دخان! والرجل يشعر بالعجز ويُفْرِغُ كلَّ عجزه عليّ، لم يتبقّ عندي جَلَدٌ لتحملّه"

سعلت إيمان بشدةٍ ثمّ قالت بصوت متحشرج: "الصبر ليس فرضاً عليك، بل الرحمة والسند فرض عليه، خاصة في هذا الوضع المأساوي"

ابتسمت آية بتهكم ثمّ أردفت: "عندما كنّا في المشفى، كان مكتئباً معتزلاً وقد فرحتُ لهذا؛ فلا أنفضح عند ورد ويوسف، أمّا الآن خرج من حالته الكئيبة إلى حالته السافلة وفُضحت وسط المخيم كلّّه"

"لا تقلقي، لا داعي لذكر الفضيحة، كلنا عندنا مشاكل يا آية، وهذه الخيم هتكت ستر الجميع، كما أنّه لا ذنب لك"

"أتعرفين؟ ليست الخيام من تهتك الستر بل البشر، هو مثلاً لا يبالي بمشاعري، ربّما يعتبرني أقلّ قدراً من أي شخص يجب مراعاة واحترام مشاعره وذلك لكوني امرأة ضعيفة لا حيلة لي، قبل أسبوع كنّا ذاهبين لأداء واجب العزاء حين استشهد خالي"

"ها؟"

"ونحن في الطريق، فلتَ حذاء كريم من قدمه، لم يدع شتيمة إلا وقالها لي أمام الجميع، جسلتُ متكورة على نفسي وأحسست أن عينيّ ستنفجران من كثرة الدموع المكتومة"

"لا حول ولا قوة إلا بالله"

"الغريب في الموضوع، أنني سمعت همسات الرجال من حولي يمتدحونني ويتحدثون قائلين: "ما شاء الله عنها، بنت عيشة"

"ليس غريبا، بل هي ثقافة سائدة في المجتمع"

"هل هم رجال أصلا؟ هل كل الرجال على شاكلتهم؟"

"كلّا، فالخير والشر تكوينان أساسيان في هذا الكون، كما أنّ الفكر الجمعي مؤثر كبير يؤثر في طريقة تفكير الإنسان"

أحسّت آية بدوارٍ فوضعت يديها على رأسها متألّمة: "منذ يومين لم أتناول شيئا، كنتُ أحمل علبة فول في حقيبتي وأطعمتها لكريم على يومين"

"الله يسامحك، لماذا لم تُخبريني؟ عندي من المعلبات ما يكفيها نتقاسمه، ولكن ليس عندي خبز، تعلمين أزمة الطحين، أوصيتُ بعض الصديقات على كيسٍ بوزن 25 كيلو، في حال الحصول عليه نتقاسمه أيضا، سأذهب لأحضر لك بعض المعلبات"

"شكرا يا إيمان، لكن لا تحضري الكثير فقط ما يكفينا الآن أنا وكريم، يأخذها عمر ويبيعها كي يشتري الدخان"

"لا يعقل .. هل تصل به الأمور إلى هذا؟"

"صدقيني لقد فعلها سابقا وباع كلّ ما نملك من طعام"

"لا حول ولا قوة إلا بالله، حسنا ولكن لا تنسي أنّ لك أختا اسمها إيمان، بيتي بيتك ادخلي وخذي ما تشائين"

ابتسمت آية بخفّة وقالت: "أي بيت هذا؟ وهل بقي بيوت؟ تقصدين خيمتك هي خيمتي"

"الخيم غريبة علينا، لا تمثلنا، نحن ننطق بما يعبر عن حقيقتنا الأصلية، كل حياتنا أصلا باتت غريبة علينا، دعك من هذا كلّ، ودعك من عمر أيضاً، هيا انهضي لأجل نفسك ولأجل كريم، انظري لقد امتلأت ملابسه بالرمال، هيا تنشطى، سأحضر لك بعض الطعام وآتي"

وقفت إيمان وأرادت الخروج، لكنّها توقفت على صوت آية تناديهما: "إيمان" "نعم؟"

"لماذا لم أستطع التخلي عنه من البداية؟"

"من؟"

"زوجي"

"لا أعلم.. هذه مشاعرك وحياتك أنت"

"هل هو الحب؟"

ضحكت إيمان وقالت: "ربّما هو العجز يا آية، أحيانا تعلّق المرأة شعور العجز على شماعة الحب كي تريح نفسها، ليس عجيباً أن تفرّ الشاة من الذئب، العجيب أن تتعلّق تلك الشاة بالذئب، والكثير من الشياه في مجتمعنا يتعلّقون بالذئب عجزاً وليس حباً"

"هل كنت تحبين زوجك؟"

"كان بيننا ما هو أعظم من الحبّ، رحمه الله"

"ما هو؟"

"المودة والرحمة"

"أي أنه كان يعاملك بلطف؟"

"كان يرحم بشريتي وأنا كنتُ له كذلك، سأذهب لأحضر لك شيئاً تأكلينه"

ذهبت إيمان وهي تمسح بكمّ ثوبها دموعاً تدفقت من جرح العين.

على بعد حوالي مئتي متر كان يوسف يسوخ في الرمال شاداً الحُطّا برفقة يامن

وأحمد، الكثير من المهام عليهم أداؤها: الانتظار أمام طوابير المياه لتعبئة

بعض الدلاء، شحن الهواتف المحمولة، البحث عن شبكة إنترنت تعمل

للاتصال بها ومتابعة بعض الأخبار، والمهمة الأصعب هي شراء الملح والدواء

لإيمان التي لا تنفك عن السعال ليلاً مع نهاراً.

قسّم الثلاثة أعمالهم، فوقف يوسف وأحمد في طابور المياه، وانطلق يامن نحو

مكان شحن الهواتف ومن ثمّ باتجاه السوق.

اصطف الرجال في طابور المياه وهم يتحدثون بصخب، بعضهم يشتم والآخر

يدافع، منهم من لعب دور الناقد العسكري ومنهم المحلل السياسي

والخبير الإستراتيجي، في حين وقف يوسف في صمتٍ تام.

نحزه صديقه أحمد قائلاً: "ما رأيك؟"

ردّ يوسف بلا مبالاة: "في ماذا؟"

"أنت في صف من؟"

نظر يوسف باتجاه صديقه بعينين ناعستين وقال: "في صف الأطفال"

"يعني؟"

"من تسبب في تجويعهم، تخويفهم، تعريتهم، وموتهم فهو خصمي إلى يوم الدين"

"والله كل شيء له ثمن يا صديقي"

"وماذا تقصد (بالشيء) هنا؟"

"الحرية، الكرامة، الوطن هذه الأمور كلها لها ثمن"

"والثمن هم الأطفال؟!"

"كلّا.. لم أقل هذا، هم ضحايا الحرب"

ردّ يوسف بشيء من الغضب: "وأين هي الحرب؟ أين جيشنا؟ أين دولتنا؟ ثمّ، هل ترضى على نفسك خوض حرب أغلب ضحاياها نساء وأطفال؟! القائد الذي يرضى بهذا هو قائد.."

قاطع أحمد شتيمة قائلاً: "على مهلك.. لا تقل هذا، الوضع الآن مختلف هناك دول عظمى في صفنا، ألم تستمع لتصريحات بوتين؟"

"الذي ارتكب الجرائم في سورية لا يمكن أن يكون مجاهداً في فلسطين، وقسّ على ذلك، وإذا كان القاضي يفكر في الرشوة فكيف سيعرف الظالم من المظلوم؟ كلّ يسير مع مصلحته يا حبيبي."

نظر أحمد إلى يوسف بتفحص قائلاً: "ماذا تقصد بـقس على ذلك؟ هل تقصد الحزب وإيران؟"

التزم يوسف الصمت، فقال أحمد بشيء من العصبية: "لم يرفع أحد سلاحه ضد إسرائيل غيرهما، لم يقف بجانبنا غيرهما، ماذا تقول أنت؟ لا يحق لك أن تكون كاشفا عن القلوب وتتهمهما بالجهاد المصلحي"

"لا أتهم أحدا ولم أقل إلا وجهة نظري، الإيمان لا يتجزأ، إذا كنت أومن بالدفاع عن المظلوم وبالجهاد ضد العدو، فيجب أن أمارسه أمام عتبة كل مظلوم وعند لقاء كل عدو."

سكت يوسف هنيهة ثم أردف: "أتعرف؟ هناك قانون خطير في السياسة تتبعه أمريكا وإسرائيل يقول: إذا لم تجد عدواً فاصنعه"

"هذا هراء، وتطبيق لنظرية المؤامرة، هل ترتفع الدول باختلاق أعداء لها؟" ليست جميع الدول يا أحمد، بل الدول التي تأسست فوق أكفان ورُفات الإبادة، أمريكا مثلاً نشأت على جثث الهنود الحمر، وإسرائيل أقيمت فوق جثثنا.

أضف إلى ذلك أنهم يخافوننا، يخافون فكرنا الديني الصحيح، وحدتنا ولحمتنا، نهضتنا وتطورنا، لذلك هم مستعدون لفعل أي شيء مقابل زرع الفتن والتفرقة والانقسامات بيننا، مستعدون لفعل أي شيء مقابل تحطيمنا وتدميرنا وجعلنا أمّة خفيفة وزنها صفر على الميزان العالمي، ألم يدفعوا مليارات الدولارات لتشويه سمعتنا وتزوير تاريخنا وقيمتنا عبر الإعلام والسينما على مدار التاريخ؟ فبات العربي الآن يشعر بعقدة النقص والتخلف؟ النظام الصهيوني قائم على دعم العدو لضرب عدو آخر، تدمير

الأعداء بعضهم لبعض حتى يفنوا أنفسهم، تفتيت الدول عن طريق تقسيمها إلى طوائف ومِلل تتناحر فتضعف، اختلاق أعداء في سبيل تنفيذ خطط استعمارية، وحلفاء اليوم هم بالنسبة لهم قرايين وأصاحي الغد، إنهم يخافون أن يأتي يومٌ ننير فيه من جديد فيتلاشى ظلامهم السائد على العالم، يخافون يوماً نكون فيه أصحاب وزن يجعل كل من يجاريه يبدو خفيفاً"

صمت أحمد قليلاً ثم قال: "أنت ممسوح العقل يا يوسف، وتظن أن بلادنا ساحة لمخططات أمريكية إسرائيلية، لكن هناك فئة تنصرنا وسننصرها لأنّها قالت (لا) في زمن لم يتجرأ أحد على قولها، ولأنّهم أسودّ في وقتٍ كثُرَت فيه الضباع، حتى لو تخلى الجميع عنّا، وكان هذا مجرد عرض يخدم المصالح الدولية كما تقول أنت وغيرك، سننتصر بسواعد أبنائنا، وسنتنفّس حرية عن قريب، الصمود سيصنع كرامة وسترى"

"أنت منهم إذن يا أحمد؟"

"ممن؟"

"الدمى؛ لا يخرج الكلام من عقلك بل من حنجرتك، هذا ليس حديثاً بالمعنى الحقيقي بل ألفاظ معزولة وصخب يصدر عن حالة من عدم الوعي. أنت تجمعج بالشعارات بلا فهم.

تقول لي: الحرية، الصمود، النضال، النصر، الكرامة وكلّها شعارات على ورق لا معنى لها بدون إنسان حي، يحملها في قلبه ويملك قدرة تحقيقها"

قال أحمد ببعض الغضب: "والإنسان الذي تتحدث عنه موجود، ولكنك تملك عين حمار فلا تبصر"

"أين هو؟ هل هذا إنسان؟ جيش الموقى الذي يقف على طواير المياه هذا (إنسان) ! إنهم أجساد خاوية إلا من غريزة البقاء التي تدفعهم للوقوف هنا."

"المُقاوم الذي يقف على الثغور الآن، الطبيب، المسعف، الصحفي، رجال الدفاع المدني وجميع العاملين على خدمة الناس في ظلّ هذا الموت، كلّهم يؤمنون بهذه المبادئ التي تسمّيها شعارات خاوية، ألا يكفيك هذا؟"

"وهؤلاء كلّهم أبطالنا، هم بحاجة لئن يعيشوا ليوم نمتلك فيه قوة لا أقول موازية لقوة العدو وإنما تقاربها، عندها لا تسيل دماؤهم والعالم يتفرج، نحافظ على حياتهم، البطل يجب أن يعيش لا أن يموت.

لا يُمكن تبني شعارات ومبادئ مجردة لا تتحقّق في الزمن الحالي على أرض الواقع، إذا أردت تحقيق الحرية كان يجب أن تُلغي العبودية قبل أن تبدأ الحرب، وإذا أردت من الشعب التضحية كان يجب أن تمنحه القوة لتتحول التضحية من ضعف إلى العطاء من قوة، وإذا أردت الصمود كان يجب أن توفر مقوماته، وإذا أردت الوطن وجب عليك أن تبني المواطن، لا أن تجعله علامة مهجورة مهدومة داخل وطنه، لا تأتي النتائج العظيمة بدون أفعال عظيمة تقود لها يا أحمد"

تأمل أحمد قليلا ثم قال: "أنت تتحدث بلا وعي ولا اطلاع، فجميع قادة الغزوات الإسلامية كانوا أبطالاً واستشهدوا وانتصروا، لم تكن حياتهم طويلة، كما أن المجتمع وقتها لم يكن يعيش في حالة من الرغد، لن يستمر هذا الوضع كثيرا وسترى، ستتغير الأمور لصالحنا، كما أنّ لنا داعمين، سيأتي يوم يرتفع فيه شأن بلدي وننتصر"

"بلدك سلّمت من زمان يا رجل، والذين يدّعون دعمها هم من ضمن من سلّموها أيضا

جميعهم يدورون في نفس البوتقة، مع تغيير الأدوار وتبديل الشعارات، ونسف المفاهيم وصناعة مفاهيم جديدة مناسبة للمصلحة والمرحلة، لقد وضعوا الناس داخل متاهات فكرية لا تتمخض إلا عن المزيد من الفتن والانقسام والتشتت، فلا تقارنّا بزمن غابر كان العدل سيده"

"تعود بي إلى نفس النقطة، وهل تظن نفسك الرجل الفهيم البعيد عن هذه المتاهات والفتن؟"

أجاب يوسف بصوتٍ هادئٍ يختلط بنبرة حزينة: "كلّا.. لم أكن يوما بعيدا، أذكر في عام 2007 كنتُ طفلا صغيرا وقد ذهبتُ لصلاة الجنازة على جارنا الذي قُتل، كنتُ أظنه قتل بنيران العدو الوحيد الذي أعرف، ثم شعرتُ بوخزة في قلبي حين عرفتُ أنّه قُتل بنيران فلسطينية، كبرتُ على جدالات عقيمة حول الشرعية وعدم الشرعية، الكفر والإيمان، الإسلامي والعلماني، المقاوم والمنبطح، وحروب تدور رحاها بين المصالحة والاقত্তال

الداخلي وما تزال تلك الوخزة تلازمي صارخة: "بعد كل هذا، ما الذي يمنع أبناء الوطن الواحد من الاتفاق؟".

نشأت بعد 2007 سنواتٍ طويلة وأنا أحمل نُدبة الفلسطيني المعزول جغرافيا وسياسيا ونفسياً داخل حدود (الغزاوي)، الغزاوي الذي نجحوا في إلباسه ثوب الأسطورة، ليكون دمه علامة لبطولةٍ مُحْتَلَقَة ونصرٍ مزيفٍ، فيعلو الجميع بهذا الدم النازف.

كنتُ أرى أبي يكافح الحصار والفقر وينتقل من أزمة إلى أخرى ليوفر لنا حياةً آدميةً من نوع ما، ويُمسك بيدي أنا وأخوتي لننزل السلالم نحو مخبئٍ آمن عند كل قرعٍ لطبول الحرب صارخاً: <<يا وحدنا>>

ظننتُ أنّ هذا كلّهُ لأجل الوطن والقضية، وأنّ الصبر والكفاح والنضال سِمة أهل هذه البلد، فكنتُ راضياً، ثمّ تفاجأت برجالٍ في مقتبل العمر ممّن ينتمون للتنظيمات السياسية داخل بلدي وفي مدينتي بينون الفلل ويركبون أحدث أنواع السيارات، ويكتنزون الدولارات وسط هذا الفقر المدقع الذي يسود المدينة، فأصابني وخزة أخرى مؤلمة في قلبي، فرحتُ بالنصر في 2014 رغم استشهاد والديّ، قلتُ سيصبح عندي وطن حر بمطار وميناء وكهرباء، ثمّ أصابني وخزة جديدة من عدم تحقيق كلّ ذلك وانحدار الأمور نحو الأسوأ. كبرتُ وقلبي متورمٌ من كثرة الوخزات، لتأتي هذه الحرب وتكون حصيلة أعوامٍ سابقة من الانقسام والفتن، والظلم والفقر

المجمل، والهزائم الموشحة بالنصر، تركت حفرا عميقة داخلي من الصعب إصلاحها،

ولذلك قررت حاليا أن لا أفكر إلا في الإنسان، لا شعار أرفعه سوى (حياة الإنسان)، ولهذا سأرحل في أقرب فرصة، لن أسمح لكلب أن ينقض على حياقي وأنا ألاعبه وأربت على رأسه، تمسكت بمبادئي حتى آخر رفق وها أنا أتخلى عنها من أجل الإنسان فقط، لا تكذب على نفسك، لا شيء أهم من حياة الإنسان يا أحمد، لا شيء"

قال أحمد: "الجميع عانى، لكن لم يغير الجميع أفكارهم ومبادئهم، أم هل تظن نفسك الوحيد الذي عانى من كل هذا؟"

"كلّا طبعاً.. ولكنّي اكتشفتُ عين الذبابة حديثاً، ربّما تكتشفها أنت قريباً" سأل أحمد بسخرية: "وما عين الذبابة هذه؟ أطربني"

"حين تحطّ الذبابة على البول ماذا تراه؟"

قال أحمد باشمئزاز: "ما هذا الطرح المقرف؟!"

أكمل يوسف متجاهلاً اشمئزازه: "تراه كبحرٍ بلا شطآن، فأين ذلك النظر الذي يرى الأمر على حقيقته، عالمها بقدر رؤيتها، والعين واسعة الأفق يكون عالمها بقدر رؤيتها أيضاً، واتساع بحرهما بقدر اتساع نظرها، لا أحد يريد لعيننا أن تكون واسعة الأفق، لا أحد، الجميع يريدنا بعين ذبابة"

ضحك أحمد ضحكة خفيفة ثم قال: "لكن الذبابة تطير أيضاً، وترى الدنيا من فوق"

"تطير خائفة متوجسة غير مستقرة ضعيفة، باحثة عن بقعة تحطّ عليها، ولا تحط إلا على القذارة والهلاك"

"لا حول ولا قوة إلا بالله، ما هذا التشبيه؟ كم أنت سوداوي يا أخي!" ثم قرب وجهه ناحية يوسف ونظر داخل عينيه قائلاً: "خليّ إيمانك بالله كبير، ستتغير الأحوال وننتصر، لن يبقى الوضع على ما هو عليه"

"والله أتمنى هذا لكن .. (ما نيل المطالب بالتمنيّ)"

بعد ساعاتٍ التقى الثلاثة (يامن وأحمد ويوسف) عند أقرب نقطة للاتصال بشبكة الإنترنت، سأل يوسف يامن: "هل وجدت مبتغاك؟"

"للفتُ كلّ صيدليات خان يونس ورفع ولم أجد الدواء"

"لا حول ولا قوة إلا بالله" قال يوسف نافحاً زفيراً طويلاً

تفحص الجميع هواتفهم وشرعوا بقراءة الأخبار، فتح يوسف بريده الإلكتروني فوجد رسالة واردة تفيد بقبوله في منحة الماجستير، أخرج تنهيدة حارة ولم يفكر سوى بجده ومازن وورد.

.....

ظلامٌ دامس ساد زفرائتها الباردة، كانت ورد تجلس مرتكزة على الحائط، ضامة ركبتيها باتجاه صدرها، البرد يلفح جسدها الغضّ الضعيف، ويزيد من ألم الكدمات التي تملأ وجهها وجلدها، كانت الدماء تقطر من أنفها ولشتها، فتمسحها بطرف ملابسها البيضاء، ترتعش برداً وتئنّ توجعاً، تصفع ذاكرتها صورة النار الملتهبة التي أشعلها الجيش لحرّق ملابس النساء، ثمّ

صفعة أخرى للذاكرة من صورة أمرها فيها الجنود بخلع ملابسها فرفضت رافعة رأسها وشارة النصر بتحدٍّ، ثمَّ كدمة وركلة في عمق الذاكرة من صورة أخرى انهال خلالها الجنود ضربا عليها وشقّوا ملابسها عن جسدها ثمَّ ألقوا بها داخل لهيب النيران المشتعل.

كانت ترتجف، تُردّد بشفتيها المتورمتين: "يرتدي البُستان الحِلل حينًا ويصبح عاريًا حينًا آخر.

النار المحترمة آخرها ماء يقرأ عليها آية موتها.

أنا قوية بك يا الله فنور القلب يهب الجسد القوة والعزم"
ظلت تردّد هذه العبارات تباعا حتى غفت وهي جالسة، رأت خلال نومها أنّها تقف داخل بئرٍ مظلمة لا حبل فيه، ينتابها الهلع، سمعتُ صدى صوتٍ يتردّد: "إبراهيم وجد في النار السرور والسلام والياسمين، وظلمة البئر تجعلك تدرك النور المبين، والخلوة صفاء للقلب"

تساءلت: "هل أنا في خلوة؟ أم في اختبار يقودني نحو الصفاء؟"

تردّدت على مسامعها آية من سورة (يوسف): "قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجَرَ الْمُحْسِنِينَ (90)

ثمَّ سمعت صوت يوسف ينادي عليها: "ورد، ورد"

وشاهدت حبلاً ينسدل باتجاهها، قال يوسف: "هيا تمسكي جيدا لأُخرجك"

تمسّكت بكامل قوتها وخرجت، وجدت نفسها داخل حقلٍ محترقٍ مقفر، بجوارها أرجوحة ممزقة مهجورة تتشبث بجبلٍ متهاالك ببقايا شجرة زيتون، تمتت: "ها هنا كنت"، تعثر على جسدها عار مخذول، رأسها انفصل، تصرخ، تطفو كأنّها جيفة في محيط، ينتشلها يوسف بمعصمه ذي الشامة الإسطوانية.

يقف أمامها قائلاً: "تريدين كسر مرآتك، أنا مرآتك وهذه هي الأحجار" يناولها بعض الأحجار في يديها، قائلاً: "حطّمي المرأة، جدي نفسك" رفعت يدها لترميه بها فاستيقظت على صوت صرير بوابة الزنزانة وهي تُفتح، انكمشت على نفسها خوفا حين دخل الجنود، حملت وسط شعاع النور الذي تسلّل عبر الباب المفتوح، اتسعت عيناها دهشة وهمست: "يوسف!"

.....

2028/12/28

استيقظت ورد في تمام الخامسة والنصف صباحا قبل الجميع، فتحت الباب الزجاجي المطلّ على الحديقة التي تواجه البحر، خرجت وجلست على كرسي بلاستيكي أبيض اللون يتوسط الحديقة، استنشقت نسمات الصباح النقية، فتحت دفترها وبدأت بالكتابة:

"كنتُ أحب الاستيقاظ فجرا، حيث لا أحد سوى أنا والخالق، أناجيه، وأخبره عن ما في قلبي، وأزيع ظلام الليل بنور رباني يرافقني طيلة يومي، أرتب مجالسي الخاصة مع ذاتي ورقائق النفس وهمسات القلب. وها أنا أعود إلى عادي القديمة بعد خمس سنوات من الانقطاع.. والفضل لأختي التي ضبطت المنبه وقالت لي: "يجب أن تعودى لعاداتك القديمة الجيدة يا ورد"

أجلس وأكتب لك يا دكتورة وأنا أنشق ريح الصباح حين تنشر فوحها النضير، أنسم الريح قبل انقضائها، كي أعيش، فمن فاته صباحه فاته حضوره الحيّ.

مضى يومان على وجودي في الإسكندرية، أشعر بتحسّنٍ فائق، أجلس الآن في الشاليه والبحر أمامي، الجو باردٌ جدا لكن أطراف السعادة التي عادت لتلتصق بي تدفئني، هل هذا لأنّ الأيام مناخل تنقي الروح؟

استيقظتُ بالأمس مبكرا أيضا ووقفت أمام البحر، مارستُ التمرين الذي نصحتني به فكنتُ كلّما خالجتني فكرة سيئة أتخيلها شيطانا أسود صغيرا، أمسكه من رقبتة وألقي به في البحر، فيبتعله داخل أعماقه دون رجعة، وإذا خالجتني فكرة جميلة لطيفة أتخيلها نورا يخرج من العقل ليتغلغل في القلب، ومنه إلى جميع أنحاء الجسد.

وقد نفعتني هذا كثيرا، فقد شعرتُ أنّي إنسانة معجونة بالنور!

أعرف أنّك تودّين معرفة أفكاري السيئة القاهرة، ولكّني لا أستطيع التعبير عنها الآن، وسيكون الوضع كأنّك تستمعين إلى قيثارة بدون أوتار، فهل ستصغين؟!

فما أفكاري الآن إلا صور مقطوعة في الأحجية، عليّ تجميعها وحلّها بشكلٍ صحيح لأعرف ماهيتها، وتصبح ذات معنى، فتعود للقيثارة أوتارها، ويعود للحن صوته.

يوم البارحة كان مليئًا بالمفاجآت، أعدت لي إيمان ورق العنب الذي أحبّ، إنّها المرة الأولى منذ فترة طويلة التي أذوق فيها طعاماً للأكل، كما أنّها فاجأتني بباقة من ورد الجوري الأحمر والأبيض، تماماً كما أحب، وفي كلّ وقتٍ أشمّها أرى شاعري ومنزلي وأبي الذي كان يسقي زهور الجوري، وأمّي حين كانت تقطف وردة لتضعها في شعري.

اشترت لي إيمان أيضاً من (الجملة ماركت) مجموعة العناية بالبشرة التي كنتُ أستخدمها، وحين وضعتُ منها اليوم صباحاً شعرتُ بأنّ وجه ورد التي أعرف بدأ يعود، وورد القديمة بدأت تظهر على ملامحي، لقد كنتُ جميلة أحبّ الحياة وأعشق الاهتمام بذاتي، فأخبرتُ هذه الملامح القديمة التي عادت إليّ بمقدار حي لها، وأني سأسعى جاهدة للحفاظ عليها ولعودة المزيد من نفسي التي أحبّ.

يوم البارحة أيضاً حمل لي بعض الذكريات الجميلة التي زارتني على بساط الماضي، كنّا نجلس أنا وإيمان والطفلتان هنا في هذه الحديقة وأمام البحر

عصرا، كان الشجر ترجفه ريح فيضحك كأنه جَلَبَة الأطفال، ثمّ يسكت قليلا إثر تدمير الأمّ منهم. وما هي إلا لحظات قليلة حتى تعود الريح وتعود الرجفة وتُسمع ضحكات الأشجار في الأرجاء.

جاء شابان ضيّلان قصيران، أحدهما كان يحمل العود، وقد بدا ثقيلا عليه بعض الشيء بسبب ضآلة جسده، جلسا على المقعد المقابل لنا، بدأ حامل العود بالعزف ثمّ بدأ يغني برفقة زميله، كانا يتبادلان المقاطع الغنائية بينهما، كان صوتهما عذبا جميلا، وبعد أغنيتين تقريبا بدأ صاحب العود يشدو أغنية لمحمد فؤاد: "خدني الحنين بعد السنين جابني هنا، هنا للمكان إلى تولد فيه حلمنا، بكينا فيه وضحكنا فيه من قلبنا.. عدت على البيت الي كان فيه الحبايب، راجع ماليني الشوق ولهفة قلبي دايب"

تذكرتُ بأيّ لن أعود إلى (البيت الي كان فيه الحبايب)، لأنّهم ذهبوا بلا رجعة، فبكيت وبكيت كثيرا، على البيت والأهل والأصدقاء والمدينة المأكولة كلّها، ما جعل جوري تذهب لهما معاتبة، كانت تشوّح بيديها الصغيرتين وتحدّث بنبرة غاضبة: "لقد جعلت خالتي تبكي!"

سألها صاحب العود: "من خالتك؟"

فأشارت نحونا، جاءنا برفقة زميله، معرّفاً: "مرحبا، اسمي حسام وهذا زميلي طارق"

قالت إيمان: "أهلا وسهلا"

سأل: "أنتم من سورية؟ لهجة الصغيرة تدل على ذلك"

أجابت إيمان: "فلسطين"
 "يا سلام .. أجدع ناس، هل أزعجناكم؟"
 "كلّا ولكنّا نحن لأشياء من الصعب العودة إليها"
 نظر باتجاهي وتفحصني وصولاً إلى أقدامي، كأنّه انتبه لأمر ما، ثمّ قال:
 "تأثير الحرب إذن؟"
 "هو كذلك" ردّت إيمان
 قال موجها كلامه لي: "اختاري أغنية تفرحك ونحن نغنيها لك، ما رأيك؟"
 قالت إيمان: "لا داعي.. شكراً، لا تتعبا نفسيكما"
 "والله بتكلم مجد"
 سرحتُ قليلاً ثمّ قلت: "سهر الليالي .. فيروز"، نظرت نحوي إيمان في دهشة
 وكأنّها لم تتوقع هذا.
 في حين قال حسام: "الله .. زوقك راقى جداً"
 عادا إلى مقعديهما، وبدأ حسام بالغزف على العود ثمّ بدأ يشدو: "شو كانت
 حلوة الليالي، والهوا يبقى ناظرنا، تيجي تلاقيني وياخدنا بعيد، هدير المي
 والليل"
 وبدأتُ أنا باستعادة الذكرى، حين جاءني يوسف قائلاً: "عازمك اليوم على
 سهرة ليلية بمناسبة تخرجك"
 فقلت: "الله .. كم أنت لطيف، في مطعم الروتس أو اللات هاوس، أو
 ربّما مطعم الديرة؟"

تلعثم يوسف ثم قال: "على سطح المنزل، فأنت تعرفين أنني مُفلس"
وقد كانت سهرة جميلة جدا، تسامرنا فيها مع النجمات وحادثنا القمر،
وأكلنا الشوكولاتة وأكياس الشيبسي، ورقصنا.

أشعل يوسف على هاتفه المحمول أغنية (سهر الليالي) ودعاني للرقص معه
وسط عراء السطح وتحت ضوء القمر، كان الجو رومانسيا حقا، ليلٌ ونجومٌ
وقمرٌ كاملٌ يقظٌ في سكينته، وأريجٌ يasmine المنزل يفوح بيننا، ولكن
رقصه لم يكن رومانسيا أبدا، لم يكن كالرقص الذي غنت له (ماجدة
الرومي) مثلا، بل كان رقصا غريبا جنونيا.

كان يطوّحني من يديّ تارةً، ويرفع إحدى رجله قافراً بطريقة بهلوانية
فأقفز معه تارةً أخرى، ثم يدور بي حتى أشعر بأنّ المبنى سيقع بنا.
لم يكن يُسمعي (كلماتٍ ليست كالكلمات)، ولكنني كنت أشعر بأنّه
سيأخذني من تحت ذراعي ويزرعني في إحدى الغيمات، أو ربّما .. إحدى
العمارات، لم أكن أعلم .. هو وحماسته!

كانت ليلة جنونية رأيْتُ فيها يوسف بوجهٍ جديد، متحمّسا مخبولا ضاحكا،
تساءلتُ وقتها إن كان الخمر يدور في الهواء من حولنا أم أنّه زرعه في
حبّات الشوكولاتة التي اشتراها لي وتناولناها معا؟

جلستُ بعد انتهاء الرقص لاهثة، شعرتُ بأنّه سيتم نقلي خلال دقائق
معدودة إلى غرفة الإنعاش، إلا أنّ يوسف كان يحمل الحماسة ذاتها، وأراد
تشغيل أغنية أخرى ولكّني قلتُ بإصرار: "لا.. لا، تعال اجلس لتتحدث"

فجلس سعيدا فرحا، وأنا كنتُ في أكثر أوقاتي سرورا وبهجة، قال: "إنّها المرة الأولى التي أرقص فيها في حياتي"

فقلتُ وما زالت رئتاي منتفختين: "واضح"

قال: "أمامك لا أخاف من الرفض والنقد، فأظهر हालाقي الجنونية صريحة دون تزييف"

سألته مطمئنة على مستقبلي الراقص معه: "وهل تصيبك حالات الجنون هذه كثيرا؟" لم يُجب ولكنه ضحك.

تأملْتُ القمر بعد أن هدأ نَفْسي واستقرت دقات قلبي، وقلتُ له: "القمر جميل هذه الليلة"

"القمر يقطر بالأسي، كمثل وجهٍ شاحبٍ عاكسٍ لنور الآخر"

"يااه.. أنت تنظر للأمور بسوداوية"

"كلّا.. ولكنّي أحبّ الأشياء التي تنير من داخلها، مثلك تماما" ونظر إليّ بعمق ثم ابتسم

انتهت الذكرى مع انتهاء حسام وطارق من أغنيتهما، وحملتُ أختي في وجهي حين رأني سرحانة مبتسمة، كانت تحاول سبر غوري ومعرفة ما يدور في عقلي.

نهض حسام هو وزميله، مشيا في الممشى الأنيق المحاذي للبحر والمزين بالزهور والأشجار، بدا شعر حسام الأكرت كغيمة سوداء فوق رأسه، وقد لمعت نظارته الطبية الكبيرة بفعل أشعة الشمس، أمّا زميله طارق فقد كان

أصغر جسمًا، له وجه رفيع طويل، وضع قبعة معطفه على رأسه ليدفئه، غابا في الأفق، وتركوا خلفهما نغماتٍ فالتة من فم الذاكرة، تفتح بعض الأبواب الموصدة داخلي.

كانا شابين طيبين كباقي أهل مصر التي أحب، أحببت هذه البلد حقًا، كلّ من فيها ينطق بالبساطة والطيبة والأصالة، وكلّ ما عليها يشي بجمال باذج وحضارات عظيمة عريقة.

قالت لي إيمان ذات يوم: "لم أشعر بالغربة قط هنا، ما رأيك أنت؟" لم أعلم ماذا أجيبها فأنا أصلا غريبة على نفسي، ولكنّ الذي يقرّ به قلبي أنّ مصر لم تكن يوما غريبة عليه.

وضعتُ ورد القلم وأغمضت عينيها مستمتعة بهدوء الصباح وصوت الموج وحفيف الشجر، جاءتها إيمان حاملة معها كوبًا من القهوة سريعة التحضير التي أعدّتها كما تحبها بالحليب والسكر الخفيف، قالت لها: "كيف تشعرين؟"

"أفضل"

شعرتُ إيمان ببعض الفرح لأنّ أختها بدأت تحاورها وتتفاعل معها ولو بكلمات بسيطة، فقد التزمت الصمت لمدة طويلة وها هي في نهاية العام 2028 تغادر الصمت المطلق وتعبّر عن قليلٍ ممّا يخالجهما.

ارتشفت ورد أول رشفة من كوب القهوة، ثمَّ أغمضت عينيها إثر شعورٍ لذيذٍ انتابها وقالت: "الله.. إنها تحمل مذاق الأب، لقد كان أبي يعدّها بنفس الطريقة"

قالت إيمان: "أجل.. تعلّمتُها منه أساسًا برغوةٍ كثيفة"
ثمَّ أردفت: "سنذهب اليوم لزيارة قصر المنتزه، ما رأيك؟"
تساءلت ورد: "قصر المنتزه؟!"

"هو مجمع للقصور الملكية يقع على مساحة 370 فداناً، وقد استمر هذا المجمع مصيفاً للأسرة المالكة حتى قيام ثورة 23 يوليو ليُفتح بعد ذلك للزيارة أمام عامة الشعب."

"ها" أخرجتها ورد في حين سرحت في أمر ما.
تناولت قلمها وعادت للكتابة:

"ذهبتُ لزيارة قصر الباشا الذي يقع في البلدة القديمة في مدينة غزة، خلال رحلة مدرسية في العام 2008، كانت المعلّمة تشرح لنا عن تاريخ المكان الذي يُصنّف من العصر المملوكي، وأشارت يومها لشعار الظاهر بيبرس الذي ظهر على البناء في هيئة أسدين متقابلين، ثمَّ ذكرت ارتباطه بمصر، وكيف كان القصر في زمن الإدارة المصرية جزءاً من مباني مدرسة سُمّيت بمدرسة (الأميرة فريال)، ابنة الملك فاروق.

كانت تشرح عن بنائه الفريد الذي يعكس فلسفة الحضارة الإسلامية وطابعها، حين انقلبت الدنيا كلّها رأساً على عقب، أصوات انفجارات

اخترقت غزة كلّها من الشمال إلى الجنوب في وقتٍ واحدٍ وبنفس الوتيرة، معلنة عن هجومٍ شديد الوطيس، دقائق معدودة وسادت الفوضى في المدينة كلّها، نتيجة الخوف والهروب.

لم نجد لنا نحن الأطفال أي تصرف يعبر عن مشاعرنا غير البكاء، أركبتنا إدارة الرحلة الحافلة بسرعة متجهين بنا إلى بيوتنا، صرخت فينا المعلّمة في الطريق كي نهدأ، وبعد أن خفّت الجلبة داخل الحافلة، مارسنا معها تمرين التنفس، ثم ردّدنا خلفها الأدعية وآيات من القرآن.

وصلتُ منزلي يومها وأنا أشعر بآلام شديدة في الركب، وضيق في التنفس، غمرتني أمي بأحضانها،

قائلة: "الحمد لله على سلامتك يا حبيبتي"

"أنا خائفة" قلتُ وجسدي يرتجف

"لا تخافي يا ورد؛ الله أكبر منهم وأقوى، لا تنسي هذا"

ولم أنسه، كبرت وأنا أحمل إيمانًا عميقًا داخل قلبي بأنّ الله أكبر من هذا

الاحتلال الإجرامي وأقوى، فلماذا يا دكتورة وصلت إلى هذه المرحلة؟

هل الخوف من المحتلّ وجرائمه هو السبب؟ أم كان الخوف والخذلان

والطعن من أكثر شخص أحبّه هو السبب؟!

تراودني عبارة قالها لي يوسف بعد عدوان 2021:

"هذا العالم دستورهِ الظلم، إن أردت العيش فيه فإنّ الشجاعة وحدها لا

تكفي، في المعارك لا تفهم غير لغة الأقوى"

قالت إيمان بعد أن انتهت ورد من كتابتها: "هل تمشين قليلا يا ورد؟"
"أجل"

ارتكزت ورد على عكازيها ونهضت للتمشي برفقة إيمان، وقفت أمام سور المشى وأخذت تنشق رائحة البحر الممتزجة بعبير الصباح، مرّ من خلفها شاب طويل القامة ضخم الجسد، وقد وضع سماعات الأذن، وأخذ يركض ممارساً رياضة الصباح، وبعد لحظات قليلة وقع الشاب أرضاً فانتزعت وصلة السماعات من الهاتف، ليصدح في الأرجاء صوت موسيقى صاحب مزعج.

اخترق الصوت آذان ورد وصولاً إلى عقلها، ضيّقت عينيها في ضيق، وأحسّت بصداعٍ شديدٍ يأكل رأسها، امتزجت داخلها عدّة أصوات، صوت تمزيق ملابس، عواء ذئب، صراخ نساء، نحيب أطفال، وشاهدت صوراً متتالية لدماءٍ نازقة، وذراعا قوية صلبة تضربها، وماء مسكوب فوق رأسها، حملت عينيها في رعب، صرخت بهستيرياً: "لا تلمسني، يوسف لا تفعل" وضعت كفيها على أذنيها، وجلست ضامّة ركبتيها نحو صدرها، ترتعش، تُردّد بصوتٍ راجفٍ متقطع:

"يرتدي البستان الحلل حيناً ويصبح عارياً حيناً آخر.

النار المحتدمة آخرها ماء يقرأ عليها آية موتها.

أنا قوية بك يا الله فنور القلب يهب الجسد القوة والعزم"

-9-

2024/2/15

مساءً

مازال البؤس سيد الموقف، جلست إيمان وسط خيمة أمّ خالد تواسيها، وأمّ خالد هي جارة جديدة نوعاً ما، جاءت إلى المخيم بعد اجتياح خان يونس الذي بدأ في 2/12/2023

كانت أمّ خالد سمراء البشرة متوسطة الطول ممتلئة الجسد، مرحة تحب الضحك، لديها ولدان، خالد ومُحسن، وابنة واحدة تدعى سوسن، زوجها أسير لدى الاحتلال منذ عشرين عاماً.

اعتادت الاجتماع مع إيمان وآية وغيرهما من النسوة مساءً بعد الانتهاء من الأعمال النهارية الشاقة، تحقّف عنهم بقصصها ونكاتها، وفن التقليد الذي تتقنه.

كانت أمّ خالد سيدة المسرح ومديرة الجلسة، لم تترك أحداً في المخيم إلا وقدّته، ولم يسلم من نكاتها وحركاتها وصوتها المقلّد أحد.

أمّا اليوم فلا بال لها للتقليد والضحك؛ فهي قلقة على ابنها المحجوز في شمال القطاع بعيداً عنها، يعاني من المجاعة المميتة، ولم تأكل شيئاً من الصباح الباكر إحساساً به، وموافقة لحاله.

قالت أم خالد: "كيف سأطمئن على حاله؟ من أين سيجد الطعام؟"
 "لا تقلقي يا أم خالد، الله الرزاق" ردّت عليها إيمان
 ظلّت أم خالد واجمة، سرحانة، قلقة، ثمّ انتفضت من مكانها وكأنّها تذكرت
 شيئاً ما، وانتفضت معها كتلٌ من الرمال كانت قد علقت في ملابسها الرثة
 وفراشها المتهالك. تناولت هاتفها، واتصلت، لم تلتقط الشبكة، أعادت
 المحاولة، مرّة تلو الأخرى حتى رنّ الهاتف، استبشرت وفغرت فاهها: "الحمد
 لله، لقط"

تحدثت عبر الهاتف: "يَمّا يا حبيبي، تذكرتُ إشي.. تحت الكنبه المقابلة
 لشاشة التلفاز، خبأتُ حبة شوكولاتة (Laviva). بكرة لَمّا يكون الوضع
 هادي، روح عالبيت وخذها"

أغلقت الهاتف وأحسّت بشيء من الرضا، ثمّ قالت: "طار من الفرح يا
 حرام، حكالي بكرة حأروح إن شاء الله"

قالت إيمان: "هيا إذن، تعالي وكي، ربنا يطمّن بالك"
 "لن آكل وهو جائع، سأصوم إلا عن لقيماتٍ قليلة"
 ردّت عليها آية: "اسمعيني، ابنك شاب يحتمل أكثر منك، وأنتِ أعمالك هنا
 شاقة من الغسيل إلى العجين إلى الحَبز وإشعال النار وغيرها، تحتاجين
 الطاقة، توكلي على الله، غدا إن شاء الله يذهب ويأخذ قطعة الشوكولاتة،
 وإن شاء الله يرزقه الله أكثر منها من حيث لا يحتسب"

"غدا آكل، افهميني لا أستطيع إساعة اللقمة، أشعر بأنّها سمّ ينزل على معدتي ويعكّر نفسيّتي"

أطرقت قليلاً وقالت بصوتٍ حزين: "لقد وعدتُ والده برؤيته شاباً يفتخر به ويسماع كلّ طيبٍ جميلٍ من أخبارنا"

"لا حول ولا قوة إلا بالله" نطق بها جمع من النسوة

ثم قالت إحداهن: "ألن تقلّدي اليوم يا أمّ خالد؟"

ردّت أمّ خالد بصوتٍ رنانٍ بطيء: "بلى، سأعلن حربي ضدّ هذه الحرب وأقّده لكم الخالة سلوى والعمّ زياد.. معي هبل يا زيااد"

ضحك الجميع في حين نظرت إليها الخالة سلوى التي تجلس أمامها بشيءٍ من الخجل المعاتب، وقالت بصوتها البطيء الرنان: "يقطع شرك يا أمّ خالد"

قالت أمّ خالد بفمٍ مفتوح ولكنة رجلٍ مسنٍ بسيط، وهي تقطّب ما بين حاجبيها وتضخم صوتها مقلّدة العم زياد وهو يحدث زوجته سلوى: "والله

غير كلنا جراي على سينا.. بالشباشب، بكرة بتشوفي"

كانت النسوة من حولها تتبادلن النظرات والضحكات فيما بينهن، وهي تُكمل بصوتٍ بطيءٍ رنانٍ في حين نفخت صدرها ووجنتيها دليل السمنة والامتلاء، ثمّ شوّحت بيديها مقلّدة الخالة سلوى: "الله لا يقدر، معي هبل يا زياد.. تتهبلش"

قاطعت سوسن ابنة أمّ خالد الحديث والضحك قائلة: "هل أعدّ لكم شاي الكرك الذي تحبون يا أمي؟"

"أنا لن أشرب، ولكن أشعلي النار وأعدّيه من أجلهن"، ثمّ أضافت موجهة الكلام للنسوة من حولها: "يُفتح باب التبرعات من خيمكنّ لإعداد إبريق من شاي الكرك الدافئ"

جادت كلّ من الجالسات بما هو موجود في خيمتها من المكونات، أعدّت لهنّ سوسن شاي الكرك خاصتها المعروف بطعمه اللذيذ ونكهته الفريدة. كانت سوسن تسكب لهنّ الشاي حين سألتها إحداهنّ ممازحة: "هل تحمّمت اليوم يا سوسن؟"

ضحك الجميع، فلم تكن شهرة سوسن في المخيم بفعل شاي الكرك فقط، بل اشتهرت أيضا بالمشاكل التي تفتعلها مع أمّها وأخيها من أجل الحصول على دورٍ للاستحمام.

في الجانب الآخر من المخيم، كان يوسف يجلس برفقة صديقه أحمد، وقد هزل، واتسعت ملابسه على جسده، قال له أحمد: "يجب أن تسافر، ستضيع عليك المنحة، طال اعتقال ورد"

نظر له يوسف بلا مبالاة، فأضاف أحمد قائلاً: "قلتُ لك، أبيع سيارتي وندفع التنسيق ونسافر، لكنّك تربط مصيرك بورد"

ردّ عليه يوسف بحزم غاضب: "قلتُ لك مئة مرة، لن أتحرك بدونها"

قال أحمد متأقفاً: "أفّ منك .. تدور حولها كالأبله"

"مخطئ أنت، أدور حول نفسي"

"آخ منك يا يوسف، ورد انتهت، لا معلومات عنها إلى الآن، أنت كنت في الأسر وتعرف تماما وحشية الجيش، لن تخرج سليمة"

انتفض يوسف من مكانه، أمسك بياقة صديقه أحمد الذي شحب وجهه الأسمر، واتسعت عيناه الضيقتان إثر دهشته وفزعته: "تَبًّا لك، الله لا ... لن أكمل دعواتي، ولكن حذار أن يفكر لسانك بنطق اسمها مرة أخرى، حذارٍ" ثم صرخ: "أنفهم؟ لا تتدخل"

تنفس أحمد الصعداء حين تركه يوسف وقال: "أنا أعذرُك ولن أغضب منك، ولكنني أخاف عليك يا صديقي، وواجبي أن أجعلك تستيقظ"

قال يوسف بسخرية: "شكرا على مشاعرك النبيلة"، ثم أضاف بصرامة: "لا تتدخل"

سكت يوسف للحظات ثم سأل بتهكم: "ألم تقل لي بأنك صامد هنا ولن تترك غزة؟ ما الذي غير رأيك؟"

"طالت يا صديقي طالت، عائلتي أُبِدت بالكامل ولا عمل لي ولا مستقبل، والعالم يقف متفرجاً على جثثنا المحروقة"

"وهل يشتري أحد سيارتك في هذه الأوضاع؟"

"يشترونها التجار بنصف السعر تقريبا، أغلب التجار الآن وخصوصاً الذين في رفح يتوقعون نهاية قريبة للحرب، يقولون نشترى ثم نبيع بعد انتهاء الحرب بسعرٍ مرتفع"

"وهل تتوقع أنت نهاية قريبة؟"

"عكست عليّ بتشاؤمك يا يوسف، لا أتوقع هذا، المعطيات تشير إلى إبادة مستمرة"

"أجل، يُعاد تشكيل المنطقة من جديد، أتعترف الآن؟"

"بماذا؟"

"بأنّي كنتُ على صواب"

"فيم؟"

"في أنّ الأمور ليست في صالحنا أبداً، وأنّ كلّ ما حصل يقترب إلى الخطأ أكثر منه إلى الصواب"

"كلّا .. الأمل رفيقي بأنّ النهاية ستكون لصالحنا حتى وإن طالت، ولكّني موعودٌ بعملٍ في الخارج، ابن خالي في اليونان، قال لي تعال وإن شاء الله العمل جاهز"

"تسير مع مصلحتك إذن؟"

"ومن منّا لا يسير مع مصلحته؟"

قال يوسف بنبرة تمزج بين المزاح والجدية: "مصلحتي نذل"

"ألست كذلك؟"

"أنا واضح من البداية، وقلتُ إنّ الوطن ينهض بالأحياء لا الأموات، ينهض ببناء الإنسان، ولم يقدّم أحد شيئاً في سبيل الحفاظ على حياتنا، فلنحاول نحن الحفاظ عليها، كلّ باستطاعته"

"أعترف بأنّي مصلحجي، وأحيانا أتصرف بنذالة أيضا، من الممكن مثلا أن أطلب لتنظيم سياسي معين مقابل كرتونة من المساعدات، أو أن أنكر معروف شخص ما في سبيل الوصول إلى مصلحتي، ولكن لماذا تستمر أنت في صداقة نذل؟"

"لأنّك تحبني حقا، ليس لمصلحة، لا يخطر في بالي أنك يوما ما ستبيعي"
"أعترف بهذا أيضا يا يوسف، لا أحبّاء لي الآن غيرك، لذلك أريدك معي"
"وابن خالك الذي في اليونان؟"

"ابن خالي متزوج، يسعى في هم أسرته، الله يعينه على حاله"
"وكيف ستدخل اليونان؟"

"قلت لك سيساعدني ابن خالي، تأشيرة عمل"
"يعني ستنتظر في مصر حتى صدور التأشيرة؟"
"أجل"

"ولكني لن أنتظر في مصر كثيرا، كما تعلم أنا ذاهب للدراسة"
"أعرف، لا بأس، المهم تلتقي طرقنا في الآخر، ونكون معا في اليونان"
"أتعرف؟ أحيانا يشغلني سؤال، لو الجميع فكّر نفس تفكيري، لن يبقى أحد في غزة، سيرحلون، وتنجح خطة الاحتلال، ستبقى الأرض لهم، ربّما من يختار البقاء في ظلّ هذه الإبادة هو خيرتنا، هو كالشمس المشرقة من وجه الظلام، ورد مثلا كانت كذلك، فهي رفضت مغادرة الشمال رفضًا مطلقا، أليس صراعنا صراع بقاء؟"

"أجل، هو كذلك"

"إذن؟"

"لا أعلم ماذا أجيبك يا يوسف، لا لوم على أي قرار يؤخذ في هذه الظروف أبدا"

قال يوسف: "نعم، إن اتخذ قرار في ظلّ هذا الجحيم هو أمرٌ صعبٌ جدًّا، ولكن كلّ ما أعرفه أنّ الإنسان جوهرة نفيسة يجب عنايتها والحفاظ عليها، وأنّ الجبال تنهار ممّا نتعرض له الآن، فما بالك بالبشر أمثالنا؟" "سأقول لك شيئًا يا صديقي" قال أحمد بصوت هادئ

"قل"

"لا تجلد ذاتك، تواضع لبساطتي، واستمع لجميلتي الخارجة من القلب حين أقول لك سيغير الله من عنده"

"أومن بها طبعًا، ولكن أتعرف؟ يجب إعادة النظر في كلّ فعل أو قول عمِل على أسطورة الفلسطيني، وصياغة رؤية جديدة تعامله كقيمة بشرية تستحق الحياة"

سأل أحمد: "إعادة النظر في كلّ فعلٍ أو قولٍ عمِل على أسطورة الفلسطيني، أم عمِل على تقليل قيمته الإنسانية واستباحة دمه؟" "كلاهما يا أحمد، كلاهما"

"أعرف يا يوسف؟ بعد الذي حصل في السابع من أكتوبر، ألبستنا قوى العالم ثوب الشيطان في حين تناسى الجميع من هو الشيطان الحقيقي، الذي يقتل ويسرق وينهب، ويحتل الأرض منذ ستة وسبعين عامًا"

"العالم لا ينتبه للضعيف يا أحمد، لا يعترف بوجوده الإنساني ولا بقيمته البشرية، لذلك إن كنا لا نملك القوة، فقد وجب علينا التصرف بذكاء، قوة الضعيف عدة وعتادًا تكمن في حكمته العقلية"

تنهد أحمد وقال: "وما العمل الآن بعد كل ما حصل؟"

"لن يلتفت أحد لجثتنا المحروقة، ولا لمدينتنا المأكولة، نحتاج إلى الكثير من التمرکز حول الذات الفلسطينية، ومن ثمّ العربية لنهض، وهذا صعب في ظلّ الانقسام والتشتت السائد بيننا، صعب في ظلّ وجود الأحزاب المتفرقة، وتعدّد الرؤى التي ترفض الالتقاء."

قاطع حديثهما صوتُ طفلٍ ينادي من أمام باب الخيمة: "عمو، عمّو يوسف" خرج يوسف وابتسم قائلاً: "أهلاً يا إبراهيم"

مسح على رأس إبراهيم الخالي من الشعر، وجلس القرفصاء ثم قال: "تفضل يا عمو، شو بديك؟"

"عمو، أنا مش عارف كيف بدي أشكرک، أنا بحبك كثير"

احتضنه يوسف وقال: "لا داعي للشكر يا إبراهيم، وأنا أحبک أكثر"

ثمّ نظر إليه متفحصاً، فوجده يرتدي قميصاً فضفاضاً كبيراً على جسده الصغير، ضحك قائلاً: "ما هذا القميص الذي ترتديه يا إبراهيم؟"

"قميص أبي، أشعر بالأمان حين أرتديه"

"وهل ترتديه كثيرا؟"

"عند النوم، والخوف"

"هل كنت تستعد للنوم قبل مجيئك لي؟"

"أجل"

ضمّه يوسف بشدة وهو يقول: "حبيبي يا إبراهيم، لقد أثرتني على فراشك

الدافئ، حماك الله ورعاك"

إبراهيم طفلٌ يبلغ من العمر عشر سنوات، مصابٌ بمرض السرطان،

يسكن في الخيمة المجاورة ليوسف، استشهد والده خلال الحرب، وتقوم أمّه

برعايته هو وأخوه الصغير، المريض أيضًا بالسرطان.

اعتاد يوسف أن يشتري لهم ما يتوفر من خضار ولحوم في السوق، إن

وجدت، كي يبعدهم عن أكل المعلبات المضرة بصحتهم قدر المستطاع، كما

أنّه ابتاع لهم في الأمس موقدا غازيًا، كي يحميهم من مخاطر الطهو على النار،

والسموم الناتجة عن حرق النايلون والأخشاب.

ابتسم إبراهيم ببراءة وإشراق وقال ليوسف مودعًا: "لن أنسى لك هذا

المعروف أبدًا يا عمو"

"لا تشكرني يا إبراهيم لم أفعل شيئًا، وأنا لن أنسى مجيئك إليّ في هذا البرد

ما حييت يا إبراهيم، شفاك الله حبيبي"

استقبل يوسف قبل شهر خبر العثور على جثة جدّه في مكانٍ قريبٍ من بيته في بيت حانون، ثمّ بعدها بيومين علِم من أسير أُفُرج عنه أنّ أخاه مازنا يقبع في سجن رامون، والآن هو ينتظر أي خبر يتعلق بورد.

.....

في صباح اليوم التالي..

جاء إيمان اتصال يفيد بأنّ أختها ورد حُرّرت، وهي ترقد الآن في مستشفى أبو يوسف النجار في رفح، أمّنت إيمان الطفلتين عند آية، ثمّ ذهبت ركضا هي ويامن ليوسف ليخبراه فلم يجدها، فانطلقا مسرعين إلى المستشفى. أطلقت إيمان شهقة متألمة حين وصلت باب الغرفة ورأت أختها، وضعت كفّها على فمها كي تكتم صوتها، وسالت الدموع صامتة من عينيها كماء ينساب من كأسٍ مشقوق.

كانت ورد ممددة فوق السرير، تحملق في سقف الغرفة، قال الطبيب لإيمان: "وضعها الجسدي مستقر، هناك آثار لتعذيب وكدمات تملؤ جسدها، جاءتنا منذ أسبوع بنزيفٍ في قدمها أثر عليها فاضطررنا لبترتها، لكننا لا نستطيع توضيح حالتها النفسية والعقلية، أنصح بعرضها على طبيب مختص بهذا الجانب، فهي لا تتحدث ولا تخبر أحد بشيء، تستمر في التحديق بخوف فيمن حولها"

"كيف تعرفتم عليها؟"

"عرفتها سيدة قالت إنّها من أهل بيت حانون، كان اسمها.." ثمّ سكّت للحظات محاولا التذكر: "ها.. جارتكم أم عماد، وأعطتنا رقمك" دخلت إيمان على أختها تجرّ قدميها جرّاً، متوجسة وتائهة، شاهدت سيدة على السرير المجاور لسرير أختها مبتورة القدمين، وأخرى على السرير المقابل له لم يتبق لها غير يد واحدة، وصلت عند أختها، وهمست: "ورد" حملت ورد في وجه أختها ثمّ أجهشت بالبكاء، احتضنتها إيمان وكادت جدران المشفى تتصدّع حين سمعت نسيجهما المتصاعد.

كان يامن يقف أمام باب الغرفة يشاهد من بعيد، وقد انساب البحر الرمادي من عينيه ليلبّل ذقنه ورقبته، تحسّس قبضة يده التي سالت منها الدماء نتيجة ضرباته الغاضبة المتألّمة لحائط المشفى، بعدما شاهد أخته في تلك الحالة، ظلّ واقفاً واجماً، شعر بأنّ شخصاً ما قد انتزع قلبه من مكانه وداس عليه بقدمه حتى أماته، فاشتعلت نفسه بأحاديث السخط والاستنكار والغضب.

أخبر الطبيب إيمان بإمكانية إخراج ورد، فوضّعها الجسدي جيد، ومن الأفضل بقاؤها مع عائلتها، كما أنّ المشفى يكتظّ بالحالات التي تحتاج للعلاج وتفترش الأرض والطرق.

طلبت إيمان من إحدى الممرضات كرسياً متحركاً، كي تنقل به ورد إلى السيارة التي عثر عليها يامن ببالغ الصعوبة، فقالت: "للأسف لا يوجد، تعلمين الوضع"

"طيب، عكازات؟ أي شيء يساعد؟"

"للأسف..."

خرجت ورد مستعينة بإيمان ويامن على الحركة، أركبها السيارة ثم ركبا، قطعت السيارة الطرق نحو المخيم في مواصي رفح وسط أنين القلوب المتواصل.

في الطريق، طلبت إيمان من السائق المرور بالسوق، واشترت فراشا لأختها من فراش المساعدات الذي يُباع في الأسواق بأسعار باهظة. هيأت لها فراشها، وأراحها ثم دثرتها، نظرت إليها بحنان ومسحت على وجنتيها قائلة: "ورد أتعرفين من أنا؟"

همست ورد وتعاير الذعر ظاهرة على وجهها: "إيمان"

وضعت إيمان يدها على صدرها قائلة: "الحمد لله"

ثم أردفت: "ما الذي حصل معكِ؟ هل يمكنكِ إخباري؟"

هزّت ورد رأسها بعنفٍ شديدٍ، ووضعت يديها على أذنيها في علامة للرفض المطلق.

"حسنا، استريحِي أُنْتِ، سنتحدّث لاحقا"

كان يامن يجلس فوق قطعة من الخشب بجوار ورد، يهزّ قدميه بحركة سريعة، ويعصّ على شفّتيه من وقت لآخر.

خرجت إيمان بعد أن أوصت يامن بعدم مغادرة الخيمة والانتباه لورد، مرّت بخيمة آية وقالت: "اتحمليني يا آية، سأترك الطفلتين مدّة إضافية عندك ريشما أرتب أمور ورد"

أمسكت آية بكفّي إيمان قائلة: "سامحك الله، أنتما أختاي، طمئني، كيف هي ورد؟ هل أستطيع رؤيتها؟"
 "لم تعد ورد السابقة، تغيّرت كثيراً يا آية، لا يمكنني تركك ترينها الآن، سامحيني"

"لا حول ولا قوة إلا بالله، ما الذي حصل معها؟"
 ردّت إيمان بصوتٍ مختنق: "لا أعلم، سأذهب الآن، سأمرّ بعد قليل لأخذ الصغيرتين"

"لا عليك، الله يهونها من عنده"
 بعد خمس دقائق كانت إيمان على باب خيمة يوسف تناديه، خرج مجيباً:
 "نعم يا إيمان؟"

"جئتُك في الصباح ولم أجدك"
 "خرجتُ إلى السوق برفقة أحمد، ما حال وجهك هذا؟ تبدين متوترة، أخبريني"
 "ورد..."

"ما بها؟ هل حصل لها شيء؟ هل من خبر؟ قولي"
 "عندي في الخيمة"

"م.. ماذا؟ كيف؟ متى؟ كيف هي؟"

"كلّ ما أستطيع قوله، إنّها ليست ورد التي نعرف"

سابق يوسف أحصنة الزمن وقتّت الوقت إلى أجزاءٍ من الثانية راكضاً نحو ورد، وقف على باب الخيمة مصدوما حين رآها جالسة تحدّق مذعورة في أرجاء الخيمة، وقد اختفت ملامح الشجاعة والتحدّي من وجهها، كان رأسها يتحرك كرأس نحلة، تنقله بسرعة يمينا ويسارا، للأعلى والأسفل، يتخذ جسدها ردّات فعلٍ دفاعية عند كلّ صوتٍ مرتفع، نسيت عيناها الأحلام الوردية التي كانت تزورها، واختفت قبسات الثور من ملامح وجهها.

كوّر كفّه ووضع على فمه عاصاً سبّابته بقوة وهو يبكي، بعد عدّة دقائق، تشجّع وتقدّم بضع خطوات مناديا: "ورد".

فجاء ردّ فعلها كصهريج من نار فُتح عليه فأحرقه وأذابه.

تكوّرت ورد على نفسها، وبدأت ترتجف، وضعت ذراعها الأيمن فوق رأسها في حركةٍ تنم عن محاولتها حماية نفسها من خطرٍ مُحْدِق بها، ثمّ بدأت تصرخ بتألّم: "يوسف لا.. لا تفعل"

وقف يامن مندهشا محدّقا في يوسف، وكذلك فعلت إيمان، في حين تسرّر يوسف مكانه، حائرا، ممزقا، متناثرا بين زوايا الصدمة، لا يفهم ما الذي يحصل.

استفاق من صدمته على لكماتٍ متتالية، ودفعاتٍ عنيفة من قبل يامن أخرجته خارج الخيمة، صاح يامن بغضب: "يا كلب، ماذا فعلت بها؟" لم يُبدِ يوسف ردّة فعل، ظلّ صامتا مشدوها، فأضاف يامن: "تمثل علينا المحبة والاهتمام وتأتي ركضا! لو اقتربت من هنا مرّة أخرى أقتلك، أسمع؟ أقتلك، عميلٌ حقيرٌ قذر"

سحبته إيمان قائلة: "يامن .. لا تتسرع، علينا أن نستوضح الأمر" "ما الذي تريدان استيضاحه؟ الرعب داخل عينيها يوضح كلّ شيء، اغرب من هنا يا يوسف، هيا، ممثل حقير قذر، لقد مات قلبي وهذا يعني أنّه لن يهمني إن قتلتك، اغرب من هنا"

أدخلت إيمان يامن إلى الخيمة بصعوبة، وبقي يوسف على حالته غارقاً في التفكير لساعاتٍ طويلة لا يستوعب شيئاً.

.....

بعد يومين..

قطع يوسف رمال مواصي رفح وصولاً إلى الشاطئ، كان يسير مرهقا مترنحا كالسكران، يتمسك بورد مثل آخر شعاع في عتمة التهمت عائلته، طفولته ووطنه.

لم تكن لها في وجدانه صورة فتاةٍ عادية، بل كان يراها جزءاً من روحه المبعثرة، وحاجزاً قوياً يصدّ به الريح العاتية التي تحاول اجتثاث جذوره.

جلس على ركبتيه صارخا باكيا، صائحا: "لماذا؟ لماذا يا الله؟"
كان أحمد يتتبعه، وحين وصله جلس القرفصاء مواجهها له، ثم احتضنه
بشدة محاولا تهدئته، ظل يبكي بحرقة كطفل صغير، فرفع أحمد رأسه صارخا
فيه: "كفى، كفى، ألا ترى كيف ينظر الناس إلينا؟"
"لا يهمني، دعهم ينظرون ويحدقون ويتحدثون"
"كفى بكاء، لا يستحق أحد كل هذا منك، لا يستحق"
"ليت دمعي بحر حتى أجود به من أجل ورد"
"أنت مجنون!"

"أنت تتهمني بالمجنون؟ بعد أن خسرت عائلتي.. أبي.. أمي.. جدي وإخوتي..
لم يبق لي غير حبي لها، ذلك الحب الذي نشأ في قبل أن أعرف الخسارات،
لم يبق لي غير ذكريات طفولتنا، أجل أنا هو المجنون.. ولست أنت فلا
تحكم"

قال أحمد بمحان وحزم: "لا يليق برجل هذا الضعف، يجب أن تستيقظ ممّا
وضعت نفسك فيه يا يوسف"

"المجنون تائه عن نفسه واليقظة في طريق العشق أمر سيئ يا صديقي"
"انظر لحالتك هذه، انظر لنفسك، لقد أصبحت كخيال الماتة، لا روح فيك"
اختنق صوت يوسف قائلا: "حتى الأسماء التي كان يجب أن أناديهما كلها
اختفت، تبخرت بين ليلة وضحاها، لم يبق إلا اسم ورد، هي الشيء الحقيقي"

في عالمي المهدم، فكيف لا أكون مظلماً كالليل وأنا محرومٌ من نهارها؟
وكيف لا أنوح بمرارةٍ وأئن وروحي محروقة لأجل عذابها؟

"لا حول ولا قوة إلا بالله، ألا ترى الحالة التي وصلت إليها؟ ألا تشعر
بالكدمات التي صنعها يامن على وجهك كي تبتعد عنها، ألم تحف على نفسك
حين اتهمك يامن وإيمان بأنك وراء ما حصل لها وبأنك خائن وعميل؟!"
"الألم والوجع لأجلها معشوق، وإني لجاعل من تراب الغم كحلا لعيني كي
تمتلئ مدامعي بالدرّ؛ فأذرفه على بابها"

ضرب أحمد بكفيه قائلاً: "لا إله إلا الله، سمعتُ بمجنون ليلى ولم أصدق،
ولكني الآن رأيتُ المجنون فصدّقت، جنونك صنع منك شاعراً، لا حول ولا
قوة إلا بالله"

ثم أمسك بذراعي يوسف ونظر داخل عينيه: "اسمعي، يجب أن ترحل من
هنا، صدّقي، يجب أن تسافري تكمل دراستك، لن ينفعك شيء آخر"
صرخ يوسف: "لن أسافر بدونها"

أكمل أحمد بغضب: "أنت غبي يا هذا، متعبٌ ومستفز، ستجد امرأةً أجمل
منها وأفضل إن تركتَ كلَّ شيءٍ وذهبت، ألم يخلق الله غير ورد على هذه
الأرض؟ ثم كيف تتمسك بمن أصبحت بلا عقل ولا قدم؟!"

لكمه يوسف على وجهه لكمة أسقطته أرضاً، ثم وقف على قدميه وقال
بغضب شديد احمرّ على إثره وجهه وبرزت عروقه: "قلتُ لك لا تتلفظ
باسمها، أنت لم تعش شيئاً عميقاً مع أي امرأة من قبل، فلا تتدخل"

هم بالرحيل فتوقف قائلاً: "كما أن جميع علاقاتك كانت عابرة بهدف التسلية فقط، من لا يجد من ينتمي له يظل ناقصاً مثلك"
ثم أدار ظهره ومشى، فصرخ أحمد من خلفه: "اذهب، تطوف حولها كالأبله، لا تعلم أن الأرض مليئة بالنساء"

توقف يوسف وقال بصوت مرتفع: "قلتُ لك مسبقاً بأيّ أطوف حول نفسي يا غبي، لن تفهم، فهل تبصرعين الجسد ما هو مكنون في صميم الروح؟!"
نظر يوسف إلى الأطفال والرجال وبعض النسوة الذين تجمعوا من حوله، وقال: "انتهت المسرحية، لا شيء تشاهدونه، كل واحد يلتهى بنفسه"
وأكمل طريقه عائداً، ذهب يوسف إلى ورد من جديد فقابل يامن أمام الخيمة، شدّه يامن من ياقته بغضب: "ألم أقل لك ألا تأتي إلى هنا؟ ما الذي جاء بك؟"

خرجت إيمان على صوته قائلة: "يامن اتركه"
ثم نظرت باتجاه يوسف وقالت ببعض الغضب: "ماذا تريد يا يوسف؟"
"أريد رؤية ورد"
ردّت إيمان: "لن نسمح لك يا يوسف، ألا ترى كيف تصبح حالتها عند رؤيتك؟"

قال يوسف بنبرة مترجية: "للمرة الأخيرة"

صرخ يامن: "اسمع يا هذا والله إن لم ترحل أبلغ عنك رجال الأمن، أقول لهم بأن هناك خائناً عميلاً يدور بيننا، وقد تسبّب في عذاب زوجته حين كانت في الأسر"

قال يوسف بغضب: "تبّاً لك يا يامن، أنت تتهمني اتهاماً باطلاً لا صحة له، لقد خرجتُ بعد أسبوعين، أمّا ورد فخرجت بعد ثلاثة أشهر، أقسم لك أنّي لم أرها، ما هذا الاتهام؟"

"لا أتهمك، ولكن عينيها تخبرنا بحقيقتك، ثمّ كيف خرجت بعد أسبوعين وأخوك من المقاومة؟! لا أستبعد أن تكون أنت من سلّمه!"

لكمه يوسف بقوة، قائلاً: "إلى هنا ولن أسمح لك، فلينظر عقلك إلى كلماتك قبل خروجها من فمك، تحمّلت كلامك اللاذع وشتائمك وضربك إكراماً لروح عمي الله يرحمه، واحتراماً لوجود ورد، ومراعاة لألمك أنت وإيمان، أمّا أن تتماذى إلى هذه الدرجة فلن تسلم منّي يا يامن"

نهض يامن وهمّ بضربه لولا إمساك أخته له قائلة: "يامن، توقف، هيا اذهب من هنا، أرجوك، أنا أتصرف"

نظر إلى أخته ماسحاً قطراتٍ من الدماء سالت من أنفه، وقال: "لأجلك فقط"، ثمّ مشى مبتعداً.

قال يوسف باستجداء: "إيمان، للمرّة الأخيرة أرجوك، إن لم تتقبّلني، أعدك بأنّي سأرحل عنها للأبد، أرجوك"

أخذت إيمان نفسها طويلاً ثم قالت: "حسناً، لكن إن ساءت حالتها ستخرج فوراً"

دخل يوسف بخطواتٍ مثقلة بالتوجس، نظرت إليه ورد بعينيها الخضراوين اللتين ارتجف فيهما الخوف،

تراجعت للخلف، فارتطمت بنايلون الخيمة الذي تحرّك من مكانه، صرخت: "يوسف.. لا"

وقف يوسف مكانه، وقال بحنانٍ وقد لمع الدمع على عتبات عينيه: "ورد.. أنا يوسفك، حبيبك، بيتك الآمن، ألم تقولي عني هذا؟ لم تخافين مني؟"

ظلت ورد على حالها من الفَرْق، اقترب أكثر وأصبح مجاوراً لها، جلس القرفصاء، مدّ يده ببطءٍ ورفق: "انظري، هذا معصمي الذي كنتِ تجدين فيه الأمان حين تتحسّسين نبضه، ألم تقولي لي ذات يوم بأنّ هذا النبض المتسارع تصمّت في حضرته كلّ لغات العالم، فلا يلزمني أن أنطق بأيّ حرف لأعبر عن مشاعري اتجاهك؟"

لم أكن صاحب كلامٍ مزيفٍ إذن، لم أستخدم لغة كاذبة لأمنحك هذا الشعور، وإنّما كان شيئاً صادقاً طاهراً نقياً وهو نبض القلب حين يحبّ، فلم تخافين مني؟ هل يمكن للقلب أن يزيف نبضه؟"

قرّب يده أكثر: "ورد انظري.. أمسكي بمعصمي واشعري بهذا العشق الطاهر، أمسكي باليد التي لم تتخذك أبداً يا ورد"

قالت ورد برجاءٍ باكٍ وهي تحاول حماية نفسها: "لا تفعل أرجوك.. أنا ورد.. هل نسيت من تكون ورد؟"

اقترب أكثر متجاهلاً، محاولاً قلب مشاعرها، فصرخت بصوت مرتفع: "يوسف.. لاااااا"

احمّرت عيناه واحتقنتا، نهض وتراجع خطوات ثم قال بألم: "حسنًا سأذهب، ولكن اعلمي أن أنفاسي معلقة بخضراويك.. حيث تسكن الروح، سأعود يا ورد، حين تتعافين ستجدينني واقفًا أمام بابك، إلى اللقاء يا روح الروح"

أدار ظهره وخرج من الخيمة مسرعًا هائمًا على وجهه، لا يجد عنوانًا يريح عنده روحه المتعبة ونفسه المتشظية.

دخلت إيمان مسرعة إلى أختها، احتضنتها بقوة، في حين كانت ورد ترتجف وتبكي بحرقة، وتشتكي من ألم شديد في معدتها. حاولت إيمان تهدئتها، وقد خطرت لها فكرة، وعزمت على تنفيذها بأسرع وقتٍ ممكن.

حين جاء يامن عصرا، وجد إيمان تجلس سرحانة شاردة، وكانت ورد تغطّ في نوم عميق، سألت: "كيف نامت؟"

"أعطيتها منوم مرة أخرى"

"إلى متى ستستمر حالتها هذه؟"

"لا علم لي، طلبتُ مساعدة طبيب نفسي دلّني عليه إحدى زميلاتي فقال
بأنّه من الصعب علاجها هنا وفي هذه الظروف، كما أنّ الأدوية العصبية
والنفسية تكاد تكون معدومة"

"وما العمل؟"

"فكرتُ في شيءٍ يا يامن، لا أدري إن كنتَ تؤيدني"

"ما هو؟"

"نسافر"

"نسافر؟! وهل الموضوع بهذه البساطة؟"

"من أي ناحية تستصعبه؟"

"تعلمين أنّ أمر السفر صعب، كي نسافر يجب أن ندفع، ثمّ ننتظر من
أسبوعين إلى شهر ليصلنا الدور في كشوفات السفر"

"وماذا بعد؟ أغير ذلك؟"

"لا أظنّ أنّ من يسافر سيستطيع العودة، خصوصاً إن تمّ احتلال المعبر، يعني
إن كنّا سنسافر فاحتمال رجوعنا ضئيل جداً"

"غيره؟"

"ستكونين معرضة لخسارة عملك، والمستقبل مجهول"

"المستقبل مجهول في كلّ الأحوال يا يامن، والعمل لا وزن له حين يوضع
مقابل كفة العائلة، رزاق الأرض واحد، وبلادنا لن نتخلى عنها، إنّما نفعل
كلّ هذا لأجل بقائنا، فبقاؤها من بقائنا. إنّ سافرنا أستطيع علاج ورد

وتستطيع أنت الدراسة، وأستطيع تأمين حياة كريمة لجوري ويافا، ولو مؤقتاً"

"لكن يافا؟"

"يافا تحت وصايتي القانونيّة، لا مشاكل في سفرها، لا أحد لها هنا، لا أحد، أتقلق عليها يا يامن؟"

"طبعاً، أحببْتُها كثيراً، كجوري وأكثر"

"هناك جانب لطيف فيكَ يا يامن، رغم غضبك الدائم"

"أكمل يامن متجاهلاً إطرأها: "والمال؟ علينا دفع مبلغ طائل للتنسيق والسفر"

"ألا نحمل الجنسية المصرية من أمّي رحمها الله؟ سندفع أقل"

"لكن جوري ويافا لا تحملانها"

"يامن، أنا أدّخر بعض المال، سيكفيّنا للتنسيق إن شاء الله، ماذا قلت؟"

"ولكنّي لا أرضى بأن تدفعي مدّخراتك لأجلنا"

"ورد وأنت أهم عندي من كلّ مال الدنيا، يجب علاج ورد، افهمني، وأنت في

الثانوية العامة، ويجب أن تكمل دراستك، إذا سافرنا يمكنك متابعة

الدراسة عن طريق السفارة"

"وكيف نعيش؟"

"إن شاء الله يبقى الراتب جاريا، والله لا يضيّع عبدا توكل عليه، ثم إنك شاب، ألن تعمل؟"

"بلى"

"ماذا قلت؟ ألا ترغب بزيارة وطنك الثاني الذي لم تزره من قبل؟"
"أرغب طبعاً، ولكني وددت لو زرته في ظروف أفضل، ألن تنتهي هذه الحرب قريباً؟"

"أراها طويلة يا يامن، الإجمام يشتدّ يومياً، والهمجية تزيد وتيرتها دون رادع، اسمعني يا يامن، يجب أن أنتشل من تبقى من عائلتنا، إن بقيت ورد في هذه الظروف فحتماً ستهلك، ما رأيك؟"

صمت يامن لثوانٍ ثم قال: "توكلي على الله"

"هناك موضوع آخر مهم يا يامن"

"ما هو؟"

"لا تشع بين الناس أمر يوسف وورد، لم نتأكد بعد من أنّ ليوسف يدا فيما حصل لورد"

ردّ يامن بعصبية: "كيف لم نتأكد؟ ألا تكفي تعبيرات أختك المقهورة؟"

قالت إيمان بهدوء: "يامن أرجوك، حرام ظلمه، دعنا نعمل بأصلنا"

"حاضر، مع العلم أنّي لا أظلمه، ولكن ليس في فضحه وسط الناس والمجتمع أدنى اهتمام"

صمت يامن قليلاً ثم سأل: "وماذا لو سألني الناس عنهما؟"

"لن يسألك أحد، أساسا سيقول الناس فيما بينهم خرجت ورد من السجن خرقاء عرجاء، فتركها زوجها، هكذا هي طبيعة المجتمع"
تأفف يامن وقال: "لا تقلقي، إنَّ آخر ما أفكر به هو الحديث مع الناس في هذا الوقت، فما بالك بالإجابة عن أسئلة تخص عائلتي؟ لن أتحدث عن يوسف أبداً"

"جيد، سأذهب لألقي نظرة على أمّ خالد، وأطمئن عن وضع ابنها، لن أوصيك بخصوص ورد"
"لا تقلقي"

نادت إيمان على أمّ خالد من أمام باب الخيمة، فجاء صوتها مرتفعاً يزينه الفرح: "تعالى يا إيمان، تعالى"
دخلت إيمان فوجدتها تكلم ابنها، وضعت يدها على سماعة الهاتف المحمول وهمست لها: "لسة اليوم هدي الوضع شوي عندهم وراح يجيب الشيكولاتة، بالأمس أعطاه رجل طيب الله يخلف عليه بعض الأرز"
"الحمد لله"

وأكملت حديثها مع ابنها: "طمّني يمّا، لقيتها"
"سأبحث، ولكن أريد أن أقول لك شيئاً"
"قل"

"الدار مسروقة يمّا"

"جد، إيش سارقين؟"

"الشاشة والشلاجة والغسالة، و.."

"لا حول ولا قوة إلا بالله"

"الكنب مثل ما هو، لقيتها يَمّا، هيا في إيدي"

"الحمد لله، يلا ارجع على بيت خالك بسرعة، بعدين بتقلي شو سارقين

الحرامية، الله لا يكسبهم"

سكت صوت خالد للحظات، وسُمع عبر الهاتف صوت أزيزٍ مزعج، قالت أم

خالد: "خالد، وينك؟"

"يَمّا.. الكواد كابتر قدامي، دخلت من الشباك"

"شو بتحكي؟"

"الكواد كابتر.. أشهد أن لا إله .."

سُمع عبر الهاتف دوي إطلاق نار، وأصواتٌ ضجيجٍ أخرى، وكان آخر ما

سمعته أم خالد هو صوت حشجة.. ثم شهقة الموت.

أطلقت أم خالد صرخة هزت أرجاء المخيم، وتشقق شيء في الأرض مع

صرختها، كأنّ بذورها ذوت في جوفها، هرولت إيمان باتجاهها لتحضنها

وتهدئها، وما هي إلا ثوانٍ حتى تجمّعت عشرات من النسوة عليها ومن

حولها، ولكن أم خالد انسلت من بينهن، وجعلت تلف المخيم وفي يدها

الهاتف، تتكلم: "ألو يَمّا، لقيتها؟ الشيكولاتة، حبيبي"

ثم تطلق من فمها صوت طلقاتٍ نارية، وتُقلّد شهقة الموت، وتبكي.

ليلتها هبّت الرياح، وهمست الأشجار في ما بينها، كأنّ في أغصانها لغاتٌ خفيّة تنذر بالمطر المقبل، أمطرت السماء بغزارة، مطرا غير المطر المعروف، كانت كلّ قطرة فيه تسقط فوق الرؤوس كأنّها سوط عذاب.

ظلّت أم خالد على نفس حالتها تحت المطر، تهلوس جيئةً وذهاباً، وانشغل جميع من في المخيم بللمة أمتعتهم ومحاوله منع المياه من غمرها، كانوا يضعون الأواني والدلاء تحت ثقب الخيم فلا تكفيها، ويصنعون سدوداً من الرمال أمام الخيم فتنجرف بفعل المطر والريح.

بسط الآباء والأمهات يداً لتلمّس الرحمة من الله، ويداً أخرى في محاولة حماية أولادهم من عصّات البرد القاتلة.

وقفت إيمان تحت المطر لتبكي بلا خوف من رؤية دموعها، كانت تنشج مع نشيج السماء من فوقها، تتذكر زوجها وأولادها وليالي الشتاء المُمطرة، الاجتماع حول المدفأة، المقرمشات والمسليات والحلويات، أمّها وأبّاها وحكاياهما التي لا تنتهي، مشاكسات يامن وضحكات ورد، والحياة الجميلة الهانئة التي كانت تسود المدينة قبل عدّة أشهر.

بكت كثيراً على العائلة المتشظية، والوطن المحروق، وعلى أمّ خالد وآية، والمخيم كلّهُ.

ظلّ يامن يترصد تأثير المطر على سقف الخيمة وجدرانها مخافة التسرّب، ومكثت جوري تراقب كشاف الهاتف المحمول كي لا يطفأ فتذعر ورد من

الظلام كعادتها، في حين دفنت يافا نفسها في فراش ورد، وغفت قابضة بكفها الصغيرة على إبهام ورد.

أما يوسف فقد كان متكورا وسط فراشه، يدعي النوم والدموع تَبَلَّل ذراعه التي اتخذها وسادة، يتردد على مسامعه صوت أخيه مازن مودعاً: "استودعتك الله الذي لا تضيع ودائعه.."

وصوت جدّه معاتباً: "أنت دائماً ما تخفي عني الأمور يا يوسف"، وقد لمعت عينا محمد الحالماتن المعاتبان في قعر عقله.

يرتجف مع رجفات جسد ورد التي لم تغادر مخيلته، وتنقر في أذنيه أصوات قطرات الماء المنسكبة، في وعاءٍ وضعه أحمد وهو يتأفف تحت شق في سقف الخيمة.

.....

بعد يومين..

"إذا كان يجري الدّهرُ عكسُ مَرامِنا.. فهل جَدُّنا يُجِدي أو الفِكرُ يَنفَعُ؟"
"وكم مكثت أمام جوجل بحثاً عن هذه المقولة يا أحمد؟" سأل يوسف وهو يبتسم

"أحاول محادثتك بلغةٍ تحبّها وتفهمها، كي تقتنع بكلامي وتنتصح"
"هناك ظروف تأتي علينا يا أحمد تكون أقوى من كلّ الكلمات، فلا تؤثر بنا كلمة، ولا يحرك مشاعرنا اقتباس، هل تعرف صاحب المقولة؟"

"طبعًا.. عمر الخيال" أجاب أحمد بفخر

ضحك يوسف وقال: "الخيّام يا ابني.. الخيالام"

"من الجيّد أنّك ضحكت أصلا، ها.. ما قولك؟"

"فيم؟"

"في السفر؟"

"أفّ!"

قاطعته صوت إيمان تنادي عليه، خرج مسرعًا مندهشًا من مجيئها إليه،

قال: "تفضّلي!"

قالت إيمان بحزم: "سأخذ ورد وأسافر"

قال بدهشة: "ماذا؟" ثمّ أردف: "وهل تبلغيني أم تستشيريني؟"

أجابت بالحزم ذاته: "أبلغك طبعًا، سقط حقك في الاستشارة"

"ولمّ لم يسقط حقّي في الإبلاغ؟"

"أخاف بسبب وضعها النفسي أن تُطلب موافقتك"

"وهل تجب عليّ الموافقة؟"

"إن فعلت غير ذلك فستكون حكمتَ على ورد بالموت والهلاك"

سأل يوسف بلا مبالاة: "وما المطلوب منّي أيضًا؟"

"ستبدأ في إجراءات الطلاق"

ردّ بغضب: "لن أفعل.. هذا ليس من حقّك، هذا من حقّي أنا وورد فقط"

"حسنًا لن أجادلك في هذا الآن، ولكنني أحذرك، لن تمنع سفرها"

"ومتى السفر؟"

"لا أعلم.. لقد دفعتُ النقود لمكتب التنسيقات بالأمس، ربّما يكون بعد أسبوعين أو أكثر"

"إيمان، إن كنتِ تنوين من السفر العلاج، فعلاجها واجب عليّ أنا"

ردّت إيمان: "إذا سقط حقك فقد سقط واجبك أيضا"

قال يوسف بسخرية: "أشكرك على جبر خاطري"

استدارت إيمان قائلة: "سلام يا يوسف"

دخل يوسف إلى صديقه قائلا: "توكل على الله"

ردّ أحمد: "دائما إن شاء الله، ولكن في ماذا تقصد؟"

"في السفر"

سأل أحمد بدهشة: "حقا؟!"

"أجل، ولكن ستصبر عليّ، سأحتاج إلى وقتٍ طويلٍ كي أردّ لك الدين"

ضحك أحمد بخفّة وقال: "لا تقلق، لن أتصرف معك بنذالة"

"أثق أنّك تحبني، وكثيرًا أيضًا"

.....

بعد شهر..

انفصلت آية عن عمر بعد معاناة شديدة مع أخلاقه السيئة، ونقلت خيمتها بجوار خيمة أهلها في تل السلطان في رفح.

كانت آية موهوبة ومحترفة في إعداد الطعام، وقد استغلت هذه الموهبة في صناعة بعض الأطعمة وبيعها لإعالة نفسها وابنها كريم.

في صباح العاشر من رمضان دخلت آية على خيمة إيمان وورد تبكي: "وقت السفر إذن، سأشتاق لكما"

مسحت على وجنتي ورد قائلة: "أساساً أنا أشتاقك يا صديقي، أشتاق لصوتك الناعم الهادئ المريح، لحكمتك، لرأيك السديد، ولضحكتك التي كانت تضيء أيامي، أشتاق لورد الغائبة عنا"

نظرت إليها ورد بعينين تتجمع على شرفتيهما الدموع، أكملت آية: "أتعلمين؟ لقد انطفأت، ما عدتُ أضحك (ضحكة شرشيل الشريرة) كما كنتِ تسمينها، لم يعد صوتي صاخباً مدوّياً، وامتنعتُ عن إطلاق النكات والمزحات خلال الجلسات، جميعنا انطفأنا يا ورد، كبرنا وهرمنا وماتت أرواحنا من هول ما رأينا، أتمنى أن تعودتي كالسابق وأفضل"

ثم عانقتها قائلة: "أراكِ على خير.. حبيبتي"

ضمت إيمان آية بين ذراعيها: "لا تبكي، إنه شهر رمضان، ستستمرين بالدعاء من أجل الفرج القريب"

"إن شاء الله"

"آية، جميع ممتلكاتي في الخيمة لك، خذها"

"ولكن.."

"لا أحد لنا هنا، تعلمين الوضع، أعطتني زميلة طيبة كريمة تسكن في رفح أواني الطهو، قالت إنها لا تريدها، فهي لك يا آية، وستقبلين مني الفراش والأغطية وموقد الغاز"

تحت آية بعينها قليلا وهمست: "ولكن هذا كثير"

تنهدت إيمان ثم قالت: "أريدك أن تستمري في صنع السنبوسك وبيعه، وفي صناعة الجبن واللبنه قدر المستطاع وبيعها، أنت فتانة في صنع الطعام، وإن شاء الله بعد رمضان تستمر المساعدات والمواد الغذائية في الدخول كما هي الآن، لن تستسلمي، عديني"

ابتسمت آية: "أعدك"

"وأنا في ظهرك، إن احتجتِ لشيء، رسالة عالواتس آب تكفي"

"بارك الله فيك"

"خذي نايلون الخيمة، وانصبيها بجوارك، إن وجدتِ متسعا لها، اجعليها لنثر السعادة والأمل، اكتبتي عليها عنوان (صناعة الأمل)، لاعبي الأطفال بروحك المرحه، وغني لهم أغاني الطفولة، واضحي لهم ضحكة سبيس تون الخاصة بك"

ضحكت آية وقالت: "لا تجعليني أبكي الآن"

"لن أفعل، ولكن من استطاع تقديم شيء لهم فليقدّم، وإن أكرمني الله
وبسط لي في رزقي، سأساعد في ذلك قدر المستطاع"
"سأسعى لأكون عند حسن الظن"

تعانقا عناقاً طويلاً، ثم قالت إيمان بعدما مسحت دموعها: "سأذهب لأودّع
الباقيين"

ذهبت لتسلّم على الخالة سلوى وزوجها العمّ زياد، وجدتهما على حالهما،
يجلسان أمام مدخل الخيمة، يتحدثان ويتبادلان الهموم والجِدال.
ردّت السلام وقالت: "أراكم على خير، جاء موعد السفر"
قالت الخالة سلوى وهي تحتضنها: "حبيبتي يا إيمان، ديروا بالكم على
بعض"

ردّ العم زياد: "تحافيش، والله غير تلحقهم جراي على سينا بالشبابش"
مسحت الخالة على كفّ إيمان مبتسمة لها، ثم أدارت وجهها نحو زوجها
وقالت ببعض الغضب: "تّف من تُمك يا رجل، وبعدين هو ضل في رجلينا
شبابش؟! معي هبل يا زياد!"

ضحكت إيمان وقالت: "إن شاء الله ما بيصير يا عم، سيناء مصرية وستبقى
كذلك، هي كنز يودّ الاحتلال الاستيلاء عليه، ولن يفلحوا بإذن الله"
قال العمّ زياد: "إن شاء الله يا بنتي إن شاء الله، الله لا يقدر ويهجرونا، الله
معكم"

وصلت إلى خيمة أمّ خالد فوجدتها على حالها، تتكلم عبر الهاتف، تُردّد نفس الكلمات: "ألويمّا، لقيتها؟ الشيكولاتة، حبيبي"

عانقتها بشدّة، تذكرت مرحها وضحكها، وموهبتها في التقليد، وأمسياتها وشاي الكرك اللذيذ، بكت بحرقة في حين كانت أمّ خالد تُطلق صوت طلاقاتٍ نارية من فمها، وتُقلّد شهقة الموت، وتبكي.

قالت إيمان لسوسن التي كانت تقف بجوارهما: "ديري بالك على إمّك يا سوسن"

ثمّ أضافت وهي تبتسم من وسط البكاء: "ولا تفتعي مشاكل لأجل الاستحمام!"

ابتسمت سوسن وقالت وهي تفتح ذراعيها للعناق: "الاستحمام في حدّ ذاته أصبح مشكلة يا خالة"

ضمّتها إيمان: "بعين الله حبيبتي، الله يفرجها من عنده، ديروا بالكم على بعض"

هدرت الشمس منذرة باقتراب وقت الرحيل، فلم يبرح يوسف مكانه الذي اتخذه لينظر إلى المغادرين من بعيد، ظلّ واقفا حزينا، يراقب بعينه العسليتين حتى اللحظة الأخيرة لصعود ورد إلى السيارة، راحلة مودّعة هذه الأرض التي اعتادا أن يطأها معًا منذ نعومة أظفارهما.

حادث نفسه: "زيت قنديلي تحوّل إلى ماء، سلسلة خانقة طوقني، أشعر بجبلٍ حول رقبتني يقيّدني في صرخاتك المتألّمة يا ورد"

كان مازن يجلس على الأرض الباردة، يؤلمه بطنه بشدة من آثار عملية جراحية لم تسلم من ركلات التعذيب، صائما يتلو سورة الملك التي يحفظ، فُتِح باب سجنه، ودخل عليه جندي كستنائي الشعر، عسلي العينين، وسيم الهيئة.

أحسّ الجندي بالهيبة حين دخل المكان، لم تكن هيبة الرجل نفسه الذي يجلس مُتَأَلِّماً جريحا أمامه، وإنّما هي هيبة الحق الذي يتدفق من نظراته، فوقف الجندي مذهولا متوترا للحظات، ابتلع توتره بصعوبة وقال بصوتٍ ألبسه الغلظة: "أيّها الكلب، انهض"
حدّق مازن داخل عيني الجندي بدهشة قائلا: "يوسف!"

لا تخف إن تأخر قلبي عليك
أنا ما أضعتُ السبيلا
ولكنني في الطريق إليك
وجدتُ الطريقَ طويلا

غيمَةً، غيمَةً يا حبيبي
سوف يكبرُ فينا المطر
وإنّا على موعدٍ يا حبيبي
فليس يخون التراب الشجر

ولو أخرتنا الجراح قليلا
ولو أخرتنا الجراح قليلا
فلا بدّ أن يستجيب القدر

ومن قال إنّي تركتُ ديارِي
ما دام قلبك في العمر دار
أحبّك لا شأن لي باختياري
فحبك عاصفة لا خيار

وأهزم باسمك كل جراحي
وأهزم باسمك كل جراحي
فأغنيتي في هواك انتصار

أغنية فايا يونان

-10-

2028/12/29

قال يامن مترنّحًا: "مع الخمر التي تنساح هذه الليلة، وآلات العزف التي تنشد فيما بينها، شيء واحد حرام، شيء واحد فقط، النوم!"
اقتحم شابان حانة PULP BAR التي تقع في شارع ألكسندرو سفولو، في مدينة سالونيك شمال اليونان.

دخلا مسرعين باحثين عن يامن، كان أحدهما طويل القامة أسود البشرة ملتحمًا، والآخر متوسط الطول قمحي اللون.
فتشا في أرجاء الحانة، فوجداه جالسًا على أحد المقاعد المقابلة لركن المشروبات، يشرب الكحول ويهذي، غائبًا عن نفسه، وعن الذين حوله.
أمسكاه من ذراعيه، فنظر إليهما بعينين ذابلتين غائبتين عن الواقع ثم قال:
"أدهم وعلي .. برافو ملك"

قال أدهم وهو يشدّ على ذراعه: "هيا يا يامن، انهض، سنذهب للمنزل، هيا"
نهض يامن وخرج برفقتهما دون أي مقاومة، ظلّ طوال الطريق يهذي بجمل وعبارات: "أريد أن أثنى فيهم، سلبوا مني أمي وأبي، ورد ساءت حلتها، عادت لنقطة الصفر، هي لا تتحسن، سأقتل يوسف، يوسف يجب أن يُقتل، يوسف يجب أن يموت"

في المنزل، خلعا عنه حذاءه وسترته، ثُمَّ مدّاه على سريره.
 اتصل علي بملك قائلا: "ملك، يامن في المنزل لا تقلقي"
 جلس أدهم على كرسيّ خشبي هزاز في الصالة وأخذ يحكّ لحيته قائلا: "ماذا
 سنفعل معه؟"
 ردّ عليه علي الذي كان يجلس مقابلا له على أريكة بيضاء: "يجب أن نتعامل
 معه بحزم وحكمة، لا يمكن أن يُترك هكذا ليهدر نفسه"
 "ألا يحتاج طبيبا؟" سأل أدهم باهتمام
 "المختص كاف حسب اعتقادي، ولدينا ملك"
 "لكنك تعرف أنّ ملك ضعيفة اتجاهه"
 "وهذا يعني أنّها ستفعل المستحيل لانتشاله"
 زمّ أدهم شفّتيه الكبيرتين ثُمَّ قال: "الماضي المؤلم لعنة تحلّ على الإنسان"
 "لكن حاضره مرتبط بماضيه ارتباطا كبيرا، فكلّ هذا حدث نتيجة
 انتكاسة أخته من جديد" ردّ علي
 قال أدهم: "وهذا يدلّ على أنّه لم يشف من ماضيه بعد"
 سأل علي وهو يعقد ذراعيه: "وكيف يُشفى الإنسان من ماضيه يا زول؟
 الأمر ليس سهلاً"
 ردّ أدهم بعد تفكير: "ألا توجد التوبة؟"
 "بلى"

"هي دعوة لكل مؤمن لنسيان الماضي، والتوكل على الله في ما هو قادم، مع عقد العزم على التغيير"

قال علي: "هذا شيء مختلف!"

حكّ أدهم لحيته وقال: "بقياس الأمور بعضها على بعض لا يكون كذلك، يامن يحتاج التقبل والرضا فقط، ثم بإمكانه محو الماضي والتخلّص من ثقله"

"ربّما، لكن لا تحكم على شيء صعب لم تعشه، النفوس تختلف"

"لا أحكم، ولا ألومه، أعانه الله على ما هو فيه، وأنا على يقين تام بأنّ النفوس تختلف وتُختبر أيضا"

طنّ هاتف علي من رسالة واردة، فتحتها قائلاً: "إنّها من ملك"

سأل أدهم: "ماذا تقول؟"

ردّ علي: "تقول: (غدا السبت يوم إجازة، أتمنى أن لا تغادروا المنزل وتبقوا

برفقة صديقكم يامن، حين تستيقظون فجراً حاولوا إيقاظه، سأرسل لكم

بعض الحاجيات صباحاً وأبلغكم بأمرها)"

طوى أدهم شفته السفلى للأسفل كعلامةٍ على التعجب والاستفسار.

....

في اليوم التالي فجرا..

استيقظ كلّ من أدهم وعلي لأداء صلاة الفجر كعادتهما، حاول علي إيقاظ يامن، ولكنه لم يُفلح، فجاء أدهم بدلو من الماء وسكبه فوق وجهه، نهض يامن مفزوعا شاتما، قال أدهم بنبرة صارمة: "راقب لسانك يا يامن"

أجاب يامن بعصبية: "تخيّل أن يفعل أحد بك هذا يا زول؟!!"
ردّ أدهم بحزم: "هيا، انهض، يجب أن تستحم وتتناول الإفطار، الكثير من الأنشطة تنتظرك"

سأل يامن ببعض العصبية: "هل أنت من تُقرّر؟"
أجاب أدهم بشيء من الحنان: "ولمّ لا؟ ألا يحق لصديق عزيز عليك أن يخطط يوما واحدا في حياتك؟"

قال يامن بصوت هادي: "بلى.. بالنظر إلى مواقفك معي، يحقّ"
كان أدهم وعلي صديقين عزيزين ليامن، وكان أعزهما على قلبه أدهم الذي عُرف بمحنانه وطيبته ورجاحة عقله وحفظة لسرّ يامن.

تعرّف يامن على أدهم وعلي حين وصل اليونان قبل حوالي نصف العام، فبعد أن أنهى دراسته في إدارة المشاريع في تركيا، والتي أنجزها خلال ثلاثة أعوام ونصف، عمل كمتطوع لمدة شهرين في مؤسسة تهتم برعاية اللاجئين الحروب، ومن هناك استطاع العثور على عمل في نفس المؤسسة في اليونان.

تعرف يامن خلال عمله على أدهم، وهو طبيب سوداني يكبره بثلاثة أعوام، وعلي مهندس مصري يكبره بعامين، أما ملك فهي مختصة الصحة النفسية في المؤسسة، وتعيش منذ نعومة أظفارها في اليونان بعد أن هاجرت برفقة عائلتها من سورية بفعل الحرب، لم تكن هذه الهجرة الأولى لعائلة ملك، فالعائلة فلسطينية الأصل وقد هاجرت من مدينة حيفا بعد نكبة 1948 إلى سورية.

يعمل والد ملك طبيبا مختصا في تركيب الأطراف الصناعية في ألمانيا، ولذلك هو دائم التنقل بين ألمانيا واليونان، وقد وعدت ملك يامن بتوفير علاج لقدم ورد عن طريق والدها، إذا ما تحسن وضعها النفسي. في تمام التاسعة صباحا، وصل طرد ملك إلى منزل الشبان الثلاثة، كان الطرد عبارة عن قفازات للملاكمة، كيس اللكم، نباتات مختلفة الأشكال، أصص للزراعة.

قال أدهم في حيرة: "ما هذا؟ ماذا سنصنع بها؟" بعد ساعة قُرع جرس المنزل، فتح علي الباب ورحب بملك: "أهلا وسهلا يا ملك، تفضلي"
"أين يامن؟"
"في الحديقة الخلفية، ادخلي"

دخلت ملك مارة بالصالة التي تضح بالكتب والملابس والفوضى، ألقت التحية على أدهم الذي سأل بفضول: "ماذا سنفعل بالأشياء التي أرسلتها يا ملك؟"

"سأخبرك عندما أنهى حديثي مع يامن"

اتجهت ملك إلى المطبخ، ومنه إلى الحديقة الخلفية، كان يامن يجلس تحت أشعة الشمس الباهتة، وقد اشتعلت عيناه بحزنٍ وغضب، يرتدي قميصًا خفيفًا بلا أكمام رغم برودة الطقس في المكان.

قالت ملك بصوتٍ منخفضٍ ضعيف: "يامن، صباح الخير"

"صباح النور يا ملك، اجلسي"

جلست ملك على كرسي مقابل له: "كيف حالك؟"

"كما ترين"

نظرت ملك إلى أرجاء الحديقة، قطبت حاجبيها وقالت: "إنّ النباتات هنا جافة باهتة الخضرة، لم لا تهتمون بها؟"

قال يامن متجاهلاً سؤالها: "أأنت من أخبرت أدهم وعلي بمكاني بالأمس؟"

"أجل، عندما سمعتُ صوتك عبر الهاتف علمتُ بأنك لست في حالتك

الطبيعية، فطلبتُ منك إرسال الموقع، لم أتوقع استجابتك، فاجأتني!"

"شعرتُ بالضعف، وبرغبةٍ ملّحة في وجود الناس من حولي، ولكني لا أريد

إدخالهم في مشاكلي يا ملك"

"أأخبرك بسرٍ من الطبيعة؟"

"ولم لا؟ قولي"

"الأشعة الخارجة من الشمس، تخرج صافية نقية من جوهر واحد بلا عقد،
وحين يرتطم ذلك النور الصافي بجواجز يصير عددا من الظلال، فحطم
الحاجز حتى تمضي الفروق عن الجوهر الواحد."

"وهل نحن جوهر واحد؟"

"أجل، أنت وأصدقاؤك كذلك النور الصافي، يجب تحطيم المشاكل التي
تواجهكم معاً كي لا يتفرق هذا الفريق وهذا الجوهر، وتزول الحواجز من
بينكم"

"أحياناً، أحب الحديث معك يا ملك لأنك تمنحني سببا للبقاء
والاستمرار، وأحيانا يكون حديثك فلسفة بعيدة عن الواقع، وأحياناً
أخرى تشبهين ورد كثيراً في حكمتها، ولكنها هُدرت للأسف"

"ستعود يا يامن لا تقلق، حسب كلامك عنها فهي قوية جداً، ستعود،
ولكن.. يجب أن لا تُهدر نفسك أنت أيضاً"
"أحاول يا ملك.. لا أستطيع"

"هل أحادثك كزميلة وصديقة لك، أم كمختصة تحاول مساعدتك؟"
"ككليهما"

"إذن لن تغضب مني لو قلت إنك في بداية مرحلة الإدمان"
"هذا هراء!"

"كلّا .. بل هو حقيقة عليك مواجهتها، إنّها المرة المليون خلال فترة قصيرة، كما أنّك حصلت على إنذارات وتوبيخات من المدير بسبب تشتتك وضعف تركيزك، وهذا أمر لا أتقبّله لشخصٍ ذكيٍّ مثلك، يجب أن تتشافي " "شرب الكحول لا يؤثر على حياتي، أنا أستخدمه كعلاج لروحي المحترقة، ألا تشربين أنتِ؟"

" إنّ شرب الكحول مقبول عندي اجتماعيا ودينيا يا يامن، فأنا أشربه بشكلٍ طبيعي لا ريبة فيه، في الأعياد والحفلات والمناسبات الدينية التي تخصنا، لكنّه ليس كذلك بالنسبة لك.

إنّهُ أمر غير مقبول دينيا واجتماعيا عندك يا يامن، أنتَ تحاول الوصول بشرب الكحول إلى نقطة تنفصل فيها عن الواقع، تشرب كميات كبيرة وتخصص له الكثير من وقتك، وتشعر بالسوء إن لم تفعل، سأقول لك حقيقة يجب إدراكها"

"ما هي؟"

"إنّ النفس المختفية داخلك والتي تحاول مداراتها عن الظهور، هي من تسلب منك سرورك وأنت مسرور بها، تتقبل منها الظلم وكأنّه العدل، فهل مقتنع أنتَ فعلا بهذا العلاج الذي تأمرك نفسك باتخاذهِ؟ هكذا.. بذهاب العقل؟! هل تجد راحتك في هذا؟"

ردّ يامن بصوت منخفض: "قليلا"

"قليلاً.. أي بمعنى راحة ومتعة لحظية، أليس كذلك؟ أو لنقل إنَّ أقصى آمياتك تكون في الحصول على هدنة قصيرة من كلِّ ما يدور في رأسك، هل أنا محقة؟"

"لأكون صريحاً معك، نعم، ولأكون صريحاً أكثر فأنا لا أستطيع منع نفسي عن هذه الراحة اللحظية"

"طبيعي، ففي حالة كهذه يكون الأمر أكبر بكثير من مجرد انعدام قوة الإرادة، ولذلك لن أقول لك يجب أن تجبر نفسك على فعل الصواب، ولكن القرار في يدك اليوم، إذا سمحت لي بمساعدتك طبعاً، وغدا لن يكون كذلك. إذا وقعت في قبضة الإدمان فاضطراب التفكير والإدراك سيكون بلا شك جزءاً منك"

"ألا يعتبر اعترافي بأنِّي لا أستطيع منع نفسي عن شرب الكحول سماحاً لك بمساعدتي؟"

تأملت ملك قليلاً ثم قالت: "حسناً.. تقول لي إنَّك تعالج روحك المحروقة، لكن حين تحترق النفس نجمع ما تبقى من صفحاتها بمِشبكٍ قوي، لو لم نستطع إيجاد المشبك المناسب لجمعها، ستتناثر باقي الصفحات مع الفوضى الداخلية وتضيع نفسك منك، هذا المشبك هو ما يبقينا صامدين أمام المعارك الصعبة، أين مشبكك أنت؟ هل يمكنك إيجادَه؟"

"لو كان باستطاعتي إيجادَه لما لجأتُ إلى ما يريحني وينسيني آلامي ويذهب عقلي"

"هل أدلك عليه إذن؟"

"دلّني لنرى"

"حبّ الذات، أتعرف ماذا يحدث حين تحبّ ذاتك؟"

"ماذا؟"

"لا تؤذيها، تعمل المستحيل لأجل الحفاظ عليها من الانكسار والسقوط. إذا رأيت صفحات سليمة بيضاء داخل نفسك فضمّها كلّها تحت مشبك حبّ الذات، أبعدها عن الأسود المحترق منك، حتى لا تحرق الجزء النقي المتبقي فيك، وتستطيع الاستمرار"

سأل يامن بهدوء: "وكيف عرفتِ أنّي لا أحب ذاتي؟"

"من سخطك وغضبك ومن فعل ما يؤذيكَ على أنّه ينفَعُكَ"

"السخط موجه إلى الأحداث التي قلبت حياتي لا إلى نفسي"

"الأحداث مؤثر خارجي، وأنت حين تسخط فإنّك تسخط على الآثار التي تركتها تلك الأحداث فيك، لو لم تترك آثارا وآلاما داخلك لما شعرت بالسخط، كما أنّ الذي يحبّ ذاته لا يؤذيها، أليس كذلك؟"

"إذن؟ كيف أحبها؟"

"بالتقبّل والرضا"

ردّ يامن ببعض العصبية: "هذا هراء، كيف أتقبل الموت والفقد والدمار والمرض؟ كيف أتقبل وجود شعب كامل تمّ العبث بحياته وتحويلها إلى جحيم؟ ولماذا؟ فقط لأنّه صاحب حق ومالك للأرض، ثارت كلّ الدنيا فوق"

رأسه ولم يجد شخصاً عادلاً ينصفه، حتى هو لم يستطع إنصاف نفسه وكان عاجزاً وظلّ مغيباً، لقد حوّلوا الشعب إلى مجرد روبوتات يتمّ التحكم بحركتها وفكرها وكلامها وكلّ حياتها، تعمل بأمرهم وتتوقف بأمرهم، تدبّ فيها الطاقة والحياة بأيديهم وتموت حسب رغبتهم، لماذا يا ملك؟ لماذا؟ لماذا رُبط مصير الشعب وصاحب الأرض بالاحتلال وداعميه علناً وسراً من حكام العالم؟

"وهل ما يزعجك حقاً تحويل حياة الشعب إلى جحيم أم حياتك أنت؟" كلاهما يا ملك، كلاهما، لا يمكن فصل الجزء عن الكلّ، إن تقبلت أمراً كهذا فهذا يعني أنني ضائع في حضرة المظالم، ضعيف" "لم تفهم مرادي، لا أعني تقبل الإجرام والإبادة، بل تقبل المشاعر داخلك، الألم، الفقد، الخوف، الحزن، القلق، لا ترفضها، هي مشاعر طبيعية في هذه الحياة، اشعر بالرضا عن نفسك"

"لا تكون طبيعية إن زادت عن حدّها"

"ألا يرى الجنين أوان ميلاده موتاً؟"

"ها؟"

"ولكي تنمو البذرة يجب أن يخرج ما في أحشائها أولاً. أحيانا تبدو عملية النمو لمن لا يعلم ذلك وكأنّها تدمير"

"الفصائل كانت تُسكتنا بالخطاب الديني الذي احتكروه لأنفسهم، أصبح توضيح حقيقة الدين خاصاً بهم، في حين لو امتلكننا رأياً مختلفاً وأردنا

استيضاحه ومناقشته، نصبح كأنا كفرة خونة، وأنتِ الآن تسكتيني بخطابٍ فلسفي غبي، لا تُجَمِّلُ الموت والهلاك، لا تَجَمِّلُهِ، الموت موت، لا نهضة مرجوة منه"

"لا أَجَمِّلُ الموت، بل أَتَقْبِلُ أن وراء كلِّ ألم رسالة ودرس، وبأن الشر جزء لا يمكن إنكاره من هذا العالم. كما أَنَّهُ يُقال هذا الكلام للأحياء لا الأموات، فأنتِ حي لم تُمتِ بعد، ونحتاج لحي قويٍّ بيننا، ما فائدة المشاعر الساخطة من الموت والدمار داخلِك؟ لَمْ لا تحاول فهم المغزى منها في هذه الدنيا؟ ما حصل لا يمكن تغييره ولكن يمكننا انتشال الحي من وحل الموت"

"ومن قال لكِ إنني حي، قلبي ميت، أنا جسد بروح محترقة"
 "كاذب، لو كان قلبك ميّتا لما استطعت أن تحب، لما أحببت أدهم وعلي مثلاً، لما تألمت واحترقت لألم أختك، لما درست واجتهدت ونجحت وعملت، هناك بذرة تحاول النمو داخلِك، لكنك تمنعها بالسم الذي تنفثه من حوالِها"
 هزّ يامن رأسه علامة على عدم الرضا، فأردفت: "حسنًا.. حين تنجو من حدِّ جَلَل لا تعرّف نفسك بأنّها ضحية بل عرّفها بأنّها ناجية"
 "سأجاريك، لأنني لا أحب وصمة (الضحية) هذه، أعطني طريقة كي أعيش وأنسى"

"لن تنسى، ولكنك ستعرف كيف تتعامل مع ألمك"
 "كيف؟"

"ستفرغ غضبك وأملك أولاً من خلال معدّات الملاكمة التي اشتريتها لك،
وبالتالي ستفصل عن الواقع من خلال ذلك وليس من خلال الخمر"
ضحك يامن وقال: "ثم؟"

"ستنام باكراً، تستيقظ باكراً، تأكل الأكل الصحي، تزرع النباتات التي
أحضرتها لك وتهتم بها جيداً، تقرأ أقل شيء ربع ساعة في اليوم، تمارس
الرياضة يومياً، تعطي ولو يورو واحد في اليوم، تدلّ نفسك بمعنى أن
تكافئها دومًا بما تحب، ولن تترك هذه العادات مهما حصل لك من
مشبطات"

ضحك يامن وقال: "هل هذه تعليمات الأم؟"
ردّت ملك بحزم: "كلّا.. هي أولى خطوات حب الذات، وبالتالي الخوف عليها
وعدم إيذائها. ابدأ بوضع المشبك للملزمة ما تنأثر من نفسك الآن، إذا
كنت تملك في قلبك ذرة خوف على مصير أختك، فاستمع لي حتى لا
تتركها في هذه الدنيا بلا ظهرٍ تستند عليه، كن قويا يا يامن"
"أوه.. أنتِ تضغطين على الوتر الحساس، كم أنتِ ذكية! تستطيعين قراءتي
جيداً"

ابتسمت ملك بخفة لإطرائه وقالت: "ربّما.. سري"
ثم نهضت قائلة: "سلام، أتمنى أن لا تخذل من يحبك يا يامن"
"لكنّك لم تشري شيئا"
"سأحك الله، وهل يُشرب من مثل هذا المطبخ؟"

"وما به المطبخ؟!"
 "متسخ.. يبدو أنكم لم تنظفوه من شهرٍ أو أكثر، لقد مال لونه الأبيض إلى
 الأصفر القذر"

ضحك يامن في حين قال: "الحق معك في هذه"
 التفتت ملك لتخرج، فقال يامن: "ألا يوجد في التعليمات أيضا تنظيف
 المطبخ؟"

"سيكون أمراً جيداً، فالاهتمام بالنظافة الشخصية، ونظافة المكان من
 حولنا جزء مهم في حب الذات يا يامن"

.....

2028/12/30

في شارع عباس العقاد في مدينة نصر في القاهرة، كانت الدكتورة رشا
 تجلس برفقة إيمان وورد في عيادة الطب النفسي، قد شبكت كفيها تحت
 ذقنها، وقطبت حاجبيها بتركيز، نظرت الدكتورة رشا ناحية ورد، التي
 تكورت على نفسها فوق السرير مرددة الكلمات نفسها:
 "يرتدي البستان الحلل حيناً ويصبح عارياً حيناً آخر.
 النار المحتدمة آخرها ماء يقرأ عليها آية موتها.
 أنا قوية بك يا الله فنور القلب يهب الجسد القوة والعزم"

سألت الدكتورة رشا إيمان، في حين أخرجت ورقة وقلم لتدوّن ملاحظاتها:
"ما الذي حدث بالضبط؟"

"كنا نتمشى أنا وورد على المشى الذي يواجه البحر في منطقة المعمورة في الإسكندرية، وقفت ورد لاستنشاق بعض الهواء، كانت في حالة جيدة، لم أرها هكذا منذ سنوات، ثم فجأة انقلبت حالتها كما ترينها الآن"
"ألم يحدث أي شيء في المنطقة؟"
"كلا"

"أقصد.. تسلل رائحة معينة، صوت ما، رؤية شخص، حاولي التذكر"
أطرت إيمان هنيهة ثم قالت: "ها.. كان هناك صوت موسيقى"
"موسيقى من أي نوع؟"

"موسيقى روك صاخبة!"

"وهل تزامن تغير حالتها مع وجود الموسيقى؟"
"أجل"

"هل تلفظت بكلماتٍ أخرى غير التي تتلفظ بها الآن؟"
"قالت: يوسف .. لا"

تمتت الطيبة وهي تدوّن: "يوسف.. الداء والدواء في الكلمة نفسها"
"هل تظنين حقاً أن يوسف قام بإيذائها؟"

"لا أستطيع أن أجزم، لم أعهد شخصاً من هذا النوع، ولكن حين كانت تراه كانت تسوء حالتها كما أخبرتك سابقاً"

"اللّغز في يوسف يا إيمان.. لن تُشفي ورد دون حلّه، هل تعلمين مكانه؟"

"لا أعلم عنه شيئاً، قطعْتُ اتصالي به حفاظاً عليها"

"حسناً، سنحاول العثور عليه، أ تستطيعين مساعدتي في ذلك؟"

ارتفع صوت إيمان قليلاً: "مستحيل، إنّه يزيد من آلامها!"

قالت الطيبية في حزم ممتزج بالحنان: "اسمعي، أخبرتك سابقاً أن أختك

تعاني من اضطراب كرب ما بعد الصدمة المعقّد، ويبدو أنّها مرّت بسلسلة

من العنف الفظيع والأحداث المؤلمة حين كانت داخل السجن، وهذا أثر

عليها بلا شك، لكن الذي أثر عليها أكثر هو ارتباط هذا العنف بيوسف،

لذلك يجب أن يتم غمرها بشكل مكثف بيوسف، أفهميني؟"

هزّت إيمان رأسها محجبة: "أفهمك"

أردفت الطيبية: "وأخبرتكَ سابقاً أنّ العلاج سيكون طويل الأمد، وبعد

هذه المرحلة التي قطعناها، لا نريد خسران ما أنجزناه"

ردّت إيمان ببعض التوتر: "لكنني لا أرى إنجازاً، فقد ساءت حالتها كثيراً من

مجرد سماعها للموسيقى معيّنة"

"أجل يحدث هذا، إنّها الذكرى الوامضة يا إيمان"

"يعني؟"

أخذت الطيبية شهيقاً طويلاً وأطلقتته ثمّ قالت: "بمعنى أنّ ورد تستدعي

صدمتها وتعايشها باستمرار، ولكن ما حصل معها في تلك اللحظة

بالتحديد عندما كانت تقف على المشي، هو ما نسميه (ردّ الفعل الفصامي)

أو الارتجاع، وهو الشعور بأنّها تواجه الحدث الصادم مرّة أخرى نتيجة إثارة الذاكرة الخاصة بذلك الحدث، أي أنّ ورد تعتقد الآن أنّها تعيش ذلك الحدث المؤلم

"لكنّ ورد لا تتذكر تفاصيل ذلك الحدث"

"أجل، فالعقل يعمل في محاولة نبيلة للحفاظ على الذات، ويمنعها من تذكر تفاصيل معينة، يعني أنه لا يسمح لها إراديا بإعادة معايشة الصدمة، ولكنّه يجعلها باستمرار تتذكر الحدث الصادم بشكلٍ لا إرادي، عندما يقوم شيء ما بإثارة الذاكرة بطريقة عشوائية"

"أي أنّها لا تستطيع التذكر بشكل إرادي، ولكن عند وجود شيء يثير ذاكرتها، يرجعها العقل لا إراديا إلى ساحة الحدث"

"تماماً"

أطلقت إيمان تأففاً بانهاك ثم قالت: "والعمل؟"

"سنستمر على الأدوية، سنغمرها بما تحب، ونحاول إعادتها لروتينها الطبيعي الذي كان قبل الحرب، يجب أن تستمر بالكتابة عن مشاعرها فهي لا تتحدث كثيراً، وسأكتّف من جلساتي الحوارية معها. لكن هذا لن يوصلنا للشفاء النهائي"

"وما الذي سيوصلنا له؟"

"إرادتها، قوتها، وطبعاً يوسف، اعثري لي على يوسف يا إيمان"

زفرت إيمان بضيق وقالت: "يوسف مجدّداً؟"

"أختك ذكية وحكيمة، تحمل في داخلها قلباً فريداً قليل النظير، وجدتُ هذا فيها من خلال كتاباتها، حرامٌ هدرها، افعلي ما تكرهين لأجلها إن كنتِ حقاً تحبينها"

"سأسعى لإيجاده، وأتمنى أن أستطيع"

"أريد شيئاً آخر منك يا إيمان"

"ما هو؟"

"ما أكثر شيء كان يريح نفسية ورد؟ بمعنى، حين كانت تشعر بالقلق كيف كانت ترتاح؟"

"أطرقت إيمان للحظاتٍ مفكرةٌ ثم قالت: "بالاستماع لسورة يوسف أو قراءتها"

"إذن.. سنفعل الآتي، شغلها باستمرار في المنزل، واجعلها على مسمع منها، أثناء نومها يجب أن تكون السورة تقرأ بجانبها أيضاً، وسنحاول البدء بإطفاء الأنوار حين تنام"

"ولكن هذا مستحيل، قلتُ لك مسبقاً إنها تخاف من الظلام، ولنفعل وتصرخ بشدة في الظلام"

"لم أقل لك الآن، ولكن بعد ملاحظة تأثير سورة يوسف عليها، وأكرّر من جديد، أهم شيء هو العثور على يوسف يا إيمان"

هزّت إيمان رأسها موافقة لكلامها، نهضت الطبيبة واتجهت ناحية ورد التي تكوّرت فوق السرير على نفسها، تُردّد نفس الكلمات وسط ذعرٍ شديد، قالت الدكتورة رشا: "ورد.. أين أنت الآن؟ هل يمكنك إجابتي؟" لم تجب ورد وبقيت على حالها، اتصلت الطبيبة بالسكرتير قائلة: "هل وصلت المرأة التي طلبت؟"

"أجل"

"أدخلها إذن"

دخل السكرتير حاملا امرأة طويلة قابلةً للطبي، طلبت منه الطبيبة أن يضعها في الجهة المقابلة لورد ليتسنى لها مشاهدة نفسها. تساءلت إيمان في ذهول: "ما هذا؟"

"سأحاول التخلص من ردّ الفعل الانفصامي الذي تشكل عندها"

وضع السكرتير المرأة حيث طُلب منه، ووقفت الطبيبة بجوارها، نظرت ورد اتجاهاً بعد أن لفتت صورتها التي ظهرت على المرأة نظرها، فبدت كأرنبٍ مذعورٍ يرتجف داخل قفصه، يحدّق باستغراب في انعكاس صورته.

تناولت الدكتورة رشا عصي حديدية وحطّمت المرأة، تناثرت قطع الزجاج على الأرض، رأت ورد صورتها الخائفة تتلاشى عن المرأة، حدّقت في دهشة في أرجاء الغرفة، شاهدت نوراً، وجدراناً مطلية باللون الأبيض، ستائر نيلية اللون أنيقة، مكتب أبيض هادئ التصميم، تحسّست السرير الذي تجلس عليه، أيقنت أنّها ليست في زنانتها المظلمة، توقّف جسدها عن الارتجاف،

وسكتت تمتمتها بنفس العبارات، رفعت رأسها باتجاه الطيبة، نظرت بعينيهما المرهقتين، همست: "حطمي المرأة، جدي نفسك" ثم وقعت على السرير فاقدة الوعي، اندفعت إيمان نحوها في قلق وهي تنادي: "ورد، ورد"

في حين حدقت الطيبة في دهشة، وهي لا تجد إجابة للأسئلة التي تدور داخل عقلها في حلقات متشابكة.

.....

مساءً ..

وقف يامن وهو يرتدي قفازات الملاكمة، أمام كيس اللكم الذي علّقه له أدهم وعلي في غرفة المخزن الصغيرة في المنزل، كانت الصور تحترق، وكأنّها حمم بركانية تُشعل النيران داخله.

(حزام ناري، منازل مدمرة، ألسنة اللهب، جسد مقطوع، كف ملقاة على الأرض مبتورة الخنصر)، وتتبعها لكمات متتالية اخترقت الكيس أمامه. (اتصال إخلاء، نزوح، خيام مهترئة، طابور ماء، طابور خبز، أطفال جياع، أواني فارغة تتصارع أمام التكية، أجساد ترتجف برداً، مرضى يموتون في انتظار الدواء) ولكمات أخرى متتابعة تحاول إخراج أحشاء الكيس.

(نحيب إيمان، فزع جوري، يُتم يافا، النصف العلوي لجسد محمد ملقى على الأرض، صراخ ورد، انكسارها وتحولها من أنثى قوية حكيمة لا تستسلم

إلى قَطّ خائفٍ مرتجف)، زادت حدّة اللكمات، وبرزت عروق الذراعين وتعرق الوجه، ثم.. صورة يوسف.

توقف لاهثاً للحظات، صرخ: "خائن، قدر" وأرسل لكمة أخرى بكلّ قوّته. صرخ من جديد: "كلّه بسببك يا حقير، أعزّ شخصٍ على قلبي يتعذب بسببك، يا ليتني قتلتك قبل مغادرة غزة، يا ليتني فعلت" ولكمة أعنف مُزّق على إثرها الكيس.

كان أدهم وعلي يقفان من بعيد يراقبانه، نظر أدهم في وجه علي بدهشة قائلاً: "ما هذا؟ سيسقط علينا السقف!"

قال علي بشيء من المزاح: "لا حول ولا قوة إلا بالله، سيب الراحل يفكّ عن نفسه يا زول"

اتصل علي بملك يستشيرها في أمر يامن فقالت: "بعد أن ينتهي من عراكه مع كيس اللّكم، تمشوا قليلاً أمام الكورنيش سينفعكم جميعاً" بالرغم من برودة الجو التي سادت مساء المدينة، إلا أنّ الكورنيش كان مزدحماً بالمشاة، تمشى الشبان الثلاثة وقد كان علي يُطلق النكات فيضحك أدهم، ويبتسم يامن متصنّعاً.

شعر يامن بالغثيان فوقف ساندًا ظهره على إحدى أعمدة الإنارة متأملاً المشهد أمامه، واستمرّ أدهم وعلي بتبادل الحوار والضحك.

رَنّ هاتفه رنة خفيفة نتيجة رسالة وصلته من إيمان، فتح الهاتف وقرأ: "قالت الدكتورة رشا إنّ علينا العثور على يوسف"

لعن يامن الهاتف وحامله، وشتم يوسف والوقت الذي عرف فيه يوسف، ثمّ كتب رسالة: "لماذا؟"

"قالت الدكتورة بوجوب أن تتحدث مع يوسف، كي تصل بورد إلى مرحلة الشفاء، هل تعرف له طريقاً؟"

"أي أنّ ورد لن تراه ولن تتحدثه؟"

"في هذه المرحلة أجل لن تراه، ولكنّها يجب أن تراه وتتعامل معه لاحقاً"

"تتحدث معه الطيبة ولكن ورد لا تراه، هذا شرطي"

"حسناً"

"أعرف حساب الفيس بوك الخاص بأحمد صديقه، يوسف لا يستخدم هذه المواقع كما تعلمين، سأكلّم أحمد، وأرى ماذا يمكن أن أفعل"

"وأيّن أحمد الآن؟"

"لا أعلم"

"أرجوك يا يامن، أعرف أنّك تكره يوسف، ولكن لأجل شفاء ورد"

"سأبذل جهدي، لا تقلقي"

-11-

2024/3/20 - العاشر من رمضان

بعد انتظار داخل معبر رفع استمر حوالي عشرة ساعات، وطئت إيمان برفقة يامن وورد وجوري ويافا أرض مصر، أحست وقتها بأن الآية القرآنية: " ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ " تتردد في الأجواء من حولها، فبكت.

سألها يامن: " لم تبكين؟ "

" لأني نجوتُ بكم يا يامن "

عانقت ابنتها جوري ويافا وقبلتهما قائلة: " الحمد لله على سلامتكما "، ثم عانقت أخاها وورد التي ظلت واجمة كالحة.

وصلوا فجرًا إلى مدينة السادس من أكتوبر في محافظة الجيزة، كانت إيمان قد أوصت صديقة لها سافرت قبلها بالعثور على شقة مناسبة، فاستأجرت لهم شقة تقع وسط الحي المتميز في مدينة السادس من أكتوبر.

وعلى الرغم من كون الشقة قديمة البناء والأثاث، فرحت الطفلتان فرحا شديدا لرؤية سرير وكراس وأثاث منزلي.

بكت وقتها إيمان: " يا الله، لقد عشنا في أجمل البيوت، فلم نسي الأطفال هذا ولم يذكروا سوى الخيمة؟! "

قضت إيمان أول أسبوعين برفقة يامن في محاولة لإنشاء الحياة من جديد، فكانا يتناوبان على الخروج حتى لا يتركا ورد وحدها، أجريا الأمور القانونية المطلوبة منهما في المراكز الحكومية، ثم قاما بشراء الملابس والأحذية التي كانت منعدمة في غزة، واعتنيا بشراء الحاجات الأساسية من مأكّل ومشرب ولوازم النظافة.

سألت إيمان يامن ذات مساء: "ما رأيك في مصر؟"

"ألم تقولي إنّها بلدي الثاني، كيف سيكون رأيي؟"

"لكنك لم ترها مسبقاً"

"كنتُ أود زيارتها في ظروفٍ أفضل، ولكنّها جميلة وأنا مرتاح هنا"

"مرتاح من أي ناحية؟!"

"لا أشعر بأيّ غريب عن المكان، لا يتمّ معاملتي بشكلٍ مختلف عن أهل البلد"

"أنسيت أنّك تحمل الجنسية المصرية؟"

"لا أقصد هذا، فالشعب لا يعرف أيّ مصري مثلهم"

"الحقّ معك في هذا، الشعب هنا يرحّب بالجميع، كلّ من أقابله لا أرى منه غير الحبّ والاحترام"

"الشعب هنا طيب وأصيل رغم ظروفه المعيشية الصعبة، مازالت دموع ذلك الرجل في مخيلتي"

"أيّ رجل؟"

"صاحب المكتبة، حين ذهبتُ لتصوير المستندات الرسمية عنده، لم يأخذ مَنّي نقودًا، وحين أصررت عليه جلس على الكرسي وبكى وقال: "إنتوا على راسي من فوق""

"فعلت معي مثل هذا الموقف الخياطة التي ذهبتُ عندها لتقصير بعض الملابس، حلفت كثيرا أنها لن تأخذ نقودًا، ولكّني وضعت النقود بجوارها وذهبت"

ساد الصمت قليلا، ثم سأل يامن: "ماذا سنفعل يا إيمان؟ ذهب البيت والأهل، وورد تُعاني من مرض لا نعرف علاجه بعد، ماذا سنفعل؟" تنهدت إيمان وقالت: "لا تقلق يا يامن، سيحلّها الله من عنده، العوض الجميل قادم"

"العوض الجميل!"

"ماذا؟ ألم يعجبك كلامي؟"

"كلّ هذا الألم.. أين العوض إذن؟"

"عوض الله لا يكون مكافأة على الألم، بل على ردّ فعلك اتجاه الألم، الله لا ينظر إلى ما فقدته، بل إلى ما فعلته حين فقدته، إنّهُ الصبر الذي يكافأ وليس أي صبر، بل الصبر الجميل، وما الألم إلا رسالة التغيير"

"وهل نحتاج كلّ هذا الألم للحصول على العوض، هل خلقنا الله ليعذبنا كلّ هذا العذاب؟"

"لن تستطيع فهم أقدار الله، الصورة أكبر من عقلك البشري الصغير، تماما كما لم تفهمها أم الغلام ولم يفهمها ركاب السفينة، وتاما كما لم يستطع سيدنا موسى تحليلها وتأويلها"

بعد عيد الفطر جاءت بنت خالهم (منى) لزيارتهم، قالت منى لإيمان وهي تجلس متعبة لاهثة: "ألف الحمد لله على سلامتكم يا إيمان، اعذريني على التأخير ولكن من الشرقية للجيزة سفر، المشوار بعيد وتعب، والميكروباصات مُرهقة ومُقرفة"

"عارفة والله.. الله يعينك"

"أخباركم إيه يا بنت عمتي؟ إن شاء الله مرتاحين هنا؟"

"الحمد لله.. الأمور تمام"

مدّت رأسها باتجاهها وسألت بصوت ضعيف كي لا تسمعها الطفلتان اللتان تلعبان بالدمى بجوارهما: "محتاجين حاجة؟ أي حاجة ما تتردديش"

"بارك الله فيك.. الحمد لله الخير كثير"

"الحمد لله.. آمال ورد ويا من فين؟"

"ورد مريضة نائمة، يا من شوي وجاي"

"سلامتها وردا"

"ورد.. بترت قدمها و..."

أطلقت منى شهقة وضربت صدرها بكفّها وقالت: "يا حبيبتي.. أنا شفت صورتها زمان عند بابا الله يرحمه، جميلة جدا، ربنا يكون في عونها"

"يا رب"

"اللَّهُ ينتقم منهم ويحرقهم حرق في نار جهنم، ذه إحنا كل يوم بندعيلكم
وبندعي عليهم، ربنا ينتقم منهم يا رب، اللَّهُ يرحمك يا عمتي ويكتبك مع
الشهداء والصديقين"

"آمين"

"تعرفي؟ بابا الله يرحمه، مات وهو مشتاق لعمتي جدا، سنين طويلة ما
شفهاش لأنّه المعبر صعب جدا، وهي كانت ربنا يرحمها أخته الوحيدة
مالوش غيرها"

"اللَّهُ يرحمهم جميعا يا رب"

غادرت منى وهي تُردّد: "أمانة إذا احتجتي أي حاجة، قوليلي، أخويا كمال
يبعتلكم سلامه بس هو تعبان ظهره واجعه من الغضروف، أمانة يا
إيمان، أي حاجة، رقي عندك"

"بارك الله فيك حبيبتي ما بتقصري، نشوفك على خير يا رب"

في اليوم التالي صباحا قالت إيمان ليامن: "سأخذ ورد لاستنشاق الهواء
قليلا، انتبه على جوري ويافا"

"ولكن.. ماذا لو ساءت حالتها في الطريق؟"

"لا تقلق تبدو جيدة منذ مجيئنا إلى هنا"

"طبيعي.. فالكهرباء لا تنقطع، أكثر ما كان يثير ذعرها الظلام"

قالت إيمان بنبرة الرجاء: "أتمنى أن أجد طيبة جيدة قريباً، إنّي أسأل ولا أحد يفيدني"

"إن شاء الله نجد يا إيمان، لا تقلقي"

صمت يامن للحظات ثم تنهد وقال: "إيمان.. سأبدأ ببيع بعض المنتجات للجالية الفلسطينية هنا، كالقرشلة والزعر والذقة والمكسرات"

"وكيف ستبيعهما؟ مصر كبيرة، والمسافات بعيدة، والناس موزعون بين المناطق"

"سأروج عن طريق الإنترنت، وأتفق مع شركة توصيل"

"وهل سيكون الأمر مجدياً؟"

"بالنسبة لشابٍ مثلي فهو جيّد نوعاً ما"

"توكل على الله، ولكن لا تهمل دراستك، يجب أن تستعد جيداً لامتحان الثانوية العامة"

"لا تقلقي، مع العلم أنّي لم أقرر ماذا سأدرس بعد في الجامعة، أبي رحمه الله كان يحب أن يراني مهندساً"

ابتسمت إيمان وأمسكت بكفي يامن سائلة: "وأنت ماذا تحب؟"

نظر يامن إليها: "أحبّ التخصص في مجال الإدارة"

قالت إيمان بحنان: "والدنا رحمه الله سيكون سعيداً وراضياً حين تكون أنت راضياً عن نفسك، افعل ما يوصلك لأعلى مراتب الرضا يا يامن"

ابتسم يامن وهز رأسه قائلاً: "إن شاء الله"

خرجت إيمان برفقة ورد، وجعلتا تمشيان في شارع محمد ناجي في الحي المتميز، كان الشارع هادئًا جدًا ممتلئًا بالأشجار المعمرة الكبيرة، وأشجار الزينة التي تتنوع ألوان زهورها بين الأبيض والوردي والبنفسجي.

قالت إيمان لورد: "هذا الشارع جميل"

هزّت ورد رأسها علامة الموافقة

مرّتا بجوار ياسمينه مزروعة على مدخل إحدى العمارات، وقفت ورد واستنشقت نفسًا عميقًا مغمضة عينيها، وقالت بحنين: "ياسمينه الدار"، ثم استمرت في المشي.

حين وصلتا لمجمع من المحلات التجارية وسط الحي، أجلستها إيمان أمام إحدى محلات العصير وقالت: "ماذا تشربين؟"

لم تُجب، فأردفت إيمان: "هل أحضر لك عصير الليمون بالنعناع؟ أنت تحبين عصير الليمون بالنعناع"

هزّت ورد رأسها بالإيجاب، ذهبت إيمان لإحضار العصير لأختها، جلست ورد، تحدّق فيمن حولها، شاهدت امرأة تركض خلف جروها الهارب منها فابتسمت، ثم لفتَ نظرها أخرى تسير برفقة زوجها وأبنائها، ارتدت غطاء رأس يمزج بين الكوفية وعلم فلسطين، نظرت إليها من بعيد ثم أطرقت رأسها باكية.

بينما كانت إيمان تقف بانتظار أن تطلب عصير الليمون بالنعناع، قال رجل واقف بجوارها: "عايز اتنين قنبلة لو سمحت"

تفاجأت إيمان من طلبه ونظرتُ في دهشة مقطّبة حاجبيها، ثمّ انتظرت
لترى تلك القنبلة!

وما هي إلا لحظات حتى جاء البائع بطلبه، كانت القنبلة عبارة عن نوع
من الحلويات، يمزج بين الكنافة والمهلبية والأرز باللبن والبسبوسة
والكلاج والجلي والكستر والعسل والفواكه المنوعة، ظلّت إيمان واقفة
مندهشة من كمية الأصناف الموضوعة في الطبق أمامها، حتى قال لها
البائع: "حضرتك عايزة قنبلة كمان؟"

انتهت إيمان ثمّ ضحكت ضحكة خفيفة: "لا شكرا، إذا ممكن اثنين
ليمون بالنعناع"

"حاضر من عيني"

أحضرت إيمان العصير وجلست على الكرسي أمام أختها، نظرت إليها
ورفعت رأسها بيديها، تمعنت في عينيها وقالت: "عينك حمراوان، أكنتِ
تبكين؟"

ثمّ أردفت في ظلّ صمت ورد: "ستتعافين إن شاء الله، سنجد طبيباً جيّداً
وستتعافين"

قالت ورد بصوت هادي: "لا أحتاج طبيباً، فالنور وَلَدَ ظلاماً ورحل"
"ماذا تقولين سامحك الله؟ وهل أنتِ ظلام؟ لطالما كنتِ نور العائلة كلّها"
صمتت ورد، فقالت إيمان بشيء من المرح: "ما رأيك أن آخذك إلى صالون
التجميل؟ نرمّم ما تلف من بشرتكِ وشعركِ بسبب الحرب؟"

هزّت ورد رأسها بالنفي، فقالت إيمان: "أرجوك لأجلي، فأنا أريد الذهاب أيضاً، هيا دعينا ندلّل أنفسنا"

لم ترغب ورد بالذهاب، ولم تضغط عليها أختها؛ فعادت إلى المنزل بعدما شعرت إيمان بأنّها خفت عن أختها قليلاً. في طريق العودة، وفي شارع محمد ناجي الهادئ الممتلئ بالأشجار الشاحخة المتشابكة، كان هناك مجموعة من الفتية يلعبون، قلّد أحدهم صوت عواء الذئب، وتبعه الآخرون على نفس الوتيرة، وقفت ورد، ارتعشت وارتجفت، وضعت يدها على رأسها إثر صداًعٍ شديدٍ انتابها، شعرت بدوارٍ قوي، انتفضت كأنّها أُصيبَتْ بصدمة كهربائية، ثمّ فقدت الوعي.

التّم حولها الناس ونقلوها إلى أقرب مشفى في المنطقة.

في المشفى، أعطى أحد الأطباء إيمان عنوان الطيبة (رشا فتحي) بعد أن فحص ورد، وقال إنّها من أشهر الأطباء النفسيين في مصر. عادت إلى المنزل بعد أن استعادت ورد وعيها، لكنّها ظلّت متوترة خائفة، أدخلتها إيمان غرفتها لترتاح وأمرت الطفلتين بالحفاظ على الهدوء، وفي تلك الليلة اضطرت إيمان لإعطاء أختها حبة منوم كي تنام.

في اليوم التالي، ذهبت إيمان برفقة ورد إلى مدينة نصر حيث عيادة الدكتورة رشا، كانت العيادة هادئة الألوان مريحة للنفس، يغلب عليها اللون الأبيض وألوان الأثاث الفاتحة.

حين دخلت إيمان وورد على الطيبة، ابتسمت لهما بلطف، فظهرت غمازتها كفاصلة صغيرة في لوحة وجهها، في حين أشعت عينها بذكاء وأظهرتا حناناً دافئاً ينبع من أعماقهما، ممّا جعل إيمان ترتاح لها ولمجلسها.

سألت الطيبة إيمان على انفراد: "اشرح لي، ما المشكلة؟"

"كانت معتقلة عند الجيش الإسرائيلي، خرجت هكذا كما ترين"

"هل لديكم أي معلومات عن حالتها خلال الاعتقال؟"

"كلّا.. من الصعب الحصول على معلومات كهذه"

"هل تبقى متوترة هكذا وكأنّها في حالة تأهب للدفاع عن النفس"

"أجل، معظم الأوقات"

"حين خرجت كيف وجدتموها؟"

"كانت ترتجف كأرنب خائف، تحدّق بلا وعي في التّاس والأماكن من

حولها"

"أي نفس حالتها الآن؟"

"أجل"

"هل تلفّظت بشيء؟"

"كانت صامتة، إلى حين جاء يوسف"

"من يوسف؟"

"زوجها، كان من المفترض أن يكون العرس في السابع من أكتوبر ولكنه لم

يحدث"

"فهمت"

"ماذا قالت حين رأت يوسف؟"

"صارت تصرخ وترتعد وكانت ترفع يدها في محاولة لحماية نفسها، وتقول:

"يوسف لا تفعل!"

"وهل آذاها يوسف؟"

"لا أعلم، لقد اعتقل معها ولكنه خرج بعد أسبوعين من اعتقاله"

"فهمت، إذن هي لا تتحدث عن ما أصابها أبداً ولا تعبر"

"أجل"

"وأين يوسف الآن؟"

"أبعدناه عنها كي تتعافى، لا أعلم إن كان في غزة أم سافر، فقد كان ينوي

إتمام دراسته خارج البلاد"

"وماذا أيضاً؟ هل تخاف من شيء معين؟"

"الظلام، كنت في الحرب نحافظ على شحن جميع الهواتف كي نضيئها لها ليلا

فلا تفزع"

"وهل تشاهد الكواييس؟"

"كثيراً.. لم تكن تنام خلال الحرب إلا بالمنوم"

"هل تؤلمها معدتها بين فترة وأخرى؟"

"أجل، تشتكي من ذلك أيضا"
 "هل تعرفين كيف فقدت قدمها؟"
 "وجدوها مصابة في قدمها، نقلوها للمشفى وهناك بتر الأطباء قدمها"
 "وماذا حصل معها بالأمس؟"
 "كانت في حالٍ جيدة، أخذتها لأروّح عنها وعند عودتنا، أصدر بعض الفتية صوت عواء ذئب فانتفضت وارتعشت وفقدت الوعي"
 "فهمت، الاضطراب القهري"
 "تقصدين ما حدث بالأمس؟"
 "أجل، اسمعيني، بدايةً وكأول خطوة في طريق العلاج يجب أن تثق بي ورد وتعامل معي وتحاورني، مبدئياً أريد منك توفير بيئة هادئة مريحة لها بلا توترات، وأنا سأحاول كسب ثقتها"
 "سأفعل إن شاء الله"
 "سيكون من الجيد لو دمجت فيها ضمن نشاطات يومية، الذهاب إلى الحديقة والسوق مثلاً"
 "فهمت"
 "سأكتب لها دواء عليها الالتزام به، لكن الدواء وحده غير كاف، يجب أن تملك هي عزيمة الشفاء، وإني أبلغك أنّ علاجها سيكون طويل الأمد"
 "هزّت إيمان رأسها في أسي، أرسلت الطبيبة لاستدعاء ورد من غرفة الانتظار، وحين دخلت ورد وجلست على كرسي المكتب أمامها، سألتها

الطبيبة عن اسمها فأجابت، وعندما حاولت الطبيبة لمس يدها كنوع من الدعم والمؤازرة سحبتها بفزع.

قالت الدكتورة رشا: "هَلَّا حدثني عن ما يؤلمك يا ورد؟"

هزّت ورد رأسها علامة على النفي.

"حسنًا.. هَلَّا أخبرني بشيء جميل من حياتك؟"

ردّت ورد بصوت خفيض: "أنا لا أحمل غير القُبْح، من الصعب رؤية غيره"

"ولم نَحْمَلْهُ يا ورد؟ أليس الأفضل أن نتركه خارج الباب ولا ندخله

منزلنا؟" ردّت الطبيبة بهدوء

"هو حطّم الجدران ودخل"

"سأقول لك شيئًا يا ورد، فهل تنصتين؟"

هزّت ورد رأسها بالإيجاب.

"نجا البرعم من سجن التراب، وأطلّ برأسه على النور، فأورق وأزهر وصار

نضراً يستقبل حلو النسيم، والتفّس كذلك البرعم طالما هي أسيرة في سجن

الجسد والألم، تمرض وتموت"

قالت ورد بملامح جامدة: "أنتِ واهمة، لستُ مريضة، أنا طفرة شيطانية في

هذا الخلق، جسدي مسجون داخل روعي المعذبة وليس العكس، ربّما لن

أستطيع النجاة"

"هل تحدثيني عن روحك المعذبة إذن والتي تسجن جسدك؟"

"داخلها ذئب يعوي"

حدّقت الدكتورة في دهشة وقالت: "كيف؟"
 أجابت ورد ببعض العصبية مع حفاظها على حالة جسدها المتأهبة للدفاع
 عن النفس: "قلتُ لك لا أعرف"
 "حسنا .. كما تشائين يا ورد، لا تتعبي نفسك"
 قبل أن تغادرا، قالت الطبيبة لإيمان: "أختك ترفض الاستجابة، وفكرتها
 المسيطرة عليها أنّها وُجدت ووُلدت في هذه الحياة مُعذّبة، حزينّة ومُظلمة،
 لا يمكن لومها، فعقلها أنشأ لها هذه الحالة كنوع من الآليات الدفاعية،
 لكن اعلمي.. ستأخر مدّة شفاؤها"

.....

في معبر رفح، كان يوسف يجلس برفقة أحمد، يفكر في ابتسامة إبراهيم
 الدافئة وعِراكه ضدّ مرض السرطان، ودموعه حين جاءه مودّعا مرتديا
 قميص والده الفضفاض، سأله وقتها يوسف: "لا نوم الآن، فهل أنت خائف؟"
 قال إبراهيم بصوت منخفض: "أجل"
 سأل يوسف بحنان: "مّمّ تخاف؟"
 "من ذهابك، من سيهتم بي ويُرَاعِي مرضي؟"
 "لا تخف يا إبراهيم، فالله هو الرزاق وما نحن إلا أدوات في يديه"
 ظلّ إبراهيم وقتها يبكي في حضنه حتى مجيء السيارة التي أفلّتهم إلى معبر
 رفح.

كان أحمد يحادث يوسف وهما جالسان في صالة المعبر المصري ينتظران دورهما للسفر، ولكن يوسف ظلّ سرحانا شاردا حزينا، لم يستمع إلا لصوت نجيب إبراهيم، وضجيج المخيم، ونقر قطرات الماء المتسربة من سقف الخيمة إلى داخل الوعاء، والتي لا تنفك عن السقوط داخل عقله.

.....

بعد أربع سنوات..

2028/12/12

كانت إيمان تجلس قبالة أختها تستذكر الصعوبات التي مرت بها منذ مجيئها إلى مصر، سفر يامن للدراسة بمنحة مقدمة من إحدى الجامعات التركية، إيقافها عن العمل في وكالة غوث وتشغيل اللاجئين، فتحها لمشروع (المكتبة) والذي نجح في إعالتها هي والطفلتين وورد، مرض أختها الذي طال ولا بصيص أمل ظاهر في الأفق، تأملت إيمان ورد فوجدتها تبدو كميتٍ أطلّ من قبره وهي تتصفح هاتفها المحمول، كانت إيمان تراقبها بحزن ممزوج بالحنان، تحدث نفسها: "إلى متى ستبقى هكذا يا ورد؟ لم تؤثر فيكِ الأدوية تأثيرا واضحا، ولا زلتِ لا تستجيبين للطبيرة خلال جلسات المناقشة والحوار، إلى متى؟"

حدّثت ورد خلال تصفحها في إحدى إعلانات الكتب لمعرض القاهرة الدولي للكتاب المومع أن يقام في الأخيرة من شهر يناير، كان الإعلان لمجلد

المنثوي لجلال الدين الرومي، وقد عرض الاقتباس التالي: "لقد سما الجسد الترابي من العشق حتى الأفلاك، وحتى الجبل بدأ في الرقص وخفّ. أيها العاشق، لقد حلّ العشق بروح طور سيناء، فثمل الطور وخرّ موسى صعباً. وأنا لو كنت قرينا للحبيب لكنت كالنار أبوح بما ينبغي البوح به. والكلّ معشوق، والعاشق مجرد حجاب، والمعشوق حي، والعاشق إلى موت. ولو لم يره العشق يبقى كطائر بلا جناح، ويل له"

تمتت ورد وهي ذاهلة: "لو لم يره العشق يبقى كطائر بلا جناح!"

قالت إيمان باهتمام: "هل قلت لي شيئاً يا ورد؟"

نظرت ورد إلى أختها وقالت: "هل كنتُ أظير؟"

ردّت إيمان في دهشة: "لم أفهم"

قالت ورد بصوت ضعيف: "هل كنتُ أظير وأصبحتُ بلا جناح؟"

قالت إيمان بصوت هادي: "ورد.. لا أفهم كلامك!"

أغمضت ورد عينيها وجلست حوالي ربع ساعة بلا حراك، شعرت بأنّها تدور في فضاء الجسد، فتسمو بشعاع من نور هنيهة من الزمن، ثمّ تهبط داخل بحر من الدجى يمتد داخلها، زارتها صور طفولتها الجميلة العذبة، وشبابها الممتلئ بالدلال والحب، انتفضت محاولة الإسراع رغم إعاقتها نحو المرأة، تأملت طويلاً الصورة المنعكسة أمامها، شعرت بأنّها نائمة على كلّ الحكايا الماضية وقرينة للشقاء، همست: "أنا دخيلة على نفسي، لم أكن هكذا"

لحققتها إيمان وسألتها: "ورد، ما بك؟"
قالت: "أنا غريبة على نفسي، لست أنا، كنت أطيّر، أجل.. كنت كطائر مغرد عاشق لهذا الوجود، غادرنى العشق وسكنني الظلام، صرْتُ مذهولة خائفة مكسورة الأجنحة، أرتعد وأرتجف"، أدارت وجهها نحو أختها وسألت:
"لماذا؟"

قالت إيمان في تلعثم: "ورد.. اسمعيني.."
قاطعتها ورد سائلة: "هل كانت عيناى هكذا؟ خائفتين؟ مشدوهتين؟"
أمسكت إيمان بذراعى أختها ونظرت داخل عينيها: "كلّا لم تكونا بهذا الشكل الدائري المحدق، كانتا جميلتين لوزيتين واسعتين حالمتين، تذكر خضرتهما بربيع البلاد"

حينها جاءها صوت يوسف كنغمةٍ فالتّ من فم الراعى: "كم أعشق هاتين العينين يا ورد، يا ليتني كحل يرسم براحهما كل يوم، أو فراشة تداعب ورق الشجر داخلهما"

جلست ورد على طرف السرير المجاور لها وقالت بصوت مرتجف: "أنا.. أنا كالنّاي الذي نُفخت فيه التّار بدلا من الهواء، فأحرّقته"
أمسكت إيمان بكتفيها: "ورد.."

"إنّ النّاي يصف طريق الحزن والألم وطريق الحب والفرح، فلماذا لا يبقى داخلي سوى الرماد والعواء؟"
"ورد.."

صرخت ورد: "ما الذي نفخ النار داخلي؟ لماذا يمنعني عقلي عن التذكر؟" احتضنتها إيمان وقالت مهدئة لها: "ولكنك بدأتِ تدركين بعض الأمور، هذه الخطوة الأولى، أحسنتِ، أنتِ قوية، لا تستعجلي يا ورد، اهدي" انهارت ورد بكاءً، وضعت يدها على بطنها ثم قالت لأختها: "معدتي تؤلني بشدة"

قالت إيمان: "آلام المعدة طبيعية في حالتك، لا تقلقي، ارتاحي" أنامتها على السرير، غطتها، وخرجت من الغرفة وهي تتصل بالدكتورة رشا: "دكتورة، بدأت ورد تسترجع نفسها وتذكر بعض الأمور، سنكون عندك غدا إن شاء الله"

....

كان يوسف يتأرجح بحفّة على الأرجوحة التي علّقها على شجرة الزيتون في أرضه التي استأجرها منذ عدّة أشهر في مدينة سالونيك، منغمرا بين دفتي كتاب، اقتحم أحمد جلسته قائلا: "أين أنت يا صديقي؟ مختفٍ منذ مدّة" "أهلا يا أحمد كيف حالك؟" "بخير، ماذا تقرأ؟"

"أوبراين: كيف يفرض الإنسان سلطته على الآخر..؟"

وينستون: بأن يجعله يعاني"

سأل أحمد: "من أي كتاب هذا؟"

"رواية 1984 لجورج أورويل"

قال أحمد: "ها.. أجل، معه حق هذا الوينستون"

ردّ يوسف: "لكن لي وجهة نظر مختلفة"

سأل أحمد: "ما هي؟"

"ليست المعاناة فقط من تجعل الإنسان خاضعاً، بل الكثير من الأمور أيضاً"

شبّك أحمد يديه ومال يسارا متكئاً على شجرة الزيتون وقال: "مثل ماذا؟"

"نشر التفاهة، هدم القيم الأسرية والاجتماعية، تغيير الفطرة السليمة،

كنشر الشذوذ والإلحاد والتعصب والعنصرية وغيرها، الرفاهية الزائدة

والبذخ، قلب المفاهيم، الجهل، ولا أعني بالجهل هنا عدم المعرفة وعدم

التعلم، فالمعرفة الضرورية لحياة البشر صارت تتألف من تلك المعارف

المختارة من كافة المجالات غير المحدودة، والتي في أغلبها غير ضرورية،

الآن أصبح الكثير من المتعلمين جهلاء والعلم بات محدوداً ومُحجّماً فيما

يعرضه لنا، وحين يصبح العلم محدّدا ضمن إطار معين، يُوضع الوعي

البشري والفكر الإنساني داخل عقلٍ خاضع"

تنحّج أحمد ثم قال: "أليست هذه كلّها أنواع للمعاناة ولكنّها مستترة بغطاء

التقدم والرقى والحضارة؟ يعني، وينستون هذا اختصر كلّ عباراتك المنمقة

في كلمة واحدة (المعاناة)"

قال يوسف بشيء من الإعجاب: "في هذه غلبتني!"

ضحك أحمد بخفّة وقال: "المهم.. ألنّ تتحرر من أسر الأرجوحة؟"

تنهد يوسف وقال: "حين أتححر من أسر ورد، أكثر لحظة أندم عليها في حياتي، هي تلك اللحظة التي أفلت فيها يدها حين كنا في المشفى"
 "ومتى ستتحرر من أسرها؟"

"لا أعلم، أو من بأنّ كلّ شيء كهذه الأرجوحة يبتعد ويعود، يرتفع ويهبط ومهما ابتعد ومهما علا وسقط سوف يعود إلى موطنه"
 "تقول أنّها ستعود لوطنها، والذي هو أنت؟"
 "أنا وطنها وهي وطني يا أحمد"

"كلام جميل، ولكن في القصص الخيالية والكتب، تزوّج كي تنسى يا صديقي، كي تقتل هذا الخيال الزائف"

ابتسم يوسف وقال ممزحاً: "لم ينسّ الخديوي إسماعيل محبوبته أوجيني؛ كما أنّي لا أملك المال مثله لبناء قصر لأجل ورد!"
 قال أحمد بتعجب: "لم أفهم!"

ضحك يوسف وقال: "أخبرك بقصتهما؟"

ابتسم أحمد: "أخبرني، لنرى"

"التقى الخديوي إسماعيل بأوجيني الفتاة الإسبانية الجميلة خلال دراسته في فرنسا، وحين رآها الخديوي لم تكن أوجيني إمبراطورة، ولم تجر في عروقتها أي دماء ملكية ولكنّه وقع في غرامها.

شاءت الأقدار أن لا تكتمل قصتهما، وبعد عدّة أعوام التقى نابليون الثالث، الإمبراطور الفرنسي الشاب، بأوجيني الجميلة، ليقع في غرامها هو

الآخر وينجح بعد معاناة مع أهله بالزواج منها، ويُصدم الخديوي إسماعيل حين يُدرك أن إمبراطورة فرنسا الجديدة ليست إلا حبه الأول الذي لم ينجح في نسيانه، أوجيني "

ابتسم أحمد باستمتاع وقال: "ثمّ؟"

"تمر الأعوام ويتزوج الخديوي إسماعيل أربع عشرة مرّة، ولكنه لم ينس حبه الأول "

قال أحمد بذهول: "يا للهول! أربع عشرة مرّة ولم ينسها! مسكين أنت يا صديقي "

ضحك يوسف وأكمل: "قبل حفل افتتاح قناة السويس، قرّر الخديوي بناء قصر لاستضافة الملوك من أنحاء العالم، وعلى رأس ضيوفه كانت الإمبراطورة أوجيني.

بنى قصر الجزيرة كي يبهرها، فجعله بتصميم أندلسي عربي لأنّها من أصول إسبانية، من مدينة غرناطة، وخصّص لها أكبر غرفة في القصر، تطلّ على زهور الكرز التي كانت تحبها، وأمر بصناعة غرفة نوم خاصة بها من الذهب الخالص، مزينة بالأحجار الكريمة، تتوسطها ياقوتة حمراء كبيرة نُقش عليها بالفرنسية: "عيناى على الأقل ستظل تحبك إلى الأبد"

"يا لهذا البذخ! وماذا حصل بعد ذلك؟"

ابتسم يوسف ابتسامة واسعة وأردف: "الإفلاس طبعًا. بعد هذا الحفل الكبير حصل عجز هائل في ميزانية الدولة، وعُزل الخديوي إسماعيل من

قبل الخليفة العثماني بضغط إنجليزي، وبيع القصر الذي بني خصيصا لأوجيني لشركة سويسرية، لتسديد جزء من الديون، وحاليًا بعد انتهاء الحكم الملكي أصبح هذا القصر فندقًا ضمن سلسلة فنادق الماريوت "ضحك أحمد وقال: "يعني بعيدا عن البذخ والإفلاس، لو تزوجت عشرين واحدة لن تنساها، هل أفهم هذا من كلامك؟" "كلّ نساء العالم لا يمكنهنّ جعلي أنسى ورد" "مجنون!"

قال يوسف متجاهلا: "أتشرب القهوة؟"

"ومن أين لك قهوة هنا؟"

"عيب، وهل تغيب القهوة عن مجالسي؟"

"أشرب إذن"

نهض يوسف ليحضر دلّة القهوة من السيارة، وعاد بعد دقيقة حاملا الدلّة وكوبين ورقيين، قال أحمد في حين كان يوسف يصب القهوة: "أتعرف؟ أنا أفخر بك يا صديقي"

"ولكنّي لم أفعل شيئا يدعو للفخر يا أحمد"

ارتشف أحمد بعض القهوة وقال: "بل فعلت، كنت تؤمن بوجوب إتمام دراستك، فأتملت، ثم آمنت بوجوب الجّد والعمل وعدم الاستكانة للراحة وفعلت، وها أنت تثبت نفسك في بلاد غريبة وزمن قصير، وهذا كلّه وأنت تدوس على جراحك وتمضي، أمّا أنا فما زلت مكانك سر إلى الآن"

وضع يوسف دلة القهوة على الأرض وقال: "لماذا تستمر الأرض في الحركة والدوران يا أحمد؟"

"لماذا؟"

"كي لا تسقط، وكذلك كل مخلوق غيرها، السكون يعني الحكم بالإعدام، لو لم أله نفسي وأصنع لحظتي لمتُ يا أحمد، أما أنت فوضعك مختلف عني، عملك لم يناسب قدراتك وما زلت تكافح كي تصنع لك حياة، وأنا دخلتُ البلاد طالب علم، ثم فتحتها الله عليّ، كما أنّي أفتخر بك أيضا يا صديقي فقد غيرتك الغربية للأفضل"

"أجل غيرتني وعلمتني الكثير"

"ماذا علمتك؟"

تهدد أحمد وقال: "أن أواجه جميع مشاكلي وحدي، وحدي بما تحمله الكلمة من معنى، بلا داعم لي، تيقنت أنّ مصلحتي تكون مع نفسي فقط، يجب أن أدللها كي تبقى قوية وأعيش، أتعلم؟ حين لا أراك لمدة طويلة أمكث عدة أيام دون أن أحادث أحدا، أبقى صامتا بلا كلام مع أنّ داخلي ممتلئ بالكلمات"

قال يوسف: "كل من افترق عمّن يفهمه ظلّ بلا لسان ولو امتلك آلاف الجمل والعبارات"

"في هذه معك حقّ، نحن دوما نبحت عن شبيه لنا، وفي هذه الغربية من الصعب وجود هذا الشبيه"

"أجل.. ولن أجد من يفهمني كما كانت تفعل ورد"

قال أحمد بشيء من المزاح: "سامحك الله، وأنا؟"

ضحك يوسف وقال: "أنت صديقي وحبيبي، ولكنك لست وطني"

قال أحمد مماًزحاً: "سأكون سعيداً إن وجدتَ وطناً لك إذن، أقولها من جديد: تزوج"

"أنا وطني موجود، سأرجع له يوماً ما، لكن أنت من يجب أن يتزوج"

"إن شاء الله، حين يتطور عملي من غسل الأطباق إلى غسل الأرضيات!"

ضحك يوسف وقال: "لا تقلق يا صديقي، ستعمل بشهادتك قريباً إن شاء الله"

"إن شاء الله، أتعلم؟ أنت أيضاً تغيرت، فما عدتَ تغضب كالثور حين أقول لك تزوج"

"فهمتكَ وفهمت نفسي أكثر، الفهم يقلل الغضب"

خيم الصمت للحظات، وطفى على الأجواء صوت زقزقة العصافير وحفيف الشجر، وخرير الماء المنبعث من الجدول، كان يوسف يجلس على الأرجوحة يتأمل بعض زهور الجوري التي قام بزراعتها، قال له أحمد وهو يقف بجواره: "انظر لذلك العصفور، ما أصغره!"

"أين؟"

"إنه يسير هناك أسفل الجوري"

نظر يوسف وابتسم لرؤيته عصفورا جميلا، يغلب عليه اللون الأزرق اللامع، يداعب بمنقاره حبات الرمل التي أوتحت له بالسلام والحب، حتى مال إليها بخفة.. يقبلها!

بعد ثوانٍ فزع العصفور وطار نتيجة صوت مركبة قادمة، نظر يوسف وأحمد نحو السيارة القادمة، كانت سيارة سوداء اللون من نوع KIA، ضيق يوسف عينيه وهو ينظر في عجب محاولا معرفة صاحبها، توقفت السيارة ونزل منها شاب ضخم الجسد، بارز العضلات، عسلي العينين، كستنائي الشعر، مشى بكبر وغرور، وقف أمام يوسف ناظرا إلى وجهه مباشرة قائلاً بصوت أجش: "مرحبا"

ظل يوسف مندهشا مذهولا، في حين فرك أحمد عينيه أكثر من مرة ونظر بتفحص إلى وجه الشاب، ثم تلعثم قائلاً: "م..من.. من هذا؟"

-12-

2028/12/31

"إنّ محو حدود سايكس وبيكو هو أسهل عليّ من البحث عن يوسف" قال
يامن في حين كان يرتشف ما تبقى من كوب الشاي على عجل.
ضحكت ملك وقالت وهي تشبّك ذراعيها، وتسند ظهرها إلى الكرسي
المغلّف بالجلد الأحمر: "لا يعقل، ليس إلى هذا الحدّ يا يامن"
نظر إليها يامن بتجهم وقال: "لو رأيته سأقتله، إنّ أختي تعاني بسببه منذ
خمس سنوات"
زمت ملك شفيتها وقالت: "لا أحد لديه الحقّ في تنظيم المجتمع وتعديل
السلوك عن طريق العنف يا يامن"
قطب يامن حاجبيه وقال: "وجهة نظر، لكن للأسف.. لا وجود لها سوى
عندك يا ملك"
"ومن قال هذا؟"

"الأنظمة العالمية من تقول، مثلاً.. اليمين يستخدم خطاباً يهاجم فيه
الشعب بدلاً من السلطة، والتغيير عندهم يكون بضبط سلوكيات
وأخلاق الشعوب، أي عنف وقانون غير منصف غالباً، كما أن للسلطة

حرية القرار بعيداً عن الشعب، في حين يتحمل الشعب مسؤولية جميع المشاكل حتى لو كانت قادمة من الفضاء!

أمّا اليسار الثوري يلتقي اللائمة على السلطة لا الشعب، ويقول بأنّ التغيير لا بد أن يبدأ من الأعلى، من السلطة، وبالتالي ينتج عنفا وثورة في البلاد لأجل التغيير، والذي هو في المحصلة عبارة عن تغييرٍ مزيف، لا شيء في هذا العالم غير العنف يا عزيزتي"

قالت ملك وهي تضع قدما فوق قدم: "ألا يمكن أن يكون هناك تغيير مبتعداً عن مفاهيم الثورة العنيفة؟

مثلاً.. إجراء تغيير ديني وروحي حقيقي في كلّ فرد، يقوم على قمع الإنسان لشهواته، وتهذيب سلوكياته بناء على إيمان يتأسس على شرائع من أرسله إلى هذا العالم، وليس من يحكم العالم"

"فلسفة عميقة.. صعبة التطبيق، البشر مختلفون، والشرّ جزء لا يمكن إنكاره في هذا العالم، لم ينصع البشر للأنبياء فهل سينصاعون لفلسفتك هذه؟ لا شيء يحكم الآن غير القوة"

"لا أعتقد أنّها صعبة التطبيق، ولكنّها تحتاج فقط إلى أشخاص يحملون فكراً حراً"

قال يامن وهو يشير إلى النادل: "ألا تعرفين أن حرية الفكر جريمة؟"

"ألا توجد حرية فكر في هذا العالم؟"

"لا توجد، وإن وجدت علناً فهي في الخفاء عبودية، كلّ بوقٍ يُغني لصاحبه"

أطفأ يامن سيجارته وفيها بقيّة، ثمّ طلب الحساب من النادل على عجل،
فقالت ملك: "المهم.. ابدأ أنت، غيّر من نفسك، ألم نقل تخلص من الحقد
والكراهية والسخط؟ كُن قويا"

"لا أسهل من الكلام"

"المواجهة يا يامن، المواجهة تدحض الكثير من الظنون التي تدفع بك نحو
هذه المشاعر، واجه يوسف"

أخرج يامن زفرة طويلة معبّقة برائحة السجائر ونهض قائلاً: "سأذهب الآن"
انتظر، إلى أين؟"

"لا تخافي، إلى كيس اللّكم، وليس كرسي البار"
أكيد؟"

ابتسم ورفع اصبعي السبابة والوسطى وأشار بهما مودعا قائلاً: "عيب"
رسمت ملك ابتسامة مصطنعة، ولوّحت بيدها مودعة، ثمّ أرسلت رسالة
إلى علي: "حين يصل يامن المنزل، طمئني"

في الطريق فتح يامن تطبيق الماسنجر، سجّل رسالة صوتية وأرسلها إلى
أحمد: "أعرف أنّي لم أحادثك ولم أبحث عنك منذ سنوات، وأنّ تعرف
السبب جيّدًا، ولكنّي الآن أحتاج لمحادثة يوسف لأمر ضروري إن كنت
تعرف أين هو، وأنا أجزم أنّك تعرف"

دخل يامن المنزل، ألقي التحيّة على علي وأدهم اللذين كانا يتفحصانه، ابتسم
لهما ثمّ قال: "لا تخافا، أنا بكامل وعيي، كُفّا عن تفحص سلوكياتي، رجاء"

وصل إلى غرفة المخزن، خلع سترته، ارتدى القفازات وبدأ بإفراغ غضبه على الكيس الذي راح يئن أمامه وكأن الآلام تتسرب من يامن إليه.

قالت الدكتورة رشا بهدوء وحنان: "ألن تخبريني يا ورد ما حصل معك أمام شاطئ الإسكندرية قبل ثلاثة أيام؟ هل يمكنك الحديث؟"
"هناك جثة خائفة داخل عقلي تمنعني"

"جثة من؟"

"جثتي، أشعر كما شعرتُ في تلك اللحظة، كجيفةٍ تطفو على محيطٍ من القذارة المعتمة"

"وما هي تلك اللحظة التي شعرت بها بذلك الشعور؟ هل تستطيعين الحديث عنها؟"

هزّت ورد رأسها بالنفي

فأردفت الدكتورة: "الكتابة؟ هل تكتبين عن ما حدث معك أمام الشاطئ واللحظة المربوطة به التي جعلتكِ تشعرين كجيفة؟"
اختنق صوت ورد: "أجل، أكتب"

"اكتبي إذن" وناولتها الأوراق والقلم، ثم قالت: "أتخمين أن أبقى أم أذهب؟"

ردّت ورد بصوتٍ هادئ: "الأفضل أن أبقى وحدي"

نهضت الطيبية وهي تنظر لها بألم وشفقة وخرجت، أمسكت ورد بالورقة والقلم وبدأت تكتب:

"كنتُ أتمشى على شاطئ المعمورة في الإسكندرية حين حدث ذلك، تغلغلت الموسيقى الصاخبة داخل عقلي وعدتُ إلى ذلك المحيط من القذارة الذي لطّخني بأوساخ صعبة التنظيف؛ جلستُ داخل زنزانة مغمورة بالبرودة والظلام، وأنا أرتجف نازفة الأنف متورمة الشفتين، والكدمات تنتشر على جسدي كمرضٍ جلدي، أرتمي رداءً يصل إلى أسفل الركبة بقليل، أبيض اللون وبدون بنطال، متكورة على نفسي وعلى الحياة. أردد عبارات لتقويني، عبارات طالما آمنت بها واتخذتها شعاراً لي في هذه الدنيا:

"يرتدي البستان الحل حيناً ويصبح عارياً حيناً آخر.

النار المحترمة آخرها ماء يقرأ عليها آية موتها.

أنا قوية بك يا الله فنور القلب يهب الجسد القوة والعزم"

ثم غفوت ..

استيقظتُ على صوت صرير البوابة تُفتح، دخل مجموعة من الجنود، نظرتُ إليهم وحاولت من خلال شعاع الضوء المتسلل التحقق من نواياهم الدفينة التي تُظهرها تعبيرات وجوههم.

رأيتهم.. أنا متأكدة، إنه يوسف، يحمل الملامح ذاتها التي أحفظها جيداً، العينان العسليتان والشعر الكستنائي والجسد بارز العضلات، لكنّه لم يكن يحمل حنان الكون ودفعه داخل نظراته كالمعتاد، ولم يكن يحتضني داخل نبضه المتسارع، كان يبدو كشيطانٍ ثمل يمشي على الأرض!

قلتُ بدهشة وأنا أحدّق فيه: "يوسف!"
 اكتست ملامحه بالاستغراب، ثمّ ضحك بصوتٍ عالٍ ساخر، وقال شيئاً
 بالعبرية لم أفهمه، كان صوته جافاً غليظاً على غير ما ألفت، تحلّق الجنود
 من حولي، واقترب هو ممّي أكثر قائلاً: "ليش خايفة ممّي أنا؟"
 كان ينظر بحقد وشرّ لم أره في حياقي مسبقاً، أشعل أحد الجنود صوت عِواء
 ذئب، جاء الصوت مخيفاً جداً تبعه صوت نحيب أطفال وصراخ نساء، ثمّ
 صوت موسيقى صاخبة كالتي سمعتها أمام الشاطئ، تحرّك الجنود مع
 علو الموسيقى وازدياد صخبها مسرعين نحوي، كانوا كثيران هائجين، ثمّ.. ثمّ..
 لا أستطيع كتابة ما جرى بعدها.

ولكنّي شعرتُ بأني جيفة أطفو فوق بحرٍ من الظلام القديرِ التّن الرائحة،
 فتحتُ بعدها عينيّ على صوتِ مرآة تُكسر، وجدتُ نفسي متكورة فوق
 السرير في غرفتيك، تردّدت على مسامعي آية من سورة يوسف: " قَالُوا أَإِنَّكَ
 لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ
 فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (90) ، وسمعتُ بعدها صوت يوسف
 الحنون الذي أعرف يقول: "حطّمي المرأة، جدي نفسك".

ليس هذا كلّ ما تذكرت، فهناك المزيد، سأفصح عنه حين أكون مستعدة،
 ولكن هناك شيء آخر أريد أن أخبرك به الآن.

فقد حلمتُ ليلة البارحة يا دكتورة بالآية نفسها والعبارة ذاتها التي جاءت
 بصوت يوسف، كنتُ في حلمي أقف داخل بئر مظلمة لا حبل فيها، مصابة

بالفرق، سمعتُ صدى صوت يتردد: "إبراهيم وجد في النار السرور والسلام والياسمين، وظلمة البئر تجعلك تدرك النور المبين، والخلوة صفاء للقلب" تساءلتُ وقتها: "هل أنا في خلوة؟ أم في اختبار يقودني نحو الصفاء؟" ترددت على مسامعي آية من سورة (يوسف): "قَالُوا أَأَنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (90)"

ثم سمعتُ صوت يوسف ينادي علي: "ورد، ورد" وشاهدتُ حبلا يمتد باتجاهي، قال يوسف: "هيا تمسكي جيدا لأُخرجك" تمسكتُ بكامل قوتي وخرجت، وجدت نفسي داخل حقل محترق مقفر، بجواري أرجوحة ممزقة مهجورة، يتشبث حبليها المتهالك ببقايا شجرة زيتون، تمتمتُ: "ها هنا كنت"، عثرتُ على جسدي عارياً مخذولاً، ورأسي منفصلاً، صرختُ، شعرتُ بأني أطفو كحيفة في محيط الظلام القذر، انتشلتني يوسف بمعصمه ذي الشامة الإسطوانية.

وقف أمامي قائلاً: "تريدين كسر مرآتك، أنا مرآتك وهذه هي الأحجار"، ناولني بعض الأحجار في يدي، وقال: "حطمي المرأة، جدي نفسك" شعرتُ بأن هذا الحلم ليس مجديدي عليّ يا دكتورة، فكأني شاهدته مسبقاً، وحين جلستُ مع نفسي، أدركتُ أن الله برحمته وصف لي العلاج قبل إصابتي بالمرض ولكّني لم أفهم، فدائماً ما يخلق الله الحلّ قبل وقوع المشكلة،

فالقافلة التي أنقذت سيدنا يوسف من غياهب الحبّ خرجت من مقرها قبل أن يفكر إخوته بأمر إلقاءه في البئر.

وأنا شاهدتُ علاجي في حلمي، قبل أن يحدث الأمر الذي سيمرضني! علاجي في عدّة أمور يا دكتورة وأحسب أنّي نفذت بعضها بصحبتك، وأنّ تسعين جاهدة لتنفيذ الباقي معي. أمّا التي نفذتها فهي الخلوة والصبر والتقوى، أسأل الله أن أكون من أهلها، وأمّا التي لم أنفذها فهما أمران؛ الأول كشف سرّ يوسف، والثاني إدراك وهم الزمن.

أمّا يوسف فيجب كشف سرّه لعلاج الجثة الخائفة داخلي، والتي تطفو في بحر قدر من الظلمات، وأنا أشك أن السرّ في معصمه الذي انتشلني من محيط القذارة داخل حلمي!

وأما إدراك وهم الزمن فهو الإيمان بأبدية الروح، لا ماض ولا مستقبل، الزمن في حضرة الروح عبارة عن وهم يجب أن يتبدد، كصورة الجسد حين تتلاشى مع المرأة المكسورة، لكي أجد نفسي مضطرة إلى أن أعيش اللحظة الحالية، وأكسر الصورة التي نشأت داخل مرآتي من أحداث الماضي.

إن استطعتُ تنفيذ هذين الأمرين فستكون ظلمتي سبب نوري ورفعتي، كما كانت بئر يوسف وسجنه سببا لعزته، وستصبح نار روحي منبتا للسرور والسلام والياسمين كنار سيدنا إبراهيم، وحينها.. سأُشفى"

مساءً

جلس يوسف على كنبه بنية اللون في غرفة المعيشة، يُشعل إنارة خافتة ويضع غطاءً رمادياً ثقیلاً على كتفيه ليقيه من البرد، وضع حاسوبه المحمول فوق قدميه الممدوتين أمامه، يحاول إنهاء إحدى التصميمات الهندسية التي طُلبت منه، شعر بالصعوبة في التصميم لأول مرة في حياته، ففكره منشغل بذلك الشاب الذي ظهر أمامه قبل تسعة عشر يوماً وكأنّه مرآته، فكّر في نفسه: "من ذلك الذي يحمل نفس قسّمات وجهي؟

العينان، الأنف، الشفتان، الشعر، كلّ شيء، هل هو توأمي؟ من أين جاء؟ هل سأحلّ لغز ورد به؟ هذا إن حللتُ لغزه هو، آه... سأجنّ!"

كانت صورة الشاب تتوارد إلى عقله بين وقت وآخر، حين حادثه بالعربية المتكسرة وهو يناوله ورقة تحمل عنوان مكان ما: "أراك هنا الساعة الرابعة عصراً يوم رأس السنة 1/1"

ثمّ حين ركب سيارته وذهب، ليتركه في حالة من الصدمة والذهول أصابته بالشلل، ضرب يوسف جبهته بباطن كفّه قائلاً: "أبله، غبي، لمّ لمّ تلاحقه؟ بقيت مكانك سرحاناً كالأحمق"

دُقّ جرس المنزل، أزاح الغطاء عن كتفيه، وضع حاسوبه على الطاولة المستطيلة بجواره، نهض وفتح الباب فوجد أحمد يقف متوتراً، أشار له يوسف بالدخول، دخل أحمد وأغلق الباب خلفه، ثمّ قال بنبرة متردّدة: "حادّثني يا من، يريد التواصل معك لأمر ضروري"

2029/1/1

قبل العصر بساعتين، وقف أمام المرأة يُسرح شعره الكستنائي، نظر اتجاه صورته المنعكسة أمامه وهو يزهو بالغرور والكبر، زارته صورة ورد وهي ترتجف أمامه وتصرخ، ابتسم بفخر ثم ضحك بهستيريا، ذهب باتجاه دولاب الملابس وأخرج معطفا جلديا أسود اللون وارتداه، وقف أمام المرأة من جديد يهذب هيئته، تأمل عينيه، شاهد داخلهما صورة مازن وهو ينزف ويتأوه، ضحك مرة أخرى، ثم.. قطب حاجبيه ونظر إلى نفسه بازدراء وغضب!

سمع ذلك العواء الذي يتردد دوما وسط غابات نومه، ثم رأى نفس الصورة لطفلٍ مكلوم تحوّل إلى شريسٍ يتمنى تذوق عينيه، وصورة أخرى لكهلٍ علّق في رقبته حزامًا من المتفجرات متخذًا إياه كدرع بشري، ثم صورة لتحوّل جسد ذلك الكهل إلى قطعٍ من اللحم المفتت بعد تفجيره.

توافدت الصور إلى عقله تباعا، أشلاء، جثث محروقة، بشر معذبون، أطفال مقطعون، شعر بآنه يقف وسط مستنقع من الدماء، رأى ساعدا عملاقا يخرج من هذا المستنقع ويحكم قبضته على رقبته.

شعر بتعرق واختناق، فخلع معطفه بقوة ونظر إلى وشم الشيطان على ذراعه الأيسر، قال: "أنا شيطان"، صرخ: "أنا شيطان"

جلس على سريريه، تذكر أول حادثة قتل قام بتنفيذها، في عام 2011 وحين كان يبلغ من العمر أربعة عشر عاما، قام بعض المتطرفين اليهود باختطاف

طفل فلسطيني من قرى الضفة الغربية، ناوله يومها والده سكيناً وقال له:
"اذبحه"

تردّد ولم يفعل، نظر إليه والده بحزم وقال: "جدعون، لا تنس، كلّ أطفال
الأميين حيوانات، قتلهم قربان للإله، إنّهُ من الجويم المستعبدين عندنا"
أمسك يومها جدعون السكين بكامل قوته، وضع قلبه جانبا ونفذ
طعنته، رفع كفيه وحدّق في الدماء المنتشرة عليهما.

أفاق جدعون من ذكراه وهو يحدّق في يديه المملختين بالدماء، تتالت
الصور إلى ذاكرته من جديد، تدمير وتخريب، أجساد عارية، قتل وضرب
وشتم واعتداءات جنسية.

تسارعت أنفاسه، تناول زجاجة من الماء كانت موضوعة فوق الكوميدينو
بجواره وشرب، ثمّ سكبها فوق رأسه.

تذكر وقت قابل مازن وهو يئنّ في زنزاته نتيجة آلام التعذيب والعمليات
الجراحية، وكيف دُهِش مازن حين رآه وقال له: "يوسف!"

غضب يومها جدعون وانهاه عليه ضرباً وشتماً، وهو يتساءل: "من يوسف
يا غبي؟"

لكن مازن لم يُجب، ظلّ ينظر إليه بتحدٍ ممزوج بالتردّد والدهشة، أمسكه
جدعون من ياقته قائلاً: "اسمع يا هذا، لقد ناديتني امرأة أخرى بيوسف،
فمن يكون يوسف هذا؟"

قال مازن بصرامة مشوبة بالتردد: "إنك تشبه أخي كثيرا، هذا كل ما في الأمر"

بصق عليه جدعون، وتركه يصرع أوجاعه، ويعالج جراحه وحده بالصبر والصمود.

ذهب جدعون بعد عدة أيام إلى أمه سارة وأخبرها بالقصة، قالت بعد أن أصاغت السمع: "وهل شاهدت يوسف؟"

"كلّا، ولكنني بحثتُ عنه على مواقع التواصل، وجدتُ له صورة على حساب أخيه مازن، إنه نسخة منّي يا أمّي، لم أستطع التمييز بيننا، حتى أنّه يملك جسدا رياضيا مثلي!"

قالت أمه بشيء من التوتر: "أرني إياه إن أمكن"، فتح جدعون هاتفه المحمول وأراها الصورة، شحب وجهها، واكتسح القلق ملامحها، وبدأت عيناها تذرفان فجأة، ظلّت تبكي حتى احتضنها جدعون قائلا: "ما بك؟" جففت دموعها وقالت: "في عام 1997 حين ولدتك، لم تكن وحدك"

"ماذا يعني لم أكن وحدي؟"

"كنتما اثنين، توأم"

قال جدعون في دهشة: "ثمّ!"

"كنّا نسكن وقتها في مستوطنة غوش قطيف جنوب قطاع غزة، هجم علينا بعض الإرهابيين الفلسطينيين واختطفوا أخاك من المنزل بقوة السلاح"

"أيعقل هذا يا أمي؟ وأين الجيش؟ أين سلاح أبي؟"
 "كنتُ يومها وحدي في المنزل، وقد حصلت عملية تسلّل إلى داخل
 المستوطنة"

"ولماذا لم تقولي لي؟"
 "لم أرد إيقاظ المواجه، ظننته مات، اسمع، حتى لو كان حيا فإنني اعتبره
 ميتا، عاش وسط الوحشية والإرهاب، لا يمكن أن يكون ابني، اعثر
 عليه، هو الآن فلسطيني إرهابي وحشي، اقتله"
 بعد عدّة أشهر، صار يوسف جزءا لا يتجزأ من تفكير جدعون، فجَمَعَ
 المعلومات عنه، علم بأنّه سافر إلى اليونان لإتمام دراسته، وفي كلّ مرّة كان
 ينوي مواجهته، تراجع، وكأنّ في داخله شيئا يشي بزيف قصته.
 الآن هو في سالونيك، لهذه المهمة، لقتله، حمل مسدسه وخرج.

"ماذا ستفعل بموضوع يامن؟" سأل أحمد يوسف من فوق المقعد المجاور له
 في السيارة، وهو يعدّل ياقة قميصه الأبيض.
 كان يوسف يقود سيارته بعصبية وتوتر، قال: "سأرى موضوع يامن بعد أن
 أنهي قصة شبيهي هذا، أساسا سأجن"
 "لا تقلق، ستتضح الأمور"
 "بالأمس نجح الاتصال مع عمتي فاطمة، بعد أسبوعين من المحاولات
 الفاشلة"

"ممتاز، وماذا قالت؟"

"لم أفهم شيئاً منها، في البداية ضحكت وقالت إنني مجنون أو سكران، ثم عندما أوضحتُ جديتي في الكلام وبأنّ الشاب حقاً نسخة منّي، بدأت تتلعثم وقالت: "أيعقل أنه لم يمت في الحريق؟"

سألتها: "من الذي لم يمت؟ وأي حريق؟"

"ها؟ وماذا قالت؟" سأل أحمد باهتمام

"قُطع الاتصال ولم أستطع الوصول لها بعد ذلك"

"يااه.. كم أنت منحوس يا صديقي!"

"ليس وقت سخافتك يا أحمد، أساساً هي مريضة، ولا تستطيع الردّ على هاتفها إلّا بشقّ الأنفس"

وصل يوسف وأحمد إلى وجهتهما، كانت منطقة نائية بين الأراضي الزراعية في مدينة سالونيك، ترجّل يوسف من السيارة وقال لأحمد: "ابق أنت مكانك"

ردّ أحمد بقلق: "ولكن، لا يمكن أن أتركك وحدك في هذا المكان"

"لا تخف، فقط حاول التقاط صورة له من بعيد كما اتفقنا، اتفقنا؟"

وافق أحمد على مضمض قائلًا: "حسنًا، كما تريد"

مشى يوسف حوالي مئة متر قبل أن يتوقف بعد رؤيته لسيارة جدعون KIA السوداء، نظر حوله فجاء صوت غليظ من خلفه: "يوسف"

استدار يوسف وحافظ على صمته، نظر إليه جدعون بتفحص وهو يدور حوله، وقال بنبرة استفزازية: "كم أنت تشبهني يا أخي!" ضيق يوسف عينيه باستغراب فقال جدعون: "من المؤكد أنك بحثت في أمري وعرفت بأنني أخوك؟"

نظر يوسف إليه بدهشة، فأردف جدعون: "ماذا؟ ألم تسأل؟ إن سألت فأنا لا أعرف ماذا قالوا لك، ولكن ما أعرفه يا أخي أن حياتك كلها كذبة يا يوسف، ما قالوه أكاذيب، أنتم تقتاتون على الكذب" "ماذا تقول أنت؟" تتمم يوسف

كان أحمد يقف خلف الأشجار، يحاول التقاط صورة واضحة لجدعون من بعيد.

قال جدعون: "أمك التي تعرفها ليست أمك، ولا والدك هو والدك، أخواك كذلك، أنا الشيء الوحيد الحقيقي يا يوسف، أنا جدعون الشخص الحقيقي في حياتك فقط"

قال يوسف باشمئزاز: "جدعون! ما هذا الهراء الذي تتفوه به؟" "أنت مزيف، حياتك مجرد خدعة لذلك تلاشت، محمد مات وطار إلى الجحيم، مازن يشرب البول ويأكل القمامة في السجن، ومعشوقتك ورد أصبحت مجنونة معتوهة فقط لأن.."

لم يكمل جدعون كلامه، فقد جاءته لكمة قوية من يد يوسف أزاحته عدة مترات للخلف، وأسقطته أرضاً. نهض، تحسس خده وهو ينظر بحقد،

ثم عدل هيأته وأطلق ضحكة مدوية وقال صارخا: "جميعهم مزيفون.. إلا أنا الجندي الإسرائيلي الحقيقي"
شعر يوسف بأنه كوكبٌ مظلم يدور في فضاء الصدمة، تمتم: "جدعون، جندي إسرائيلي!"

ظلّ على حالته من الدوران للحظات ثم خرج عن مساره وصرخ بغضب:
"اسمع يا حقير.."

"تؤ تؤ، لا داعي لهذه العصبية يا يوسف، فأنت حقيقي مثلي، أنت من الطبقة العليا على هذه الأرض، أنت من الطبقة الحاكمة للعالم، أنت إسرائيلي"

أغمض يوسف عينيه محاولا امتصاص كلّ المشاعر المتشابكة داخله، أخذ يدور ويدور في الفراغ الساكن، تنفس نفساً عميقاً ونفخ نفخة طويلة ثم قال: "اسمع يا هذا، يبدو أنك لا تعرف من تواجه، أنا لست بركة صغيرة، أنا نهر جارف لا يتأثر بضرب حجارتك المتكرر، فاحفظ لسانك وقل لي من أنت وماذا تريد؟"

ضحك جدعون ساخرًا ثم أردف بجد: "قلت لك الحقيقة التي تُنكرها، أنا جدعون، شقيقك، تؤأمك، ألا يبدو هذا واضحاً على ملامحي؟ أنا وأنت إسرائيليان، لقد خطفتك مجموعة من الإرهابيين الفلسطينيين من منزلنا في مستوطنة غوش قطيف سنة 97"

قطب يوسف حاجبيه وقال باستهزاء: "ومن قال لك هذا الهراء؟"

"أُمِّي والتي هي أُمِّكَ، سارة"

تردّدت في عقل يوسف عبارة أُمّه التي كانت تقولها له دائما: "أنتَ تحمل في قلبي معزة اثنين يا يوسف"، ظلّت تتكرر العبارة كمقطوعة موسيقية ممتدة بلا نهاية، شعر بقشعريرة قوية تسري في أنحاء جسده، ثم أفق قائلا:

"وهل تريد مِنِّي أن أصدّق أكاذيبك أنتَ وسارة هذه؟ العقل أقدس ما في العالم، لن أسيء استخدامه وأرتكب خطيئة لا تُغتفر بمجاراتك في تحريف الحقائق"

"ألا تصدّق أنّ حياتك عبارة عن كذبة وضعك داخلها الفلسطيني المتوحش؟"

"بل أنتَ الكذبة، تماما كالدولة التي نشأت فيها، مصابون بالوهم الارتياحي ذي نزعة مرضية لاقتراف القتل وأفعال العنف الشديد والوحشية، مجانين لدرجة الإجرام، مشبعون بكافة آفات العقل والروح التي تدرسونها في كتبكم الدموية العنصرية والمزيفة، لقد صنعوا منك إنساناً مريضاً شيطاني النزعة"

"يوسف، لن أمنحك فرصة للحوار والنقاش، سأقتلك، أخ الأُمس هو قربان اليوم بالنسبة لي"

"جئتُ لقتلي إذن؟ لم تشبع من الدماء التي سفكتها وجئت لتسفك المزيد، لن أسأل كيف نشأت حقيرا إلى هذا الحدّ، فقد أجبتُ عن هذا السؤال للتو"

"أنتم طبقة لا تستحق الحياة على هذه الأرض، ولكن قبل موتك سأقول لك أمرين، الأول: كان مازن شجاعاً جداً، أحيانا أغار من هذه الشجاعة والهيبة التي تملكونها، ولكننا دسنا على شجاعته بأحدثنا فصار كالحشرة المهروسة تحت أقدامنا"

رفع يوسف يده محاولاً ضربه، أمسك جدعون يده وقال: "انتظر.. ألا تريد أن تستمع للأمر الثاني؟ ورد، آه من وردتك، قوية ومتحدية، جميلة جداً ولذيذة، تذوب في الفم كقطعة مارشميللو، إنها.."

أفلت يوسف يده ولكمه، ثم ركله بركبته في بطنه فأطاحه أرضاً وقال: "حقير، نجس، لا يمكن أن تكون أخي، أمي لا تلد أمثالك"

ابتسم جدعون بمكر وقال: "ماذا حدث للنهر الواسع؟ هل جفّ وتأثر بالحجارة الملقاة؟ شعاراتكم كلّها كاذبة"

"يا غبي، أنا أصلي وحقيقي وغير مزيف مثلك، لستُ اصطناعياً أنبع من موارد مسروقة، ولكني كنيّل مصر شراب للطيبين ولعنة على الأنجاس الخبثاء المزيفين أمثالك، ثمّ ألم يخطر في بالك أنّك منّا يا غبي؟ وأنّك أنت من تمّ اختطافك؟ أتصدّق رواية من سرق الأرض؟ أنت نفسك تعرف أن ما نشأ على القتل والسرقة لا يمكن أن يكون حقيقياً أبداً، وتعرف تماماً أنّ هذا الإجرام الذي تقومون به لا ينمّ سوى عن معتقدات منحرفة وأصل فاسد"

نهض جدعون ولكم يوسف عدة لكلماتٍ متتالية حتى أرداه أرضاً، أخرج
مسدسه وصوبه نحوه، سحب الزناد وقال: "باي باي"
قال يوسف: "قبل أن تقتلني سأسألك سؤالاً"
ردّ جدعون باستهزاء: "أمنية ما قبل الموت إذن، اسأل"
"أعرف كيف يقتلون الدب؟"

قهقه جدعون وقال: "يا لسخافتك!"
تابع يوسف: "يعلقون بكرة فوق العسل، يدفع الدب البكرة كي يتمكن من
تناول العسل، تدور البكرة وتدور وتضرب الدب.
يغضب الدب.. يدفع البكرة بقوة أكبر، فتضربه بمزيد من القوة، وهكذا
حتى يُقتل الدب.

تقتلون وتنهبون وتضربون وترتكبون الشرور في سبيل الحصول على
العسل، فتدفع بكم شروركم نحو الموت واللعنة، هكذا أنتم، عسلكم
ملطخ بالدماء والشر؛ تموتون وأنتم معذبون بأفعالكم ولا تحصلون على
قطرة عسل حقيقية.

ألا تبحث الأم عن ابنها وتسعى الأصول إلى الفروع؟
وأنتم أمكم الهاوية، وأصلكم النار"
سُمع دوي إطلاق النار في الأرجاء، طارت العصافير من فوق الأشجار،
وامتصّ التراب قطرات الدماء المتناثرة فوقه.

.....

ترجل يوسف وأحمد من السيارة بعد ابتعادهما مسافة غير قليلة، وقف يوسف ساندا ظهره لشجرة سرو ضخمة، واجماً حزينا، قال له أحمد: "هل أنت بخير؟ ألن تحدثني ماذا حصل؟"

"ألم تر؟"

"رأيت، ولكني لم أسمع، كنت بعيداً"

"قال إنه أخي، وأنا يهودي إسرائيلي تمّ اختطافي من مستوطنة غوش قطيف سابقاً"

"ماذا؟! وهل صدقت؟"

"وهل يصدّق الإنسان رواية سارق وقاتل؟"

"ثمّ؟"

"ثمّ دارت حوارات بيني وبينه، أراد قتلي، سحب مسدسه وصوبه نحوي كما رأيت"

أردف أحمد: "وبعدها أنا تقدّمتُ مسرعا مندفعاً بين الأشجار محاولاً

حمايتك فلم أر شيئاً، ولكني توقفتُ على صوت إطلاق نار، ماذا حدث؟"

"بعد ذلك صوّب المسدس على رأسه وبدأ يهذي بعبارات"

"مثل ماذا؟"

"كان يقول بوجه ضعيف شاحب: "أشاهد الدماء تتدفق منّي، الدماء تخرج

منّي أنا، أنا معتل نفسي، سيكوبائي، مريض، ستلاحقني الدماء النازفة حتى

تبتلعني، ستلاحقني لعنة الأرواح المعذبة"

ثم نظر إليّ بحقد وأعاد تصويب مسدسه نحوي وهو يقهقه: "كلّا.. أنت من يجب أن يموت"

وظلّ على حاله، يضحك ويغضب، يقهقه ويبكي، يصوّب مسدسه تارةً على رأسه وتارةً نحوي وكان آخر ما قاله: "الدماء تتدفق منّي أنا، أنا مطلوب لعدالة السماء، أريد أن أرتاح"، وأطلق النار على رأسه، وأنت تعرف بعدها أنك جئت وسحبتي بعيدا عن المكان

"أجل، أركبتك السيارة ثم بعدها نظرتُ من بعيد فرأيتُ أحد المزارعين يتجه نحوه، هل هو مجنون؟"

قال يوسف بإنهاك: "وهل يبدو كشخص سليم؟" صرخ يوسف، وضرب رأسه في جذع شجرة السرو عدّة ضربات متتالية، انهار، جلس القرفصاء وبكى، احتضنه أحمد وقال: "ما بك يا أخي؟ لم أعهدك ضعيفا هكذا"

"تعبت يا أحمد تعب، كلّ شيء تنكّر لي، وطني وزوجتي، حتى أخي تنكر لنا جميعا، تنكر لنا تماما كما تنكر العالم كافة لنا"

"هل أنت حزين على أخيك؟"

"حزين على حاله التي عاشها وعلى نهايته، وحزينٌ على حالي أيضا، وأتمنى أن لا تكون نهاية هذا الوطن كنهايته، أو حتى كنهايتي التي لم تحمل غير الوحدة، الجميع تخلى، الجميع"

وقف يوسف، مسح دموعه والدماء المنسابة من جبينه، قال بصوتٍ ضعيف:
"هيا يا أحمد، فلنعد، أريد الذهاب إلى أرض الزيتون"

حين وصلا إلى أرض الزيتون، طلب يوسف من صديقه أن يبقى لوحده،
ادّعى أحمد الذهاب، لكنّه وقف من بعيد يراقب صديقه.

مسح يوسف قطرات الدم المنسابة فوق جبينه، غسل كَفَّيه وذراعيه
والأوساخ العالقة على وجهه، تنحى جانبا ورمى نفسه على ظهره ناظرا إلى
صفاء السماء بعدما ارتدت عباءة الأُفول، وتوشّحت بحمرة المغيب الخافت.
أغْمَضَ عينيه وغفا لثوانٍ معدودة، تردّد صوت صرخات متألّمة في أذنيه:

"يوسف .. لا ، لا تفعل أرجوك .. أنا ورد

هل نسيت من تكون ورد؟

يوسف .. لا اااا"

اعتدل فزعا لاهثا .. نظر باتجاه الأرجوحة المربوطة بأغصان شجرة الزيتون،
كانت تتحرك بفعل نسيمات خفيفة، شاهد طيفا لطفلة صغيرة ترتدي
فستانا أبيض اللون، وحذاءً أحمر، تتدلى ضفائرها الطويلة إلى وسط
فخذيهما، تجلس على الأرجوحة، تضحك، تقهقه وهي تقول بصوت ذي رنينٍ
بعيد: "أقوى يا يوسف، أريد أن أطير، أقوى"

تفرد ذراعيها جانبا كجناحي حمامة طليقة، تصدح بفرح رنان: "أقوى"

استند على كفيه ووقف، هرول باتجاه الأرجوحة واحتضنها بقوة، أخذ يردد بصوتٍ متقطع، في حين بلّلت دموعه الأرض من تحته: "أنا لم أفعل .. ل..لم أفعل شي.. شيئاً يا ورد"

بقي هكذا لمدة من الزمن، ثم مسح دموعه وأخرج قلمه من جيب قميصه وورقة بيضاء مطوية من جيب بنطاله الخلفي، نظر إلى الشامة التي تفتersh معصمه الأيمن على شكل اسطوانة صغيرة باللون البني الفاتح، تردد صوتٌ ناعمٌ ناعسٌ في أذنيه: "أعشق لمس معصمك يا يوسف، أهيم بالشعور الذي ينتابني حين أتغذى على نبضه المتسارع حبا، وأولع بإحساس الدفء الذي يغمرني حين تتسارع أنفاسك إثر لمسي لك"

ابتسم بحزن وحنين ثم بدأ يكتب:

"حبيبتي ورد..

أكتب لك دوماً وأفرد ما في قلبي على الورق الأبيض، فالأبيض رمز النقاء حيث لا كذب ولا خداع، الأبيض يتحمل سيل المشاعر الجارفة، وبشاعة وجمال الكلمات في الوقت نفسه فهو يضم كل ألوان وأطياف الأحاسيس تحت ستره..

أنا لا أعلم أين أنت ولا كيف هو حالك الآن، وهذا ما يقتلني حقاً، ومع هذا أكتب لك ثم أدفن ما كتبت في التراب، فالتراب أمين وكل ما تزرعه فيه تحصده دون أن يخونك، وأنا أزرع أشواقي وحنيني لك لأحصد حبك وودّك يا ورد.

الأرض تشبه عشقك كثيرا، كلاهما أصل البقاء، هي أصل بقاء شعبها،
وعشقك أصل بقائي أنا..

الأرض وحدها القادرة على فهم مشاعرنا وأحاسيسنا، ألم نخلق منها
وسنعود إليها؟

فحتما هي أكثر من يفهمنا، وأكثر من يملك القدرة على إيصال رسائلنا
وكلماتنا؛ عبر ترابها الذي يحمل سمات إنسانية نقية، خالية من وحشية
البشر.

أنا لم أفعل شيئا يا ورد.. صدّقيني لست أنا الفاعل، فكيف لإنسان أن
يسحق وردته الوحيدة في هذه الحياة؟!

كيف له أن يقطع حبله الوريدي ويترك نفسه بلا نبض، وبلا نفس؟
في كلّ ليلة.. أطوف بحثا عن مرقدك، أدور وأدور حتى الصباح، يصيبني
الأرق والسُّهاد ولا أعود سوى بالعدم.

أظّل أردّد اسمك حتى الفجر، يسكر طائر الليل من وقعه عليه، وأنا كذلك
الطائر، ذاهب عقلي إلا من صورتك التي نُقشت باحتراس في الفراغ
الطويل من باطني.

ولأني غبت عنك أدري فقط كيف أبكي!
يا ليتني أستطيع لقاءك، عناقك ومحدثتك، يا ليتني ألقاك يا ورد فقط
لأعرف ما الذي جرى في تلك اللحظة!

لأخبرك عن السرّ الذي عرفته منذ لحظات، والذي حتمًا سيطمر الفجوة
 بيننا، لأكشف لك عن ما في قلبي من سوادٍ فتمحيه، لتقطي جراحي بيديك
 الحانيتين، ولأخذ أنا كلّ مآسيك وألقي بها بعيدا في بحر العدم.
 في قلبي براكين، وفي جوفي تقوم القيامات.. أنا أموت كلّ يوم وحدي و في
 صمت،

محبك يوسف"

مسح يوسف دمعات ترقرت في عينيه، طوى الورقة وحفر حفرة تحت
 الأرجوحة، دفن فيها رسالته، نظر باتجاه السماء وأطلق صرخة مدوية، ثم
 جلس على الأرجوحة مسندا ظهره إلى شجرة الزيتون، وما هي إلا لحظاتٍ
 قليلة حتى استسلم لتعبه وغفا.

-13-

2029/1/4

كانت ورد ممدّدة على السرير مغمضة العينين يقظة العقل، تستمع لسورة يوسف، وجسدها في حالة سكون تام، يغشى عقلها نوعٌ سامٍ من الحضور والخشوع، تعرج وترتفع خارج حدود المادة، تزور عوالم من نور، وتفتح بصيرتها على مكنونات الأسرار الإلهية.

جلست إيمان على الأريكة في غرفة الجلوس تهز قدمها بتوتر شديد، قلقًا على أختها التي لم تبرح غرفتها منذ ثلاثة أيام، على حال واحدة من السكون.

خرجت ورد من غرفتها، توجهت إلى أختها التي تنفست الصعداء حين رأتها وتمتت: "الحمد لله"، نظرت ورد نحو أختها بعينين لوزيتين حالمتين وقالت: "أريد الذهاب غدا لرؤية الطيبة"

"نذهب يا ورد، ولا يهملك حبيبتي"

"أمر آخر.. أخبري يامن بأني مستعدة لتركيب القدم الصناعية"

ابتهجت إيمان وقالت: "هذا خبر عظيم! سأخبره"

قالت ورد في تردّد: "وأمر آخر.."

"قولي ولا تترددي"

"أبلغيه أن لا يبحث عن يوسف"

"لكنّ الطيبة.."

قاطعتها ورد قائلة: "رجاء، أنا أعرف ما ينفعني، استمعي إليّ"

"حسنا، سأكلّم يامن الآن وأخبره بأمر القدم الصناعية، وأمر يوسف"

جلست سارة شاردة، تائهة ودامعة وسط منزلها، بعد وصول خبر العثور على جثة جدعون منتحراً، الطب الشرعي أثبت ذلك، والمُزارع الذي وجده فور إطلاق النار قال ذلك أيضاً.

كانت تجلس صامته تتذكر يوم جاءها زوجها وفي حضنه طفلٌ رضيعٌ لا يتجاوز عمره الشهر قائلاً: "ستصبحين أمّاً يا سارة، أحضرتُ لكِ طفلاً يعوضك عن العقم الذي حرّمنا الولد"

"من أين جئتَ به؟"

"من منزل فلسطيني على حدود المستوطنة، اقتحمناه وخرّبناه وأحرقناه"

"وهل تريدني أن أربي فلسطينياً؟"

"تهودينه، تعلّمينه تعاليم التلمود والتوراة، سيصبح صهيونياً أكثر منّا"

حملته سارة ووضعتّه داخل أحضانها، ربه ولم تحبه، ربّما لو أحبته يوماً لما انتحّر، هكذا فكرت.

"انظري ماذا أحضرتُ لكِ أيضاً" قال زوجها

وأخرج من جيبه قماشاً أبيض مربوطاً بإحكام، تناولته وفتحته فوجدت بداخله حُلِيًّا من الذهب، هتفت: "أنت رائع يا بنيامين!"

2029/1/5

قالت الدكتورة رشا وهي تبتسم من خلف مكتبها: "إذن جئت لتفصحي عن ما تبقى في جعبتك يا ورد؟"

"أجل"

"هل أقول أنكِ تشعرين بتحسن؟"

"كثيراً"

"جميل، ما الذي حصل؟"

"ستعرفين حين أكتب، لكن قبل البدء بالكتابة أريد أن أسألك عن أمر"

"ما هو؟"

"لماذا طلبت مني أن أستمع يومياً لسورة يوسف؟"

"لأنّها كانت تريح نفسك وقت القلق والتوتر، فهي تُدخِل دماغك في حالة من الراحة، تُعزّز وعيك بذاتك، وتدفع إلى تركيزك على الحاضر، وهذا جانب مهم جداً من جوانب العلاج، كما أنّي استنبطتُ من كتابتكِ أنكِ إنسانة متأملة عميقة، ولذلك سيكون استماعك لها استماع المتأمل الخاشع، ممّا سيوصل دماغك لموجاتٍ علاجية نافعة بشكلٍ أكبر من حالة الاستماع التي

تفتقر للخشوع والتأمل، وسيعزز هرمونات الدوبامين والسيروتونين التي ستساعد على شفائك"

"أنت عبقرية، فقد نفعتني كثيراً"

"بل أنت عظيمة، لولا إرادتك وروحك المنيرة المحبّة للحياة لما وصلت إلى هذه المرحلة، هل أصبحت لديك القوة للكتابة وإفراغ نفسك من ذلك الحدث المظلم؟"

"سأجاهد لفعل هذا"

"جاهدي إذن"

"أريدك بعد أن أكتب هذه المرّة أن تقرئي الورقة بوجودي ولا تنتظري ذهابي كلّ مرة، فهناك ما أريد الحديث معك حوله يا دكتورة"

"حسنا يا ورد، كما تشائين"

أمسكت ورد بالورقة والقلم، تنفست بعمق وبدأت تكتب: "الخلوة صفاءً للنفس، اتبعتُ هذه المقولة التي ترددت خلال حلمي كثيرا، فاعتزلتُ الناس والتزمتُ سورة يوسف والتأمل لمدة ثلاثة أيام، تسَلَّ النور داخلي، وشعرتُ بأنّ نهارا بشمسين يُسكب من السماء في قلبي، وبأنّ الماء الصافي ينبع من وسط القذارة والحرائق التي تأكلني؛ فيطفئ النيران المشتعلة، ويغسل الأوساخ، ويترك داخلي نظيفا باردا.

حضر وعيي، وتنبهتُ لوهم الزمن، أدركتُ روحي أنّها تعيش الآن في هذه اللحظة، مهما حصل لهذا الجسد الفاني، فهي أبدية لا ماضي لها ولا

مستقبل، لا تخضع لقوانين الزمان التي تسري على المادة فقط، لذلك سأغذيها بكل ما يدفع نحو رفعتها وسموها، وأتقبل استدعاء عقلي للماضي المؤلم على أنه منته وفانٍ مع الزمن، وأن ما يهم الآن هو حياتي التي أملكها في لحظتي الحالية.

سأقبل وأكتب لك الآن ما حدث على أنه تاريخ هالكٍ مع الهالكين: حين دخل الجنود وأنا أتأوه داخل زنزاني، وبعدها أطلقوا أصوات عواء الذئب، وأصوات النحيب والصراخ، قاموا بتشغيل موسيقى صاخبة شيطانية، اندفع الجنود مع ازدياد صخبها نحو كثيران هائجة، وكان يوسف يقف ملاصقا لي، همس داخل أذني: "لم تخافين مني؟"، لم يكن ذلك صوته المعتاد.

انهال الجنود عليّ ضرباً بأسلحتهم وأقدامهم، فابتعدت هاربة إلى الخلف والتصقت بالجدار، اقترب يوسف مني، كان ينظر بعينين شيطانيتين ينبعث منهما حقدٌ أسود، وبحركة عنيفة قام بشق ملابسي، فصرخت: "يوسف لا، لا تفعل"

سكب دلوا بعد آخر من الماء المثلج على جسدي العاري. ارتجفتُ برداً وخوفاً، تتالى الجنود في الهجوم على جسدي، بين ضاربٍ ومتحرّشٍ يبعثر كرامتي بأيدي أئمة. حاولت المقاومة لكنّ القوة لم تكن في صالحِي. صرختُ حتى بَحّ الصوت داخلي، صرخات تنبع من عمق قبرٍ مظلمٍ مدفونٍ في الروح.

بعد وقتٍ طال أكثر ممّا يجب، ابتعدوا قليلاً.
جلستُ ألملم شتاتي، أتفقد الأجزاء التي انتهكوا حرمتها، وأُعيد لها الأسماء
والنبضات التي كادت أن تتوقف.

سألوني عن نسوةٍ ورجالٍ في الجامعة التي أعمل بها، لكنّي أنكرتُ معرفتي
بأحدٍ. قلتُ لهم: "هاتوا ملابسي". بصق أحدهم على وجهي. شتمته: "حقير،
نجس". عندها هجم يوسف، صرختُ: "يوسف.. لا.. أنا ورد.. هل نسيّت من
تكون ورد؟!"

ضربني ضربات عنيفة، وشدّ شعري ثمّ تحسّس أعضاء جسمي بقذارة.
أمسكني بكامل قوته وثبّتي، ليفسح المجال لزميله بصعقي بالكهرباء في
أماكن من جسدي العاري، وهو يتلفظ بأقذر الشتائم التي من الممكن
أن تسمعيها في حياتك.

صرختُ كثيراً بفعل الضرب والصعقات والاعتداءات الجنسية، حتى ذهب
صوتي وخارت قوتي وتركوني، كان هناك ما لم أقو على وصفه، ما كان أبعد
من الألم الجسدي والنفسي، لكنّي ربّما لاحقاً سأبوح بشظاياها..

زادت بعدها حدّة الاعتداءات، أصبحت يومية، وصرّت مصدرًا للذتهم
ومتعتهم، وصار كلّ شيءٍ حولي باهتًا ضبابيًا كأنّه مصنوعٌ من نسيجٍ بلا
لون ولا ملمس، سكنتُ داخلي الجيفة المرتعبة، وعُزفت أصوات العواء
والعويل والصراخ في الفراغ المظلم من نفسي بلا نهاية، وحين كنتُ أجلس

وحدي كان كلّ ما في الزنزانة حولي يشير إلى بنظراتٍ شرسة وحشية،
وبأصابع تقطر منها الدماء.

اجتزت الآن المرحلة التي ماتت فيها الحياة داخلي، لأحاول إنشاء حياة
جديدة بعيدة عن كلّ هذا العبث.

خطتك العلاجية، ونصائحك، والاستماع المتأمل لسورة يوسف، كلّ هذه
الأمر جعلتني أفتح عين القلب والروح، لأدرك شيئاً مُهمّاً ساعدني على
التخلّص من الجثة الخائفة داخل عقلي.

لم يكن يوسف، كان شخصاً آخر لا أعلم من هو، فالسرّ يكمن في معصمه
الذي انتشل الجيفة من داخلي خلال حلمي.

تذكرتُ صورة معصمه الأيمن وهو ينهال عليّ ضرباً، حيث كان بلا شامة
أسطوانية تغفو بلونها البني الفاتح على سطحه السفلي مزينة له.

أنا فرحة جداً الآن لأنّي رميت الجيفة داخلي إلى العدم، حطمت صورة
يوسف المتوحشة التي لازمت مرآة قلبي لسنوات، وحطمتُ صورتي الغريبة
عليّ، وجدتُ نفسي التي هربت منّي إليه، وحين استعدتها استعدتُ معها
يوسفي بصورته الآمنة والمُحبّة، ولكنّي ما زلت أعاني!"

انتظرت ورد حتى قرأت الطيبية الورقة، تنهدت الطيبية ثمّ قالت: "لم يكن
يوسف إذن؟"

"أجل، لم يكن هو"

"إنّهُ طبيعى أن تعانى يا ورد، لأنّ ما تحملته لم يكن سهلاً أبداً، هذا انتهاك جسدى ونفسى صارخ، ستستمرين على العلاج لفترة ليست ببسيطة، لكن لم تخبرينى، كيف فقدتِ قدمك؟"

اختنق صوت ورد: "حين أطلقوا سراحى، أوصلوني بسيارتهم إلى الحاجز، وأخبروني بوجوب التوجه نحو الجنوب، كنتُ أمشي بلا وعي وبلا عقل حاضر، ظلّوا يطلقون الرصاص نحوي، جعلتُ أركض من بين زخات الرصاص فأصبتُ في قدمي، بقيت أنزف حتى سحبني أحد النازحين المتجهين نحو الجنوب، ربط قدمي بداية وحاول إيقاف النزيف، وما إن وصل بي لنقطة فيها حركة، أركبني توك توك واتجه بي نحو المشفى"

زفرت الطبيبة هواء ثقيلًا وقالت: "لقد جربت ما هو أشدّ من الكارثي خلال هذه الحرب يا ورد، ومع هذا ما زلتِ صامدة، أنتِ رائعة، لديك إرادة حديدية عصيّة على الكسر، سنستمر في العلاج وفق التعليمات يا ورد، فما زال طريق الشفاء طويلاً"

"أجل، لا تقلقي، من اليوم أيضاً سأحاول النوم في الظلام"

سألت الدكتورة رشا: "هل ذهب خوفك من الظلام؟"

"ليس تماماً.. لقد نفعتني التأمل كما قلت لك، ولكن الأمر يحتاج للمزيد من مجاهدة النفس، سأفعل ذلك، سأبحث عن نور الله داخلي ليمحق خوفي"

ابتسمت الطبيبة بدفء وقالت: "ونعم المجاهدة أنتِ"

قالت ورد بصوت متردد: "أريد أن أطلب منك طلبا يا دكتورة"

"تفضلي"

"يوسف.. سمعتُ أنَّكِ طلبت من أختي إيجادَه، أنا لا أريد مقابَلته"

"ولمَ لا؟ ألم تكتشفي براءته؟"

"أجل، لكنَّ قصتي معه انتهت، هو يستحق أن يعيش حياة هانئة بدوني"

قالت الطيبية بإصرار: "ورد، إنَّ رؤيتك ليوسف ستسرع في شفائك، إنَّ الخطوة القادمة هي غمرك بكلِّ المؤثرات التي كانت متواجدة حولك في تلك الفترة، عليكِ مواجهة جميع مخاوفكِ يا ورد، كما أنَّني لا أظنَّه يعيش حياة هانئة الآن وهو متهم بأشياء قذرة، يجب إيضاح الأمور له، أليس كذلك؟"

ردت ورد بصوت يحمل نبرة الرجاء: "لا أريد مقابَلته الآن، صدقيني، لن يفيدني، لن أتقبل حتى نظره إلى عيني، افهميني، لا أتقبل هذا حاليا، ولا أريد ربطه بإنسانة انتُهكت وأنْهكت من جميع الجوانب"

"أفهمكِ، لن أضغط عليكِ، سوف أتواصل معه أنا وأخبره بقصتكِ، ما رأيكِ؟"

"هذا شأنكِ، لكن لا تدخليني أنا ويا من وإيمان في الأمر، فقد قُطعت الروابط التي بيننا منذ تلك الواقعة، كما أنَّني سأغادر قريبا إلى ألمانيا لتركيب طرفٍ صناعي"

"بالسلامة يا رب، هذا خبر مفرح.. لكن ستقومين بتنفيذ جميع التعليمات التي سأقولها لك"
 "بكل تأكيد"
 "وحين تكونين مستعدة ستقابلين يوسف، هذا أمر ضروري للشفاء"
 تمتت ورد: "سأرى"

.....

جلس يوسف داخل سريره وهو يعاني من إعياءٍ شديد، دخل عليه أحمد الغرفة حاملاً كوباً من الأعشاب الطبية: "اشرب، ستتحسن"
 "شكراً يا أحمد، ألا يوجد أخبار من يامن؟"
 لوى أحمد شفثيه في حركة تدل على الاستغراب وقال: "كلاً، حين راسلته وأخبرته بأيّ مستعد أن أصلك به، لم يُجب!"
 قال يوسف بنبرة ساخرة: "لا بدّ أنّه اشتاق للضرب فتذكرني ثمّ تراجع"
 ضحك أحمد، وأردف يوسف: "على كلّ حال، هل نجحت في التقاط صورة واضحة لجدعون؟"
 "للأسف.. لا"
 تنهد يوسف وقال: "كما توقعت، أشعر بأيّ أحترق من كلّ الجهات يا أحمد، أتمزق وحيداً تعيساً، صرت كتمثالٍ بلا حياة.. بالأمس حادثني عمي فاطمة"
 "وأخيراً! ماذا قالت؟"

"قالت بأنَّ أُمِّي ولدتنا في منزل أهلها حسب عاداتهم، فالعادة عند أهل أُمِّي توجب على المرأة حين الولادة البيات عند أهلها أربعين يومًا"
"دعك من العادات وأكمل"

"أطلقوا علينا اسمي: (يوسف ويونس)، كان منزل جدِّي، والد أُمِّي، يقع في منطقة المواصي على حدود مستوطنة غوش قطيف، أنت تعلم أنَّ المستوطنات كانت تنتشر في جنوب قطاع غزة قبل ما يُسمي بالانسحاب أحادي الجانب الذي حدث في 2005"
"أجل"

"أكمل يوسف: "كان المستوطنون أيضًا يرتكبون الجرائم ضدَّ الفلسطينيين في القطاع، خطف للأطفال، تخريب وتدمير وقتل، حرق المنازل وغيرها"
"صحيح، أعرف"

"اقتحموا منزل جدِّي، هربت أُمِّي وهي تحبُّني بين ذراعيها، ظانَّة أنَّ أخي يونس في حضن والدي، لم تعلم بأنَّه تركه على الأريكة كي يمنع أحد المستوطنين من الاعتداء على جدِّي، وهو ظنَّ أنَّ أُمِّي أخذت أخي معها. أشعل المستوطنون النار في المنزل، تأخر الدفاع المدني كثيرًا بسبب خصوصية الوضع هناك، فلم يعثروا على أثرٍ لشيء"
"ولماذا لم تعرف أنت هذه القصة؟"

"قالت عمتي بأنَّ أُمِّي وأبي ظنَّا أنَّ طفلهما مات حرقًا؛ لم يُحبَّ الحديث عن هذا الموضوع، فقد تسبَّب في حدوث فجوة كبيرة بينهما كانت ستؤدي إلى

الانفصال، وقد استشهدا وهما لا يزالان يحاولان إصلاح هذه الفجوة، والتسامح مع ما حصل وعدم تقاذف اللوم والاتهامات فيما بينهما، قالت أيضاً: "ربّما لو كبرت أكثر برفقتهما يا يوسف، ربّما أخبراك، ولكنّهما استشهدا وأنّت ما زلت طفلاً، والفجوة بينهما لم تتقلّص بعد"

"وجدك؟"

"هناك قانون يتبعه أفراد العائلة جميعاً وخصوصاً جدّي رحمه الله، وهو عدم الحديث عن ماضٍ سيئ، الجميع اعتقد أنّه مات فلم يتحدثوا عنه، لكنّ أمّي كانت دائماً ما تقول لي: "أنت تحمل معزة اثنين في قلبي يا يوسف"، الآن فقط فهمتُ مرادها من هذه العبارة، وآخ، كم بات وقعها مؤلماً على ذاكرتي!"

"سبحان الله، دنيا عجيبة، ألم يضعه الله إلا في طريقك أنت وورد؟"
 "كلّ شيء يحدث لسبب، لعلّه اختبار عظيم لي ولها. اسمع يا أحمد، أرسل رسالة إلى يامن، قل له بأنّي أود محادثته فهناك أمر مهم يجب معرفته"
 "ستخبره عن جدعون؟"

"أجل"

"لن يصدّق، لا دليل لديك"
 "سأفعل اللازم، والباقي على الله"

"سأرسل إليه، لكن المهم أنت، شِدِّي حيلك، لا يليق بيوسف القوي هذا الإعياء"

"لا تخف يا صديقي، مرحلة أُلْمِم فيها شتات نفسي وأنهض، بإذن الله"

.....

في حديقة الإسكندر الأكبر التي تمتد على طول الواجهة البحرية، بالقرب من البرج الأبيض في مدينة سالونيك شمال اليونان، تنوعت أعمال الناس بين الاستمتاع بالطبيعة، والمشي، والترفيه المسائي، وزيارة التمثال البرونزي للإسكندر الأكبر ممتطياً جواده.

جلس يامن برفقة أدهم وعلي، سأل علي يامن وهو يشرب كوباً من الشوكولاتة الساخنة: "لمَ غيرت رأيك ولم تعد تريد مقابلة يوسف؟"

"لستُ أنا، الظروف تغيرت"

قال أدهم ناصحاً: "أنصحك بتسوية الأمور فيما بينكما"

"أمور ماذا يا هذا؟ هو لا يستحق، كنتُ أنوي مقابلته فقط من أجل أختي" نظر أدهم إلى ساعته وقال: "تأخرت ملك في الرد"، فقال علي بمكر: "ملك لا تتأخر على يامن"

أطلق يامن زفرة تشبه صوت الهواء الخارج من أنفٍ ثورٍ غاضب وقال: "لا تلمح رجاءً، لا بال لي لكل هذا، لم أخلق للحب والزواج"

ضحك علي وقال: "لماذا خلقت إذن؟"

ردّ يامن ببعض السخرية: "للعذاب!"

قال أدهم مجديّة: "لا يُخلَق العباد للعذاب يا يامن"، ثمّ أمال رأسه باتجاه أذن يامن هامساً كي لا يسمعه علي: "تواصل مع أحمد الذي قلت لي عنه، صدّقني، من الأفضل أن تتصافى مع يوسف"

اتصلت ملك بيامن قاطعة الحديث، أجاب يامن بحماسة: "ألو..ملك، كيف حالك؟"

قالت ملك: "اعذرنى تأخرتُ عليك يا يامن، ولكّني كنتُ أنتظر ردّ أبي، سيكون سفر ورد في 1/30، لن ترافقها إيمان إلى ألمانيا، ولكن أنت من سيفعل"

"حقاً؟!"

"أجل"

"هل أستطيع إدخالها اليونان لتمكث معي قليلاً؟"

"ممكّن.. قدّم طلباً باسمها لتأشيرة دخول قصيرة لمدة تسعين يوماً"

"شكراً جزيلاً لك يا ملك، لن أنسى لك هذا المعروف ما حييت"

"قلتُ لك لا شكر بيننا، ورد أختي، ولا يمكن أن أخذلك"

.....

بعد أسبوعين..

جلس يوسف على الكنبية البنية مساءً أمام جهازه المحمول، يمارس عمله المطلوب منه كعادته، ورائحة البامية تفوح من الطبق الموضوع بجواره على الطاولة، وعلى الشاشة المقابلة له عُرض فيلم **the maze runner**.

ضغط أحمد على جرس المنزل ضغطًا متتاليًا ومزعجًا، فتح يوسف الباب قائلاً ببعض العصبية: "ما بك يا أحمد؟ هل جننت؟ ما كل هذه الجلبة؟" قال أحمد لاهثًا: "ألم أقل لك بأنّ يامن حظري ولا يستلم منّي رسائل أو مكالمات؟"

"وبعد؟"

أجاب أحمد: "تلقيتُ اليوم اتصالًا من طبيبةٍ نفسيةٍ تتعالج عندها ورد، قالت بأنّ يامن هو من أعطاه حسابي، وبعد حوارٍ دار بيني وبينها، اتفقنا على أن تعاود الاتصال في تمام الخامسة والنصف كي تكلمك، أي بعد حوالي ربع ساعة من الآن، إن شاء الله يكون خيرًا يا صديقي"

"ولم كلّ هذا التوتر، هل أخبرتك بشيء آخر؟"

ردّ أحمد وهو يلهث: "كلّا.. ولكنّي أعلم حساسية الموضوع بالنسبة لك"

قال أحمد وهو يدخل المنزل إلى غرفة المعيشة: "أنت تعيد هذا الفيلم للمرة المليون!"

"أحبه يا أخي، ما دخلك أنت؟"

"لا أعلم كيف تعيدون مشاهدة الأفلام دون ملل، كما أنه أصبح قديماً!"

قال يوسف مغيراً الموضوع: "أتأكل البامية؟"

ابتسم أحمد: "آكل، فأنا جائع وأحبها"

بعد حوالي ربع ساعة، رنّ الهاتف، التقطه يوسف مجيباً، جاء صوت الطيبة

رشا: "مساء الخير يا يوسف، معك دكتورة رشا، الطيبة النفسية المعالجة

لورد، ما سأقوله الآن مهم جداً، لذلك قبل أن أكمل، هل ما زالت ورد

تهمك؟"

-14-

2029/3/15

كانت ورد ترتدي فستاناً أبيض من الجورجيت المبطن، يزيّن خصرها حزامٌ عريضٌ من الجلد بلون التوت الذي يفترش وجنتيها، وعلى رأسها غطاء من الساتان اللامع باللون نفسه.

وقفت برفقة يامن أمام خليج سالونيك، يداعبها نسيم يحمل على كفيّيه أريجاً ربيعياً فريداً من نوعه، فردت يديها كجناحي صقرٍ محلّق، لمعت عيناها بفرح، مشّت خطواتٍ نحو اليمين ثم اليسار وهي تبتسم، قالت: "انظر، أنا أمشي وأمرح بدون الحاجة إلى عكاز!"

ضحك يامن مبتهجا وقال: "أجل، ما رأيك في أن نتسابق؟"

"أوه.. ليس إلى هذا الحد!"

"ولمّ لا؟ هل تذكرين حين كنتِ تسبقيني دوماً، كنتِ رشيقة جداً!"

"وهل تذكر أنت حين كنت تتسلّق الشجر، فيصرخ بكّ أبي غاضباً خائفاً من أن تجرح نفسك؟"

ضحك يامن وقال: "أجل.. كنتُ قرداً!"

قهقهت ورد، ثم قالت بصوت يملؤه الحنين: "رحمهما الله"

قال يامن بصوتٍ حانٍ: "إنّها أسعد أيامي يا ورد منذ ست سنوات، أن أرى جمالكَ يعود لوجهك، ضحكك ترنّ في الفراغ من حولي، حقًا هذا اليوم من أسعد أيامي"

وضعت ورد كفّها على خدّ يامن قائلة: "وأنا كذلك، أخيرا أشاهد ركود الأعاصير التي كانت تعصف داخلك فتبرز في وجهك، وهدوء البحر الرمادي الهائج في عينيك"

قطعت تحيةً ملكٍ حديثهما..

ردّ يامن التحية: "أهلا يا ملك"

قالت ورد: "ملك.. كيف حالك؟"

"بخير.. أنتِ كيف تشعرين؟ سألني والدي عنك"

"في أفضل حال، ملك.. جزيل الشكر لكِ ولوالدك، إنه طبيب موهوب لا مثيل له"

"أنا سعيدة لأجلكِ يا ورد، لا داعي لشكري"

سأل يامن: "ما طبيعة النزهة التي وعدتنا بها يا ملك؟"

قالت ملك وهي تفتح باب سيارتها الحمراء التي وافق لونها لون فستانها الشايل: "ستعرفان الآن، تفضلا"

بينما ملك تقود السيارة نحو وجهتها، شعرت بالتوتر وهي تفكر فيما ستؤول إليه الأمور بعد قليل؛ فأمسكت بشعرها المنسدل على أكتافها، ورفعته بربطة شعر كانت قد وضعتها في السيارة.

تذكرت كيف استغلّت فترة غياب يامن وورد في ألمانيا لتركيب الطرف الصناعي، تواصلت في ذلك الوقت مع أدهم وألحّت عليه لتعرف اسم الشخص الذي اتصل به يامن للوصول إلى يوسف، قال يومها أدهم: "لكيّ لا أكشف سرّاً ليامن، تعرفين مدى ثقة يامن بي، لا أريد كسر هذه الثقة" "صدّقني، هذا لمصلحته ومصلحة أخته، لن يهدأ غضب يامن، ولن يتمّ نقاء نفسه إلا حين يتصافى مع يوسف"

"ولكنّ أخته تعافت تقريباً، ماذا لو ساءت حالها بعد اللقاء بيوسف؟" "لم تتعاف، ولن تتعافى إلا بيوسف، هذا اختصاصي يا أدهم ثق بي، كما أنّي سألتقي بيوسف أولاً وأحاول فك شيفرة الحادث كلّ، لن أتصرف بعاطفة دون علمٍ ومنطق، ربّما أبحث عن طبيبتها وأتواصل معها أيضاً إن اضطرني الأمر"

"لم تفعلين كلّ هذا؟"

"ألا يستحق صديقك أن يعيش ما تبقى من حياته هو وأسرته في راحة بال بعد كلّ الذي عاناه؟ لقد انتشلناه من إدمانٍ محتمل منذ فترة قصيرة، ألا يستحق منّا الاهتمام بجراحه ومحاولة تقطيعها؟"

"لست واثقاً يا ملك، أنا خائفٌ من أن تؤوّل الأمور إلى الأسوأ"

"أرجوك، إن كنت تحبّ يامن، فهذا لمصلحته، ثق بي، لا يكون التعافي إلا بالمواجهة، أمّا الهروب فهو للجبناء الذين لن ينهضوا في هذه الحياة"

بعد يومين من حوارها مع أدهم الذي انتهى بإقناعه، استطاعت ملك التواصل مع أحمد، ولقاء يوسف ومحدثته، قال لها: "كنتُ أبحث عن طرف خيطٍ يوصلني إلى ورد، حاورتني الطيبة منذ حوالي الشهر لأجل إتمام شفاء ورد، وقالت يجب أن أحاول الاقتراب منها من جديد، فبعثك الله لي، لا بدَّ أنه خير"

"ماذا قالت لك أيضًا؟"

"قالت إنّ ورد تذكرت كلّ شيء، كما أنّها تذكرت أيضًا أمرًا آخر أثبت براءتي، لكنّها لا ترغب بمقابلتي، ولن تتعافى تمام العافية إلا بالتصالح مع الجزء الكبير من ماضيها المؤلم، وهو أنا"

"ولم لا ترغب بمقابلتك؟"

"قالت ورد إنّها ترى أنني أستحق حياة أفضل بعيدا عنها، ولكنّ الطيبة رجّحت بأنّ عقلها ما زال يمارس آليات دفاعية ليبقيها في منطقة راحة بعيدًا عن مواجهتي، ويبعدها عن شعور الخوف من ممارسة الحياة كأنثى طبيعية برفقتي، أنثى من الممكن أن تحبّ وتتزوج وتنجب، إنّها ما زالت تعاني يا ملك، ما حدث معها أمرٌ فظيع"

"وهل ما زلت أنت راغبًا بها صائبًا إليها؟"

"هي ذاتي التي لا أستطيع العيش بدونها، ما بيني أنا وورد أكبر من مجرد عشقٍ عابر، إنه كاندماج الماء بالماء"

"جميل.. سأساعدك إذن، لأجل ورد ويا من"

"كيف؟"

"ورد حاليًا برفقة يامن في ألمانيا لتركيب طرف صناعي، ستمكث هنا قريباً من أسبوعين عندما ترجع من ألمانيا، قبل أن تعود إلى إلى جمهورية مصر العربية، سأجعلك تراها، هنا في أرضك، أرض الزيتون"
لمعت عينا يوسف يومها بفرح شديد وقال: "حقاً؟!"
ابتسمت ملك وقالت: "أجل"

جلست إيمان على سريرها تطالع الصور القديمة على هاتفها المحمول، تنفخ صور أبنائها الشهداء، حسام وجنين، وزوجها، وأمها وأبيها. تشاهد فيديوهات الرحلات العائلية وأعياد الميلاد، موسم قطف الزيتون، شهر رمضان والعديد، وتتابع نمو أولادها عامًا بعد عام عبر الهاتف المحمول وصولاً إلى عام النهاية، عام 2023.
تبكي حينًا وتبتسم حينًا، يتمزق قلبها ألمًا ثم يقطب جراحه بقول: "الحمد لله"

تخرج الدعوات من فمها لتعانق السماء، تدعو للخالة سلوى والعم زياد بالرحمة الواسعة والجنان، ولأمّ خالد بالشفاء، وتذكر آية التي فقدت الاتصال بها منذ حوالي أربعة أعوام، وتذكر حالاتها المتقلبة، ثم تدعو لها بالفرج القريب والسلامة.
نادت عليها جوري: "ماما، ماما"

ذهبت لابنتها ملبية النداء، فقالت يافا: "أرجوك ماما، احضري معنا فيلما" ابتسمت إيمان ودموعها طازجة لم تجف بعد وقالت: "حاضر حبيبتي، سأعد الفشار وآتي"

وحين همّت إيمان بالذهاب صرخت جوري بسبب صوت طائرة مرّت من فوقهم، وقالت وهي تضع يديها على أذنيها: "قصفونا، قصفونا" احتضنتها إيمان بشدة قائلة: "حبيبتي لا تخافي، كم مرّة قلت لك إنّها طائرة مدنية تحمل المسافرين، متى سنتخلص من هذا الخوف؟ لا تخافي" بينما كانت حبّات الفشار تتطاير داخل وعاء الطهو وتقرع غطاءه محاولة الهروب فلا تنجح، بقيت الصور داخل ذاكرة إيمان تقرع رأسها ولا تنجح بالهروب أيضاً، فقد اختارت لها غطاءً قوياً محكماً يحفظ كلّ غالٍ ونفيس.

.....

وقفت آية وسط خيمتها التي فرشتها بالحصير، وبطنتها بالقماش كي تقيها لهيب الصيف القادم. كانت تحاول العثور على مكانٍ مناسبٍ لتضع فيه دولاباً خشبياً صغيراً للملابس، استطاعت شراءه بعد طول انتظار. ظلّت حائرة تتفحص بعينيها أرجاء الخيمة المكتظة، تحاول إخراج فسحة مناسبة من وسط هذا الزحام الفوضوي، وبينما هي كذلك سمعت صوتاً يناديها، فخرجت مجيبة.

ألقت التحية على المرأة الواقفة أمامها وحملت في وجهها الذي بدا مألوفاً لها،
تفحصت عينيها الضيقتين ووجهها بعظامه العريضة البارزة، كان وجهها
شاحباً كوجه مومياء، تمتمت وقد صفعتها الصدمة: "أم خليل!"

.....

جلس يوسف تحت شجرة في حقل الزيتون، يداعب تراب الأرض بأصابعه،
تملأ الحماسة قلبه ليبدو كطفلٍ رضيعٍ ينتظر قدوم أمه، يفكر في كلام
الطبيبة رشا: "تعرضت ورد لاعتداءات جنسية وجسدية مؤلمة وخطيرة، لن
تتقبلك بداية، الموضوع ليس بالسهل عليها، ضع في عقلك أنك لن
تستطيع لمسها لمدة طويلة.

السؤال الذي أريد إجابة صادقة له، بعد أن عرفت كل هذا هل ما زلت
تريدها زوجة لك؟"

ردّ يوسف بلا تردد: "طبعاً"

"إذن وجب عليك العمل معي لشفائها، هل ستساعدني؟"

"بالتأكيد، لن أتوانى عن فعل ذلك"

"يامن وإيمان لا يعرفان عن براءتك، بناءً على رغبة ورد، حاول العثور
عليها والتواصل معها من بعيد، بعيداً عن يامن أو إيمان، لا أريد أن تفقد
ورد ثقتها بي بعد كل هذه السنوات من العلاج"

"ولكنّي لا أعرف طريقاً لورد غير إخوتها، وأساساً لا وجود لاتصال بيني
وبين يامن وإيمان"

"حاول يا يوسف، حاول"

سأل نفسه، هل سيكون على قدر مسؤولية الرجل التي أعلن عنها؟
قطع أفكاره صوت سيارة تقف داخل الأرض، تنبّه ووقف ناظرا من بعيد
متأهباً، نزلت ورد برفقة يامن وملك من السيارة.

وقف يوسف يتأمل ورد من خلف الشجرة، ينظر إليها بشوق وحنين.
شعر حين شاهدها بأنه صوفي يرقص رقصته الأخيرة قبل العروج إلى مقام
روحاني أسمى، ابتسم وحَفَشَتْ سماء عينيه بالدموع وهو ينظر إليها.
سأل يامن بتعجب: "ما هذا يا ملك؟ أين نحن؟"

فتحت ملك حوارا معه حول أشجار الزيتون لإلهائه، فقالت: "ما رأيك؟
منذ متى لم تر الزيتون؟"

وقفت ورد تتأمل أشجار الزيتون وزهور الجوري، انتبهت إلى الأرجوحة
المربوطة في الشجرة المقابلة لها، كانت تتمايل مع النسيمات الربيعية
الخفيفة، تقدّمت باتجاهها بخطواتٍ هادئة بطيئة، وقفت جوارها ولمست
زهور الجوري التي كانت تُزيّن حبل الأرجوحة. كانت الزهور تمزج بين
اللونين الأحمر والأبيض، تذكرت أرجوحتها في منزلها، في مدينتها، حين
زيّنها لها يوسف بالزهور ذاتها، ومزيج الألوان نفسه؛ احتفاءً بعيد ميلادها
الثاني والعشرين.

أغمضت عينيها، استنشقت النسيم، كان الهواء الداخل إلى أنفها يحمل رائحة عابقة بذكرى الوطن والحب، مزيجٌ فريدٌ لا يعرفه غيرها، يجمع بين رائحة الزيتون والجوري و.. عطر يوسف.

تسارع نبض قلبها حيناً ورهبة، وتدفقت الدماء بغزارة إلى وجهها الذي راح يتورد، فتحت عينيها باحثة عنه، شاهدته، إنه هو! يتقدم نحوها بخطواتٍ مترددة ونظراتٍ متفحصة، وقف مواجهاً لها قائلاً بصوتٍ عذب خافت: "ورد!"

اخضلت عيناها بالدموع، تراجعت عدة خطوات، اكتست تعابير وجهها بالدهشة والفرح والحزن والخوف، اختلطت المشاعر داخلها كاختلاط ألوانٍ مائية مسكوبة، أرادت الالتفات والعودة، والدموع تنهمر من عينيها بغزارة، لكنّها توقفت على صوت صراخ يامن: "يا كلب، سأقتلك"

.....

دارت الأرض بخيامها، والسماء بغيومها وشمسها الساطعة حول آية، شعرت بحرارة شديدة تسري في جسدها، قالت بدهشة وذهول: "أم خليل! شاهدتهم حين أعدموك!"

"أجل.. أطلقوا النار عليّ ولكنّي لم أمت، تمّ اعتقالني لاحقاً"
"الحمد لله على سلامتك، ولكنّا لم نسمع عنك أي خبر بعد ذلك"
قالت أم خليل بصوت هادئ: "لم يتبق أحد يعرفني من أهل الأرض، صرْتُ مجهولة وسط وطني"

تمتت آية من وسط صدمتها: "و.. وكيف عثرت علي؟"
 "سألتُ عنكِ، أحبابكِ كثر، دَلّوني عليكِ، ولم يعرف أحد عن إيمان وورد
 شيئاً، يبدو أنهما أصبحتا مجهولتين مثلي! أين هما؟ أين يافا؟"
 ردت آية بذات الدهول: "يافا! سافرت برفقة إيمان"
 وضعت أم خليل يدها على قلبها إثر وخزة مؤلمة ألمت به وقالت: "سافرت!
 أين هي؟ أريد التواصل معها! كيف يمكنني التواصل؟"
 ظلت آية واقفة تنظر إليها بحيرة وذهول ولم تُجِب.
 أردفت أم خليل بصوتٍ باكٍ وهي تمسك بكتفي آية: "أرجوك، ألا تعرفين
 وسيلة للتواصل؟"
 قالت آية وقد احتقن صوتها: "سُرق هاتفي القديم منذ حوالي أربعة أعوام،
 وضاعت جميع الأرقام التي بحوزتي واستصدرتُ رقمًا جديدًا، ومنذ ذلك
 الوقت انقطع اتصالي مع إيمان"
 "كيف يعني؟ ألا توجد أي وسيلة اتصال أخرى بها؟ مواقع التواصل مثلاً؟
 أي شيء؟"
 هزت آية رأسها بأسى وقالت: "للأسف، حاولت كثيراً ولم أستطع"
 "وورد؟ صديقتك؟"
 "ورد خرجت من السجن بحالةٍ صعبة جداً، وقد فقدت الذكريات والقدرة
 على التواصل البشري، ورد انفصلت عن الحياة ولا أعرف عنها شيئاً"

شعرت أم خليل مرّة أخرى بوخزة في قلبها ولكن أشد ألمًا، قالت وهي تنسج: "هل كُتِبَ على ابنتي اليتيم وأنا على قيد الحياة؟ أي إنسانٍ في العالم يرضى بهذا؟ كيف أكون مجرد ظلٍّ في حياتها وطيفٍ يستحيل لمسه في حين أني موجودة أتنفس؟ كيف؟ كنتُ أتوق للحرية لأجلها، لأجلها فقط!" ثم انهارت أرضًا وسط وحل الأسى الذي أحاط بها.

.....

تسمّرت ورد في مكانها، تتأمل وجه يوسف بعينين طافحتين بالشوق والوجع والخوف، وقفت ملك أمام يامن مانعة إياه من التقدّم قائلة: "توقف، ليس هو، لم يفعل شيئًا، صدّقي"

"كيف لم يفعل؟ ماذا تقولين أنت؟ سأحاسبك لا حقا يا ملك، ابتعدي عن طريقي الآن"

التفتت ملك إلى ورد قائلة: "قولي شيئًا يا ورد، أرجوك"

تنبّهت ورد من ذهولها، وقالت: "يامن، ليس يوسف، يوسف لم يفعل شيئًا، سأشرح لك لاحقًا، دعنا نذهب الآن"

تسمّر يامن مندهشًا

"ورد.. انتظري" قال يوسف وهو يتقدّم خطوات للأمام

قالت ورد بصوت عالٍ في حين رفعت كفّها في وجهه: "لا تقترب"

أدارت وجهها وهي تنوي الرحيل، لم يبرح يوسف مكانه وقال بصوتٍ حانٍ: "هل نبدأ من جديد؟"

نظرت باتجاهه والدموع ترسم خرائط من المشاعر المتشابكة على وجهها
 قائلة: "هل تريد أنتَ البدء من جديد؟"
 سحبت ملك يامن من ذراعه: "رجاءً، تعال، لن تُشفى أختك إلا به،
 صدّقي"
 "ملك أنتِ.."
 "ألا تثق بي؟ طبيبتها قالت هذا أيضاً"
 نظر يامن إليها بدهشة، فأردفت: "تعال، سنجلس في السيارة وأخبرك بكلّ
 ما أعرف، ها.. ما رأيك؟"
 ذهب يامن برفقة ملك متجها نحو السيارة، لا يفكر سوى بمشاعر الحقد
 التي سكنته وأنهكته لسنين طويلة.
 قال يوسف بإصرار: "إنّ باطني ثمل بك يا ورد، أجل.. أريد البدء من جديد"
 "ولكنّي لستُ ورد التي تعرف"
 "كلّ تفاصيلك تأسرني، الحاليّة والماضية، لا اختلاف عندي"
 "أنا الآن بلا قدم، جسدي لم يعد مثاليّاً كما كان"
 "وما زلتُ هائماً بك، إنّهُ الاتصال مع النفس الداخلية الذي يُخفي أي عيوب
 جسدية"
 "لكنّ نفسي مريضة يا يوسف"
 "كلّا، أنتِ ناجية من وحشية المرضى، إنّك تتخطين ما لا يمكن تحمله، أنتِ
 رائعة!"

قالت ورد وهي تهز رأسها بقوة، والدموع تتناثر منها مبتعدة عن وجهها:
 "كلّا.. لن أرضى أن تكون مع أنثى منتهكة جسدياً ونفسياً"
 "لم تُنتهكي يا ورد، عقلك قال لك ذلك، هو غبي لا يعلم أنّك سلامي
 الداخلي، قوتي الباطنية، حجر الأساس في بنية وجودي، أنتِ الأنثى النادرة
 التي تهمس للشعراء والعازفين والرسامين في حين أنّهم عاجزون عن
 وصفك، أينما حللت غاب عقلي عن الوجود، وغضّ الله بصري عن أي
 شيءٍ سواكِ"

"يوسف أرجوك كفى، الخوف يملكني، لا أستطيع الاقتراب منك، ولن
 أسمح لك بالاقتراب مني، لا يمكن أن نعيش كزوجين طبيعيين أبداً"
 "أنتِ العشق الصوفي والنشوة العاطفية، أنتِ حميمية الفهم والفكر، مذهلة
 كالسحر، عقلك الجميل الذي طالما كان يسافر بي إلى ما وراء حدود الوعي
 البشري، ويتوسع إلى ما وراء السماء، أقدره، لا أريد شيئاً الآن سواه،
 تعرفين أنّك لم تكوني جاذبة لعيني فقط، ولكن لعقلي وقلبي أيضاً،
 تطيرين بي إلى مستوى آخر من الإثارة، أستطيع رؤيتك ومعانقتك بلا لقاءٍ
 بيننا، روحك الجاذبة والمشرقة تخلق هالة من النور تحيط بي في كلّ مرة أراك
 فيها.

أنتِ الوحيدة التي تفهمني وتتغلغل في أعماقي، أنتِ الوحيدة التي لو قلتُ لها
 إنّ الغيمة العابرة فوقَي اليوم ابتسمت لي لن تتهمني بالجنون، ويمكنني،
 وبكلّ بساطة، أن أحادثك كيف ألقىُ التحية على فراشةٍ طارت بجواري،

وكيف تفتحت زهرة الجوري حين قلتُ لها صباح الخير دون الخوف من إطلاق الأحكام علي.

أنتِ الوحيدة يا ورد التي أستطيع أن أحادثها عن أمورٍ أخشى من محادثة نفسي بها، أيتها البسيطة بعمق!

نستطيع معًا يا ورد كشف أسرار لا يمكن لأي أحد أن يفهمها، دعينا نبدأ من جديد يا ورد، نقطف الورود من الرياض دون كفٍّ، وبقوة الحبّ " ظلت ورد صامتة، فأردف: "هيا.. تعالي اجلسي على الأرجوحة لأمرجحك كأول مرة وقعت فيها في حبّك، هيا يا ورد.. لنبدأ من جديد"

.....

جلست الطفلتان، جوري ويافا، أمام التلفاز تنتظران تجهيز الفشار، كانت يافا تقلّب القنوات بانتظار حضور إيمان، كي تضع لهما فيلما كرتونيا لتشاهداه برفقتها، توقفت عند محطة إخبارية تعرض لقاءً مع امرأة تتحدث عن تجربتها في الأسر لدى الاحتلال، لفتت المرأة نظر يافا وقلبها، وأثارت شيئاً في ذاكرتها، هرولت مسرعة نحو غرفتها وهي تقول لجوري: "انتظري، لا تغيري القناة يا جوري"

أخرجت يافا من خزانها حقيبة وردية اللون مزينة بحبّات اللؤلؤ، كانت قد اشترتها لها إيمان في أحد الأعياد، فتشت داخلها كثيراً حتى أخرجت منها صورة شخصية صغيرة، وعادت مسرعة نحو التلفاز.

قالت بغضب حين وصلت: "ألم أقل لك لا تغيري المحطة يا جوري؟"

ردّت جوري بتعجب: "ولكّي لم أغيرها!"
"أين المرأة التي كانت تتحدث قبل قليل إذن؟"
"راحت، خلصت، شو مالها؟"
مدّت الصورة باتجاه جوري وقالت: "انظري إنّها تشبه أمّي الحقيقية كثيرًا،
أليس كذلك؟"
لوت جوري شفّتها وقالت: "أمم لا أعلم، إنّ أمك ماتت، لا بدّ أنّك
تنوهمين"
جلست يافا، وقد دست الصورة في جيبها، وعادت للتفكير في الفشار
والفيلم الذي ستشاهده برفقة جوري وإيمان!

.....

كان يامن يضرب رأسه في مقود السيارة صارخًا: "لماذا؟ لماذا عشتُ كلّ هذا
الحقد والألم؟ لماذا؟ أهلكُ نفسي وأنا ظالمٌ ليوسف ولنفسي، حاقِد
وساخط على قدري، بُني الرجل داخلي من العذاب فقط، من العذاب!"
صرخت به ملك: "توقف.. كّف عن كلّ هذا، ما زلت تدور في حلقة الماضي،
ولا تعرف غير الحوار السلبي وجلد الذات، انس كلّ شيء وأبدأ من هذه
اللحظة، الحياة طويلة أمامك"

نظر نحوها بوجه أرجواني اللون، فقالت: "يامن.. الماء أقوى من النار، النور
يمحق الظلام، السلام أعتى من الحروب، المحبة تنسف الكراهية، التسليم

يدمر الخوف، الرضا يقتل الصراعات، الغفران يطفى الانتقام، والقبول ينهي المعاناة.

عش بهذه المفاهيم يا يامن، أرجوك.. عش بها

همس يوسف وهو ينتظر رد فعل ورد: "هيا يا ورد، لا تخافي، لن تكوني برفقتي إلا آمنة مطمئنة"

قرعت أذني ورد كلمات الطيبة رشا: "الخوف ما زال داخلك يا ورد، يحاول إبعادك عن حقيقتك الوجودية، يحاول جعل ما عايشته يحدّد مصير حياتك القادمة، لا تجاربه يا ورد، خوفك هو عدوك الأكبر الآن، هو عدوك الحقيقي، تحدّيه يا ورد، تحدّي نفسك المتغذية به وعقلك الممتلئ منه"

سرت القشعريرة داخل جسدها، تقدّمت خطوات بطيئة بدت كخطوات دمية تمشي ببطارية ضعيفة، وصلت إلى الأرجوحة، تحسستها، وجلست عليها. تمتمت موجهة كلامها ليوسف: "إياك أن تلمسني"

ابتلع يوسف ريقه وأخذ نفساً طويلاً، وقف خلفها ممسكاً بجبال الأرجوحة، سأل: "هل أمرجحك؟"

وجهت ورد نظرها إلى معصم يوسف الأيمن، حدّقت في شامته، شاهدت في عروقه البارزة نبضاً متسارعاً قالت بصوتٍ هادئ متوتر: "كلا"

ساد الصمت لثوانٍ وهي ترتجف خوفاً وتوتراً، تماسكت قليلاً ثم سألت: "لم الزيتون؟"

"لأنّه الوطن"

"والجوري؟"

"هو أنتِ"

"والأرجوحة؟"

"رِباط الودّ والمحبة، الذي يعيد الأشياء مهما بعدت واهتزّت وعلت وسقطت

إلى موطنها"

"وهل سنعود نحن إلى الوطن؟"

"أتعرفين حين أنظر داخل عينيكِ ماذا أرى؟"

"ماذا؟"

"الأمل!"

تمت بحمد الله



dewanalarabegypt@gmail.com

01030502390

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.